الأب بيوس عفاص

يعيد قراءة حياته

سلسلة روافد/ ٢

دار بيبليا للنشر
الموصل ٢٠١٣

تصميم الفنان: ماهر حربي

مختلف يعيد قراءة حياته

سلسلة روافد

١. الخطوات الأولى للمسيحية في الشرق
تعريب المطران جرجس القس موسى / بيبليا للنشر ٢٠١٢

٢. مختطف يعيد قراءة حياته
بقلم الأب بيوس عفاص / بيبليا للنشر ٢٠١٣

يظهر في السلسلة

- دليل إلى قراءة العهد الجديد
- صلاة تسليم الذات

دار بيبليا للنشر / كنيسة مار توما – الموصل [العراق] e-mail: bibliamosul@yahoo.com

تطلب كافة اصدارات دار بيبليا / مركز الدراسات الكتابية
في العراق: - مكتبة بيبليا / كنيسة مار توما – الموصل
في لبنان: - مكتبة جامعة الروح القدس – الكسليك
- المكتبة البولسية – جونيه
- مكتبة دير مار اشعيا - برمانا

سلسلة روافد / ٢

مختطف
يعيد قراءة حياته

بقلم

الأب بيوس عفاص

دار بيبليا للنشر

الموصل-العراق

٢٠١٣

كلمة الناشر

أنْ يكون الناشر والكاتب واحداً، فتلك مفارقة ولا اجمل! وأنْ يتخذ كتاب "مختطف يعيد قراءة حياته" مكانه في سلسلة **روافد**، فتلك أكثر من مفارقة، سيما وقد اردناها سلسلة جديدة يتاح فيها للكتّاب نشر نتاجاتهم المتنوعة من تأليف أو ترجمة... ذلك لأن الروافد تصبّ كلها في مصبّ الانجيل. فلئن كانت باكورة **روافد** قد اوغلت في النبش عن "الخطوات الاولى للمسيحية في الشرق"، منذ أن تخطّت البشرى حدود فلسطين باتجاه سوريا وارمينيا وقبدوقية... إلا أنها، مع هذا الكتاب الفريد، تتكبّ على ما انطوت عليه مسيرة "معترف" لم يُعط له أن يحصى في صفوف الشهداء الذين روت دماؤهم تراب هذا الشرق، وقد شهد ويشهد، منذ الفي عام، للمسيح الحي القائم من بين الاموات، بيقين أننا ان متنا معه فسنحيا معه، وان تألمنا معه فسنتمجد معه ايضاً!

هذا الجزء الثاني في سلسلة **روافد** ليس سيرة ذاتية كما يطيب للكثيرين أن يكتبوا، سيرة تعكس بطولاتهم ومآثرهم عبر حياة ارادوا لها أن تتخلّد وتخلّد معها اسمهم... والخلود والعظمة لله! وانما هو شهادة حياة يدلي بها مختطف عاش محنة قاسية سرعان ما تحوّلت الى خبرة أيمانية مليئة بالرجاء والأمل؛ شهادة لم يكن يُقيَّض لها ان تبصر النور لولا مرورها ببوتقة الألم، ولولا "اختبارها" الموت وجها لوجه —وهو محك للإيمان ومصفاة للخيار الاعظم في الحياة في إثر ذاك الذي عاش في الامانة الكاملة واختبر الألم والموت ورُفِعَ في المجد.

كتاب هو حصيلة خبرة عاشها صاحبها كاهنا على مدى خمسين عاماً! وأعطي له من ثم ان يعيش مزيدا من العمر يسعى إلى عيشه في الشكر والعطاء الدائم.

كتاب ليس الهدف منه استدرار الاعجاب أو اجتذاب الثناء، وانما اراده صاحبه خبرة يقاسمها اخوة واخوات، تشده اليهم اواصر الصداقة، متمنيا ان يعتبروها فرصة للتامل في الحياة برمتها، بأفراحها والامها، بتطلعاتها ومعاناتها، على غرار لوقا الذي كتب انجيلاً موجّها إلى تاوفيلس —وهو يمثل كل احباء الله —هو شهادة أيمان ودعوة الى التيقن من "صحة التعليم" الذي تلقاه ومنحه من ثم ثقته وولاءه...

مع تحيات دار بيبليا للنشر

الموصل في ٢١ تشرين الأول ٢٠١٢
الذكرى الخامسة للنجاة من الاختطاف

١

بمثابة مقدمة

بمثابة مقدّمة

والذكريات صدى السّنين...

لكم أنشدت، مقلّدا عبد الوهاب تارة، وفيروز تارة أخرى، تلك القطعة الشعرية الرائعة "يا جارة الوادي"... ويطيب لي أن أتّخذ من هذا المقطع بداية لما أروم أن أسجّله من ذكريات كانت عزيزة عليّ، ولكنّها اتّخذت إبّان اختطافي (١٣-٢١ تشرين الاول ٢٠٠٧) معاني أخرى أكثر عمقا، لأنّي أخذت أقرأها على ضوء المحنة ولا سيّما في ضوء النجاة من المحنة، محنة كانت امتحانا عسيرا، ونجاة كانت بمثابة انبعاثٍ وقيامة، لا بل كانت عمرا كتب لي مجدّدا!

لَكَم كنت وما زلت أكرّر على طلاّبي في مركز الدراسات الكتابيّة بصدد كيفيّة تكوين الأناجيل ونشأتها، حين كان المسيحيّون الأوّلون يستذكرون قصة حياة يسوع واقواله وأعماله ولا سيّما آلامه وموته على ضوء قيامته، حين تحوّلت هذه البشرى الشفهيّة بيسوع القائم إلى بشرى مدوّنة -وكان مرقس، في حدود عام ٧٠ م أوّل من ابتكر هذا الفن الأدبي: الإنجيل. وأجدني الآن بإزاء "قصة حياتي"، أخذت أعيد قراءتها في ضوء نجاتي من الأسر... وكما سلّطت قيامة المسيح أضواءها على أقواله وأفعاله، مضفية عليها معاني لم تكن لها حين تلفّظ بها أو صنعها في السنوات الأخيرة من حياته، هكذا -ولِمَ لا أقولها- استنارت أحداث كثيرة من حياتي الماضية بنور عمر جديد كُتِبَ لي! إنّها والحقّ يُقال سنوات كان بوسعها ألاّ تكون، وها هي قد أُضيفَت على حياتي هبة مجّانيّة من لدن الله: أليس الله هو الذي يهب الحياة ويأخذها؟ وليس لأحد الحقّ في وضع حدّ لها، لا بالانتحار، ولا بالاوثاناسيّا، ولا بأولى حجة، بالقتل أو الذبح! قلتها لسجّاني الذي عجب من أنّي بدوت غير مبالٍ بالموت: الله وحده، له السلطة على الحياة، وليس بوسع أحد غيره أن ينتزعها من يد الله. أليس هذا هو المعنى العميق من عبارة "سلّم" الامانة، نقولها عن مدنف يفارق الحياة؟ ولِمَ لا أسلّمها له إذا كان يشاء أن يجعل من دمي شهادة له؟

ولكنّي من عمق ظلمة الموت المحدق بي وبزميلي في الأسر، الأب مازن، تجرّأت أن أقول للرب: إن شئت أن تضع حدّا لحياتي، فلا اعتراض، ولي ورائي ٤٥ عاما من الخدمة الكهنوتيّة، وأمّا زميلي، فبالكاد مضت ٤٥ يوما على رسامته! فدعه يعيش!

لست أبالغ إذا قلت بأني استعدت قراءة حياتي كلّها، خلال تسعة أيام، بلياليها الطويلة، ونهاراتها التي كانت شبه ليال وأنا معصوبُ العينين ومقيّدٌ بالسلاسل. ولكم اتّضحت لي أمور لم أكن قد فهمتها في حينه، أو اقلّه لم أكن قد استوعبت معانيها بالكامل؛ وبالأكثر، لم يكن بوسعي آنذاك أن أحيط بكلّ أبعادها ومردوداتها. وهنا كيف لا تحضرني مقاطع من إنجيل يوحنّا، وأوّلها جواب يسوع إزاء تحدّ وجّهه إليه اليهود طالبين منه آية: "انقضوا هذا الهيكل، وأنا أقيمه في ثلاثة أيام"! ويستطرد الإنجيلي معلّقا: "أمّا هو فكان يعني هيكل جسده. فلمّا قام من بين الأموات، تذكّر تلاميذه انّه قال ذلك، فآمنوا بالكتاب وبالكلمة التي قالها يسوع" (يوحنا ٢: ١٩-٢٢). انّه الاستذكار في أعمق معانيه!

"وتذكّر" التلاميذ، أي أنّهم أعادوا "الفيلم" بالعكس، انطلاقا من النهاية باتجاه البداية، فبدا لهم كلّ شيء جديدا... ولكم توضحت لهم أمور كثيرة من حياة يسوع لم يكن بوسعهم آنذاك أن يدركوها، وفي مقدمتها آلامه الشديدة وقد تمخّضت عن موت قاسٍ، موت الصليب... وهم الذين، حين لاحت أمامهم بوادر المحنة، تخلّوا عن يسوع وهربوا جميعهم... ولكنّهم في ضوء وحي الله لهم بأنّه أقام يسوع الناصري المصلوب ومجّده، راحوا يقرأون آلامه وموته في ضوء قيامته المجيدة؛ كما قرأوها في ضوء الأسفار المقدسة، فتبددت ضبابية الرؤية لديهم وأخذوا يدركون: أما كان ينبغي للمسيح أن يعاني الآلام ويدخل إلى مجده! ومنذئذ أصبحوا بإزاء عالم جديد افتُتِحَ بقيامة يسوع: انّه اليوم الأول من الأسبوع، بدء الخليقة الجديدة، لا نفهم إلا في ما بعد! وهذه الأخرى مقولة حادّة كتبها الأب اتيين شربنتييه صاحب كتاب "دليل إلى قراءة الكتاب المقدس" في معرض المقدمة الرّائعة التي تصدّرته، في محاولة لادخال القارئ إلى عالم الكتاب المقدس، عبر مثل استقاه من وحي أمسية مع زوجين عجوزين، مساء يوبيلهما الذهبي، حين كانا يستعرضان خمسين عاما من الحياة الزوجية، عبر وريقات وبطاقات وصور وسندات ووثائق... وكيف كان كلّ منهما يحكي جانبا من حياة كاملة امتزجت فيها الأفراح والأحزان، وكيف اتخذت كل ورقة أو وثيقة معنى... ويقول الشاهد لهذه الأمسية وما دار فيها من أحاديث: كنت معهما اكتشف نسيج حياة أُستُجمعت في بضع ساعات وفُسِّرت في ضوء شركة لم تقوَ السنون الخمسون على زعزعتها... ومن بين تلك الوريقات المبعثرة، كانت هناك ورقة تحمل مسألة جبرية من أيام الدراسة، وإذا بهما، وبصوت واحد يقولان: هذه هي أوّل رسالة حب! -وليس فيها أيّ شيء يدلّ على أنها "رسالة حب"، سوى أنّها مسألة جبريّة من أيّام الدراسة كان قد حملها إليّها حين غابت

يوما عن المحاضرة! ذلك انّهما ما زالا يجدان فيها أوّل شرارة جمعت بينهما في ما بعد. ويطيب لي هنا أن أنقل تعليق الأب شربنتييه: "كلّ حدث يحمل في ذاته معاني كثيرة لا يُنتبَه إليه عند حدوثه. ولكنّه إن كان هامّا في الواقع، مال الانسان إلى إعادة التفكير فيه، وان أعاد التفكير فيه، اكتشف ما فيه من غنى. وكلّما طال الزمن، ازداد غنى الحدث". هكذا تتخذ الأحداث في حياة الإنسان معنى أكبر بعد مضي الزمن، وقد يزداد هذا المعنى ويتعمق وتكون له مردودات هامة... وحين يروي الانسان أحداثا من الماضي -كما سيكون دأبي في هذه الذكريات- فلن يكون السؤال: ماذا جرى في الواقع؟ وإنما: ما معنى هذا الحدث أو ذاك، اليوم؟ ويزداد هذا المعنى عمقا واتّساعا كل مرة أُعيد ذكره أو رُويَ من جديد... وسيكون ما يرويه المرء صادقا وصحيحا بكلّ معنى الكلمة، حتى وإن لم يكن مطابقا للواقع تماما! فرسالة الحب الأولى لم تكن في الواقع سوى تلك الوريقة الجبريّة التي حملها إليها لدى غيابها عن المحاضرة! الا انها اطلقت شرارة الحب بينهما... وتلتها رسائل ورسائل... ويخرج شربنتييه بالخلاصة: وهكذا الحال مع الكتاب المقدس...!

وهذا ما سأقوم به، إلى حدّ ما، في هذه الذكريات[1]... وهي بالأولى استذكار محمّل بالمعاني أكثر من كونها تاريخا أو سلسلة ذكريات "طبق الأصل"! لأني أروم من خلالها أن ابحث عن بعض ما كان في حياتي من معنى أو معانٍ في ضوء الحياة "المضافة"، منّة منه تعالى، أتقاسمها مع من كانت لهم معي شركة في مشواري الطويل، ويطيب لهم أن يشاركوني في فعل الشكر على منّه تعالى... وقد يجد فيها آخرون ما يحملهم على اكتشاف ما ينطوي على حياتهم من أسرار ومعانٍ، فيعيشون حياتهم في الشكر... فلكم تعجبني هذه المقولة: لئن شَكرتُم لأزيدَنّكُم!

الموصل ٢٠١١/٥/٢٦

(١) إذا بدأت اديج هذه الذكريات منذ اواخر الشهر الخامس من عام ٢٠١١، في الموصل، وحتى أوائل آب، في لبنان من السنة ذاتها، إلا اني لم استأنفها إلا في صيف ٢٠١٢ في لبنان، لانجزها في الموصل في خريف ٢٠١٢!

٢

يوم التحرير: الآن علمت

يوم التحرير: الآن علمت!

حين عُدنا، مُجدَّداً، أنا ومازن، في ٢٠٠٧/١٠/٢١، إلى صندوق سيارة الـ "فيكترا"، كانت المساومة بينهم تدور حول العشرين ألف دينار المخصّصة لعودتنا بالتاكسي إلى دارنا... وبعد أن وهبنا بسخاء نصفها "للويلاد" الّذين لهم أب يستضيف المختطفين في داره لقاء أجر -وليس في ذلك أجر عند الله!- دفعهُ الجشع إلى تجزئة العشرة آلاف إلى قطعتين من خمسة آلاف لكل منّا كي يعود بها إلى داره... وارتضينا - وطريقنا الى دارنا واحدة- بخمسة آلاف دينار فقط، وبقي لنا منها ألف دينار احتفظنا به للذكرى! أمّا دارنا، فهي تمتد على مساحة كبيرة من "الزقاق العريض" -وليس "الزقاق المستقيم" الذي قيل لحنانيا أن يذهب إليه طلبا لشاؤل الطرسوسي، حين كانت بعد على عينيه مثل القشور تساقطت بفعل الروح القدس الذي كشف له عن يسوع الحي! وليست دارنا سوى كنيسة مار توما التي عدنا إليها سالمين ونحن لا نكاد نصدّق أعيننا... وكان اليوم الأول من الأسبوع! أليس في توقيت "خروجنا" من بيت العبودية، يوم الأحد، إشارة إلى يوم القيامة التي بها دُشِّن عهد جديد وبدأت خلقة جديدة؟! تلك ستكون قراءتي الإيمانية للحدث!

كانت عودتنا قبيل ظهر الأحد... وكان حَمَلان، تبرّع بهما آل توشي وبسّام عنائي، قد ذُبِحا عن سلامتنا... وحينذاك أدركت -كما أُدرك اليوم أيضا- أني كنت أحد الحَمَلَين المرشّحين للذبح! وانّهما ذُبِحا فدية عنّا! وتذكرت كيف أن الإنجيلي يوحنا في روايته للآلام، شدّد على أن بيلاطس "أجلَسَ" يسوع على كرسي القضاء، ليبرز كيف أن المدان هو ذاته الدّيان الجالس على كرسيّ القضاء! قبل ان تتحقق فيه نبؤة أشَعيا: مثل حَمَلٍ سيقَ الى الذبح... وإذا كان هناك خروف ذُبِحَ ابّان خروج بني إسرائيل من بيت الحبس ليفتدي دمه أبكارهم، نجدنا هنا بإزاء حَمَلٍ ذُبِحَ "دون أن يُكسَر فيه عظم"، ليجمع أبناء الله المشتتين!

وفي مساء ذلك اليوم عينه -يوم القيامة بالنسبة لنا- كنّا نحن الاثنين على موعد مع قداس المساء في كنيسة لم تُغلَق أبوابها إلا في احد واحد -وما كان ينبغي أن تغلق ولا ليوم واحد! ومع مؤمنين، من دون موعد، تقاطروا وتسارعوا ليشاركوا في قداس الشكر، وقد نزعوا الخوف الذي كان لأيام تسعة قد استحوذ عليهم وسمّرهم، فيما كانت

القلّة القليلة ترجو وتأمل وتتوقع... وبالاكثر تصلّي، وفي أعماقها، سواء علمت أم لم تعلم، يقينٌ بأنّ الرجاء لن يخيّب! ألَم يكتب القديس بولس: "كونوا في الرجاء فرحين وفي الشدّة صابرين" (روما ١٢:١٢)... إذ اننّا "في الرجاء نلنا الخلاص... وما يشاهده المرء فكيف يرجوه أيضاً؟ ولكن إذا كنّا نرجو ما لا نشاهده، فبالثبات نتظره" (روما ٨: ٢٤-٢٥).

وكانت "افخارستيا" بكل معنى الكلمة، أي فعل شكر رفعه معنا أحبّاء لم تكن دموعهم قد جفّت بعد، وإذا بدموع الفرح تغسل وتمسح كلّ دمعة من عيونهم... وتساءلنا في عمق قلبنا: هل نحن في عُرسِ الحمل ووليمته حين أصدى يوحنا له في رؤياه:

"عظيمة عجيبة أعمالك ايّها الربّ الإله القدير
وعدل وحقّ سبلك، يا ملك الأمم
من تراه لا يخاف اسمك ولا يمجّده يا رب؟
فأنت وحدك قدّوس
وستأتي جميع الأمم فتسجد أمامك
لأنّ أحكامك قد ظهرت" (رؤيا ١٥: ٣-٤)

وكان لا بد أن ينتقل بي الفكر إلى سفر أعمال الرسل حين كان بطرس ويوحنّا، في أعقاب شفاء المقعد، يخاطبان الشعب ويبشّران بيسوع وبقيامة الأموات، ألقي القبض عليهما وأودعا السجن... وحين استُجوبا، قال بطرس بجرأة: "اعلموا جميعا، وليعلم شعب إسرائيل كلّه أنّه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه انتم فأقامه الله من بين الأموات، بهذا الاسم يقف أمامكم ذلك الرجل مُعافىً" (٤: ١٠). ولدى إطلاق سراحهم، رفع المؤمنون تلك الصلاة الرائعة التي انطلقت من المزمور الثاني لتخلص إلى طلب القدرة والجرأة على إعلان الكلمة: هب لعبيدك أن يعلنوا كلمتك بكل جرأة (٤: ٢٩). وها نحن من جديد واقفون لإعلان كلمة الله.

وكان القديس بطرس لسان حالي، في هذه الافخارستيا، كما في غيرها في كنائس أخرى كثيرة، وقد أصدى لوقا في أعمال الرسل لنجاته، بعد ان قبض عليه هيرودس أغريبا الأول، فكتب يقول: "لكن الصلاة كانت ترتفع من الكنيسة إلى الله بلا انقطاع من اجله" (١٢: ٥).

بهذه العبارة بدأت شهادتي في قداسي الأول بعد نجاتي التي نسبتها وما زلت انسبها إلى صلاة المؤمنين، ليس في الموصل وضواحيها حسب، وإنما في كل مكان من

العراق وفي كل بلد وجد فيه عراقيّون، بينهم أقرباء وأصدقاء، وبينهم مؤمنون ملتزمون عشت وأياهم خبرات لا تنسى على مدى سنوات كهنوتي، حين كانت مار توما مسرحا لنشاطات ثقافية وروحية ورسولية وخيرية... لا زلنا نعيش من ذكراها، لا بل نختزها اختزارا!

كانت الكنيسة كلّها تصلّي من اجلنا! فلقد صلّى المصلّون: وصلّى ايضا غير المصلّين، أولئك الّذين لا يصلّون إلا نادرا... وكأني بالرب قرر أن يسمع صلاة هولاء الذين لم يكونوا يصلّون، وقد دفعهم حبهم لكنيستهم وتعلقهم بها -وهو يتجلى بالاكثر في زمن المحن- إلى الصلاة. ولعلّ حرصهم على أن لا تصيب مسيحيي الموصل هزّة جديدة قد تكون حاسمة هذه المرّة -من بعد تلك الهزّات المتتالية، منذ أول اختطاف طال المطران جرجس القس موسى الذي أصبح "عميد" الكهنة المختطفين، وبعد أول استشهاد عنيف تعرض له القس **بولس اسكندر (+٢٠٠٦)**[٢]، فضلا عن أعمال خطف وقتل ذهب ضحيتها مسيحيون كُثر- حملهم على أن تتخذ صلاتهم نبرة الاحتجاج والتحدي حينا، ونبرة التوسل والاستنجاد حينا آخر... ولسان حالهم يقول: كفى من العنف الذي تسبب في تهجير وتشتت مسيحيّي هذه المدينة العريقة التي ترقى المسيحية فيها إلى الأجيال الأولى، وكان لهم الدور الفاعل في بنائها وبناء حضارتها وتراثها...

لقد كنّا، ونحن في يد مختطفينا، على يقين من صلاة الكثيرين في كل أرجاء العالم، ولا سيّما بعد أن علمنا أن البابا بندكتس السادس عشر، قد وجّه نداء لإطلاق سراحنا، وهو لا يدري أنه بذلك النداء رفع "ثمننا"! وهوذا ملاك الرّبّ يُخرج بطرس من السجن ويَجتاز به الحواجز حتى الزقاق ثمّ يفارقه، فيعود إلى ذاته قائلا: "الآن أيقنت أنّ الرب أرسل ملاكه فأنقذني من يد هيرودس ومن كل ما يتوقع شعب اليهود" (أعمال الرسل ١٢: ١١). قراءة إيمانيّة قام بها بطرس للحدث... وعلى منواله، قُمنا بقراءة مماثلة: هو الرب، عبر صلاة مئات الألوف من المؤمنين -وكم من مسلم ومسلمة أكّدوا لنا أنّهم رفعوا الدعاء لأجلنا!- شاء أن ينجّينا لنواصل الشهادة له في هذه المدينة المنكوبة وفي هذا العراق الممزّق، بفعل المصالح والأهواء التي ايقظها الاحتلال الأمريكي، وقد افرز ما أفرز من انقسامات وتحزّبات، لا بل كان وراء مسلسل الإرهاب والعنف في أبشع صورهما...

"الآن أيقنت... "! قالها بطرس، وراح يروي كيف أخرجه الرب من السجن! وإذا كان لوقا قد توقف عند الحدث وتفسيره بفم بطرس، فلأنّه شاء أن يفهمنا بأنّ كلمة

(٢) لقد سعيت قدر المستطاع الى ان اثبت سنة الوفاة لدى ذكر الاسم للمرة الاولى في سياق الحديث.

الله لا تُقَيَّد، حتى وان أُوثق خدّامها بالسلاسل والقيود... وما نجاة بطرس سوى مؤشر إلى أن عليه أن يواصل مهمته التي كان الرب يسوع قد عهد بها إليه: "ولكنّي دعوت لك ألاّ تفقد إيمانك، وأنت ثبت إخوتك متى رجعت" (لوقا ٢٢: ٣٢).

إنّها مهمة جديدة وضعت على كاهلنا... ففيما رفعنا ونرفع معا آيات الشكر للرب الذي استجاب إلى أنين شعبه واستغاثته، عاهدناه أن نبقى مؤمنين بالرجاء وممنّين الرجاء لدى شعب كاد يفقد سبل الرجاء... فلقد أخذنا من محنتنا خبرة لن تُنسى، واخذ شعبنا من خبرتنا قوةً وصموداً للبقاء والثبات بالرغم من كل ما يصيبنا ويصيبهم من آلام ومحن، هي بالتالي مِحَك لعمق إيماننا وتجذّره في تربة هذا البلد وهذه المدينة، وللشهادة التي يترتب علينا أن نؤديها للمسيح في ما بين أبناء الحدباء، وقد قلتها في سرّي أيام الاختطاف: تدبر أمرك يا رب، فقد لا يبقى من يشهد لك في هذه المدينة!!

وليُسمح لي أن أثبت هنا الشهادة التي كُنتُ قد أدليتُ بها في نيسان الماضي، على طلب من الاب بيير نجم الراهب الماروني اللبناني المريمي، حين كان في الدراسة بباريس، وشاءَ أن يُدرجها في موقع الكتروني له، في اطار حديث عن مسيحيي العراق "المضطَهدين":

حين تمضي ايام على الشفاء من مرض عضال، تعود ايام الالم والمعاناة لتتخذ وجها جديدا وتضفي عليها معان وأبعاد لم تكن لها في حينه! هكذا هي الحال غداة نجاتي، مع زميلي، من الخطف والاسر، وقد أسفرا عن حياة "كتبت لنا من جديد"، حين انتقلنا من "الجب" الى "فوق"، وكأننا انتقلنا من الظلمة الى النور ومن الموت الى الحياة. انه عبورنا "الفصحي" وقد قرأناه ونقرأه في ضوء القيامة التي سُلطت أضواؤها على حياة يسوع برمتها ولا سيما على الامه وموته على الصليب.

وحين فُكّت قيودي ودخلت من جديد في صندوق السيارة، ومن ثم انفتحت عيناي المعصوبتان على نور الشمس... أول ما حضرني كانت كلمات القديس بطرس الذي سقطت السلاسل من يديه وانفتحت له أبواب السجن ووجد نفسه وحيدا في العراء، فقال: "الآن علمت ان الله أرسل ملاكه فأنقذني من يد هيرودس ومن كل ما يتوقع شعب اليهود"!

وفي رواية اعتقال بطرس، كان لوقا قد أشار بان "الصلاة" كانت ترتفع من

الكنيسة الى الله بلا انقطاع من اجله"، ولا شك أن بطرس ذاته كان قد أدرك فيما بعد بان صلاة الكنيسة كلها استجيبت، وانه بفضلها نجا ليواصل مهمته في خدمتها؛ هكذا نحن أيضا، ابان المحنة ولا سيما بعدها، أدركنا كم حرك اختطافنا، وفي كل مكان، من دموع سكبت، وقلوب تضرعت، وأياد استغاثت، وألسنة رفعت الصوت عاليا، مستنجدة حينا ومحتجة حينا آخر، وفي كل الاحوال واثقة أن يسوع هو رب المستحيل!

هكذا، ومع مر الأيام، بعد الانفراج، رحت أعيد قراءة الحدث في ضوء الايمان، ذلك لأني واجهت الموت وكتب لي من ثم عمر جديد. وسرعان ما تحوّلت المأساة الى خبرة روحية عميقة؛ ويا ليت تلك التجربة التي مررت بها تبقى تلهمني السبيل الى العيش بنظرة جديدة، وبعلاقات جديدة، وبرجاء جديد. ولعل أبرز ما أسفر عن هذه التجربة التي عشتها وجها لوجه مع الموت، هو أنها لم تغير في قناعاتي –وقناعات زميلي في الأسر– من ضرورة البقاء في مركز عملي ورسالتي في الموصل، شاهدا لما صنعه الرب معي بين اخوة في الايمان بالله الواحد، ولاسيما بين اخوة يشاركونني الايمان بيسوع الحي القائم من بين الاموات، والذي أُقمنا شهودا له وخداما لكلمته الحية.

ولا أُخفي أن هذه المواجهة مع الموت كانت بمثابة نعمة كبرى لي، وقلما "يحظى" الانسان بمثلها وتسفر عن نجاة، سيما حين تراقصت في ذاكرتي وجوه شهداء من الماضي والحاضر، شهداء قدموا دماءهم شهادة للرب القائم –وكان لم يمضِ سوى بضعة أشهر على استشهاد الأب رغيد كني (+ ٢٠٠٧) ورفاقه– ولا أغالي اذا قلت بأن الخوف لم يقو على الاستيلاء على مشاعر الثقة والرجاء والسلام وتسليم الذات... ولعل اروع ما حفظت من تلك الايام التسعة هي صلاة تسليم الذات للطوباوي شارل دي فوكو، التي لَكَم ردَّدتها ليل نهار، وهي توجز كل الصلوات، ومعها كل ما حفظته ذاكرتي من مزامير وأناشيد وفي مقدمتها نشيد مريم ونشيد زكريا...

ليت تلك الخبرة تواصل فعلها، فتحملني على الجري لخدمة الكلمة، بالرغم من كل المعوقات... اذ لا بد لكلمة الله من أن تبقى "غير مُقيَدَة"!

الموصل ٢٠١١/٥/٢٨

٣

وكان مساء وكان صباح
يوم أول

وكان مساء وكان صباح يوم أول!

اليوم الأوّل: "عصر السبت ٢٠٠٧/١٠/١٣

ولكن أيّ مساءٍ كان؟! وأيّة ليلةٍ كانت؟!

ما زالت وجوه مختطفينا شاخصة في مخيلتي حين كنت أتحدث إليهم من سيارتي البيكب في المقعد الخلفي، وانأ اشرح لهم اننا لم نقتحم منطقتهم (اليرموك) الساخنة الساقطة في أيديهم، وليس لنا فيها عمل تبشيري سوى اننا كنا في زيارة عزاء، ولست ادري حتى اليوم، ما الذي حملني، قبيل اختطافنا بخمس دقائق، على الاعتذار عن استلام المليون دينار، عن راحة نفس المرحومة أميرة، خشية أن نخطف ويخطف معنا المليون!

مهما قلنا وبررنا ساحتنا من كل "صليبية" ومن كل تماس مع قوات الاحتلال -وقد أطلعتهم أنّي كنت أول من وقف في ميلاد ٢٠٠٣، ليشجب الاحتلال وينبئ عن مساوئه ويحذر من مغبّاته...- لم يلقَ طرحُنا أذنا صاغية لدى شباب كانوا مكلّفين فقط بعملية الخطف وتسليمنا إلى المضيف الذي "يتكفّل" بنا، ويدعى "أبا علي"، من دون أن نرى وجهه ولا وجه أم علي التي كان عليها أن تهيئ لنا الطعام... وما زال شاخصا في ذاكرتي مشهد الكرّ والفرّ مع مختطفينا الأربعة في تلك الفسحة أمام بيوت شعبية توحي بالفقر والبؤس، وكان الحوار بيننا حوار طرشان! وطال هذا الحوار المؤدّي إلى طريق مسدود قرابة نصف ساعة أدركنا خلالها أنّنا بين أيدي عصابة كنّا لهم بمثابة اللّقمة السائغة، وكان لسان حالهم يقول: يا مدوّر أدوّر عليك!!

وفي الاثناء كان اتصالهم عسيرا مع المضيف الذي كان عليه أن يصل بسرعة ليذهب بنا الى حيث يقرّر مصيرنا في مكان مجهول. ولما قربت الساعة، وكل الأجواء كانت تنبئ بالخطر -وتَمثّل أمامي مشهد اعتقال يسوع في بستان الزيتون- كانت لنا نحن الاثنين رباطة جأش هي أشبه بمن يعطي من الضعف قوّة، ولكنّها كانت مستمدّة من انقياد للروح الذي تَركْنا له، منذ اللحظة الاولى، أن يفعل بنا ما يشاء... فكانت صلاة تسليم الذّات للأخ **شارل دي فوكو** (+ ١٩١٦)، الطّوباوي، أوّل ما تمتمتها في سرّي:

أبتِ إني أُسلِّمُ لَكَ ذاتي، فافعلْ بي ما تَشاءُ،
ومهما فَعلتَ بي، فأنا شَاكِرٌ لَكَ،
إني مُستعِدٌ لِكُلِّ شيء، وارتضي بكُلِّ شيءٍ
ليسَ لي رَغبةٌ أُخرى يا إلهي، سِوى أنْ تكمُلَ إرادَتُكَ فيَّ وفي جميعِ خلائِقِكَ،
إني أستودع روحي بينَ يَديكَ،
واهبها لكَ يا الهي، بِكُلِّ ما في قلبي مِنَ الحب، لاني أُحِبُّكَ
ولانَّ الحُبَّ يَتطلَّبُ مني أنْ أهبَ نفسي
أن اودعها بينَ يديكَ مِنْ دونِ ما قياس وبثقةٍ لا حدَ لها
لأنَّكَ أبي.

وحضرت سيارة الفيكترا، وكان علينا أن ننزل من "البيكم" وتنزع عنّا ملابسنا الكهنوتيّة -ويا له من مشهد حين تبعثرت أمام أعيني ازرار سوتانتي بعد أن أُفرِغَت مِن كُلّ ما في جيوبها من هويّات ومفاتيح ومحفظة، فكان السطو الأول على ما فيها من مبلغ! وتلاه سطو على صليب ذهبي مُهدى، كنت اعتز به! كما كان القبض على حلّة الاب مازن الكهنوتية التي كان مزمعا أن يتشح بها في أول قداس له في كنيسة عذراء فاطمة. ومع السيارة حضرت ساعة حشرنا في صندوقها، ولم يكن لنا خيار سوى أن نكون في وضع "الرأس والرجلين"! وغني عن القول ما يترتب على ذلك من وضعٍ مُزرٍ: حذاء في الوجه! وسبق أن طلب منّا أن نعطي اسم المفاوض الذي نشاء أن تتم معه المفاوضات... فكان "رائد" (الاب عمانوئيل). وعلمنا من ثمَّ انّه صُعِقَ في أول مكالمة معه في عصر ذلك اليوم! كما علمنا من بعد كم كانت المفاوضات عسيرة، وفيها التطاول والكلام الخشن والتهديد المقرف... حتى كان لهم ما أرادوا!

وعبر طريق غير معبّد، كاد الغبار المتصاعد من أسفل يخنقنا... لم تكن صلاتي آنذاك تتعدى كلمات يسوع: لتكن إرادتك! لكن، لم يخطر ببالي لحظة انّه يريد هلاكنا، هو الذي ما جاء ليُهلِك بل ليُخلِّص... بل كان لي اليقين من أن إرادته تكمل حين تلتقي مع إرادتنا، أي حين نجعل أنفسنا على موجة واحدة مع ما يريده، وما ينتظره منّا. فحين نقول "لتكن مشيئتك"، فنحن إنّما نعلن أنّنا نسعى إلى تحقيق مقاصده فينا والى التجاوب مع ما يريده لنا من الخير، حتى وان عكست الظواهر غير ذلك... ألم تكن صلاة يسوع في البستان تعبيرا واضحا عن ضيقته وهو يرى مصيره الأليم "محتّما":

يا أبت إن شئت، فاصرف عنّي هذه الكأس، ولكن لا مشيئتي بل مشيئتك! (لوقا ٢٢: ٤٢) -ولا يمكن ان نفهم الامه وموته على الصليب إلاّ في ضوء امانته التامّة للرسالة التي وكلها إليه الآب والتي ذهبت به إلى الموت، موت الصليب... ونفهمها بالاكثر في ضوء القيامة -وهي فعل وفاء الله تجاه أمانته: "أما كان يجب على المسيح أن يعاني تلك الآلام فيدخل في مجده؟" (لوقا ٢٤: ٢٦).

فمع المشاعر المزدحمة، وقد امتزجت فيها المخاوف بمشاعر الإيمان والرجاء... وصلت السيارة المحمّلة بنا إلى بيت الحبس، ولم تكن عيناي قد عصبتا بعد، وأدخلت "دار الضيافة" حيث كان هناك أربعة مسلمين قد سبقونا، فحللنا بينهم على البساط ولا نعلم ماذا ينتظرنا. وسرعان ما انتبه احدهم ان عينيّ ما زالتا مفتوحتين، وحينذاك عصبت عيناي وقُيّدنا كلانا بسلسلة في اليدين... وكان عصرا، وكان اليوم الثاني من عيد الفطير. وكان عشاؤنا في مساء هذا اليوم الأول، بسبب العيد، لفّة من الفلافل أكلها زميلي الذي يعشق الفلافل بشهية اكبر!

لم يتبين شيء من أمرنا: لماذا نحن هنا؟ إلى متى سنبقى؟ هل سنقتل؟ وبأية طريقة: رميا بالرصاص، أم ذبحا؟ وازدحمت التساؤلات مع المخاوف في رأسنا، واختلطت مشاعر الاستغاثة بالرّب بشعور غريب من السكينة والسلام، كما امتزجت صرخات الاستنجاد بصراخ التساؤل والاستفهام: لماذا يا رب؟ وسرعان ما أخذت أتمتم المزمور ٢٢ الذي يعكس ضيقة البارّ الذي لا يعلم لماذا يتألّم، وفي الوقت ذاته يخاطب الله معاتبا اياّه برقّة: الهي الهي لماذا تركتني؟ ألم يكن هذا المزمور ذاته هو الذي تلاه يسوع من على الصليب، متبنيا نبرته الواثقة بالله، بالرغم من مظاهر التخلي التي تجلّت في صمته، وكأنّه لا يسمع! وبالرغم من كل أشكال الازدراء والعنف والتعذيب التي خبرها ذاك البارّ المتألم -وقد عكس ملامحه سفر أشعيا عبر أناشيد "العبد المتألّم"- امتزجت في ذاكرتي الآيات مع بعضها، مبعثرة من المزمور ٢٢ ومن الفصل ٥٣ من اشعيا، من النشيد الرابع (٥٢: ١٣- ٥٣: ١٢):

الهي في النهار أدعو فلا تجيب وفي الليل لا سكينة لي
جميع الذين يرونني يسخرون بي ويغمزون الشفاه ويهزّون الرؤوس
لا تتباعد عنّي/ فقد اقترب الضيق ولا معين
ثيران كثيرة أحاطت بي / وضواري باشان حاصرتني
كلاب كثيرة أحاطت بي/ زمرة من الأشرار أحدقت بي

وأنت يا رب لا تتباعد/ يا قوّتي، أسرع إلى نصرتي (مزمور ٢٢)
مزدرى ومتروك من الناس
رجل أوجاع وعارف بالألم...
كلّنا ضللنا كالغنم
كلّ واحد مال إلى طريقه
فألقى الرب عليه إثم كلنا
عومل بقسوة فتواضع
ولم يفتح فاه
كحمل سيق إلى الذبح
كنعجة صامتة أمام الذين يجزّونها
ولم يفتح فاه،
بالإكراه وبالقضاء أُخذ
فمن يفكر في مصيره؟
أُحصيَ مع العصاة... (اشعيا ٥٣)

ومن باب الدعابة، لا أنسى أني كنت مقيّدا بالسلاسل في اليدين، ولكنّ حركة من حاري الشاب المسلم جعلت السجّان يربط رجله برجلي، بحيث أصبح من العسير عليّ التحرك يمنة أو يسرة! وحينذاك، وفي صمت الليل، همستُ في أذني مازن قائلا: وصلبوه بين لصّين، احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال! وسرعان ما أطلق مازن، وهو عن يميني: اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك! وسرعان ما تذكّرت تلك الردة التي يرتلها الكهنة والشمامسة ويكررها بعدهم الشعب، يوم الجمعة العظيمة، في رتبة سجدة الصليب: "فلنسجد للصليب الذي به خلاصنا، ومع لص اليمين نهتف: اذكرنا في مجيئك"!

ولم اعد اذكر إذا ما دار حديث او استجواب بيننا وبين مضيّفنا، كما لا اذكر أن أحدا أكبر منزلة منه جاءنا في ذلك المساء عينه ليستفسر عنّا نحن الضيفين الجديدين اللذين تبين لمضيّفنا في الحال أننا لسنا في عداد المتهمين بالتعاون مع الأمريكان، أو الذين أُثبتت عليهم مآخذ كالتي يأخذها على الناس أولئك السلفيون الذين لا يروق لهم أن يعيش الناس بحرية في المأكل والمشرب والملبس وحتى في تسريحة الشعر! ودنت ساعة الرقاد، ولم يعد لنا ساعة -فلقد أُخِذَت منّا ساعةَ كُنّا في نقاش حاد مع مختطفينا الشباب، ولم تعد- نستدل بها على ساعات الليل وساعات النهار، إلا عبر اوقات

الصلاة الخمسة، في العشية والفجر والظهر والعصر والمغرب، أو عبر أوقات الطعام الثلاثة: صباحا وظهرا ومساء، وقد كانت لنا أطيب الأوقات، إذ كان يُسمَح لنا فيها أن نَفتح عيوننا على زاد نتناوله في الشكر: مبارك أنت يا رب يا من تعطينا الخبز غذاء.. أعطنا أن نفهم وندرك بان ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان... ومع الخبز، كان لنا أحيانا برغل أو رز أو غير ذلك...

ومن حسن حظّنا اننا انطرحنا على البساط، جنبا إلى جنب، بحجة أني مريض قد احتاج إلى عون... وما أنْ أدلج الليل، اغتنمت فرصة غياب حرّاسنا لأهمس في أذني مازن: أعطني الحلّة لأعطيك بدوري الحلّة... ولم أكن ادري أنّها كانت، بالنسبة له، الحلّة الأولى في حياته، منحها لي أنا الكاهن مثله، وطالما أعطيتها لألوف من المؤمنين، ولاسيّما في أول كهنوتي، وفي أيام الأعياد الكبرى، حين كان طابور التائبين في انتظار دورهم لينالوا الحلّة عن خطايا تغفر لهم، بفعل رحمة الله التي تسبق توبتهم، اذ أن غفران الله الممنوح لهم مجانا وبسخاء، هو الذي يحملهم على التوبة، وهي بالفعل جواب المؤمن على الغفران الذي يحظى به. ويحضرني الآن مثل الابن الضال الذي أبدع لوقا في كتابته (لوقا ١٥) ليقول لنا بأن البطل ليس الابن وإنما هو الأب الذي بقي يحب ابنه الأصغر، وقد شقّ عليه فراقه بالرغم من انقلابه على أبيه وقراره بترك البيت الأبوي إلى البعيد... ولم يكن بوسع هذا الابن الذي بدّد ماله وتخلّى عنه أصدقاؤه وأخذ يحسّ بالجوع والفاقة... لم يكن بوسعه أن ياخذ طريق العودة لو لم يكن على يقين من أن أباه ما زال يحبّه وانّه كان في انتظار عودته بفارغ الصبر! وهذا ما كان... انّه الأب الذي يهرع إلى استقبال ابنه، حتى انه لم يدعه يُلقي الخطاب الذي أعده في الطريق... وهو الأب الّذي يأمر بالاحتفال، ناسيا كلّ شيء سوى أن: علينا أن نفرح لأن ابني كان ميتا فعاش وكان ضالا فوجد!

وغمرنا فرح كبير بعلامة صليب كانت بمثابة اليقين بان قد غُفِرَ لنا... وان علينا بدورنا ان نغفر لمن اساء الينا! وتَمتمَ كُلٌّ منّا في سرّه: اغفر لهم...

-للمقال صلة-

الموصل ٢٨ /٢٠١١/٥

٤

اللَّيلة الأولى:
ويا لها من ليلة!

اللّيلة الأولى: وبا لها من ليلة!

اليوم الأول: ليلة السبت ٢٠٠٧/١٠/١٣

... ولم يكن قد انقضى من اليوم الأول بعد سوى بضع ساعات...

وقبل أن يصيح الديك ويصبح اليوم الأول، كان ينبغي أن تمّر ليلة هي الأولى في بيت الحبس -وكان قد سبق لي لأعوام خلت أن قضيت نصف ليلة لم يكن بمقدوري آنذاك أن أكملها حتى الصباح، فدفعت ما دفعت وأُخليَ سبيلي!! أمّا هذه اللّيلة، فلم يكن هناك سبيل إلى إعفاء نفسي منها... إنها "قدري" ولا مناص من الإفلات منه، بايّ شكل!

ولكن، أحقا ان هذه المحنة هي "قضاء وقدر"؟! قد تكون هذه المقولة جوابا مخدّرا لما لا جواب له... فحين لا يعرف المرء سبب الأحداث التي تجري في حياته، وهو الشاهد عليها، لا يسعه سوى أن يقول: انّه القدر! وحين لا يفقه معنى لأحداث تجري في الكون من زلازل وفيضانات... لا يجد كلمة تعبّر عن جهله بمسببات تلك الأحداث سوى القول: انّه قضاء الله! وقد يتجاهل المرء، عمدا، ان يطرح السؤال: كيف يرتضي الله -وهو الخير الأسمى- بأن تحصد الزلازل الألوف من البشر الأبرياء، أو أن تذهب الفيضانات المدمّرة بمئات المباني والمنازل، بما فيها وبمن فيها! وهكذا هي الحال حين يشهد المرء استشهاد ابن له في مقتبل العمر، أو وفاة أخ أو صديق بمرض السرطان -ولم يكن قد ذاق بعدُ طعم الحياة، بحلوها ومرّها؛ وحين تفقد عروس عريسها بحادث سيارة، وقد اختبرا توّا فرحة إنجاب الطفل البكر؛ أو حين يكون رب أسرة قد أُمتحن بمرض سمّر زوجته على فراش الألم لسنين طويلة، فخلّف الضياع له والحرمان لأولاد افتقدوا حنان أمّهم... والغريب هو ألاّ يقال لكل هولاء المبتلين سوى عبارة تُخدِّرهم: إنها إرادة الله! وأخشى أن تصبح لديهم ارادة الله مدعاة للاحتجاج والتحدي، والكفر أحيانا، بإله لا يهمّه ما يخلّفه الموت -والموت المبكّر بنوع خاص، وبالأكثر الموت الذي يستعجله أناس ينتزعون من الله سيادته على الحياة- من مآس في حياة أسر برمّتها، لا بل بمدن بأسرها.

ألا يحقّ لنا أن نتساءل: هل حقّا هي إرادة الله أن يستشهد شابّ في عزّ شبابه بفعل متطرفين في الدين، يحرّمون الحياة على غيرهم؟ هل تلك ارادة الله ان يقضي آخر بمرض عجز عنه الأطباء، وتفقد عروس عريسها وقد خلّف لها طفلا لن يعرف أباه أبدا؟

هل حقا "مكتوب" أن يُحرم أطفال من حنان أمّهم وهم في مقتبل العمر، ويضطر والدهم ان يصبح لهم أبا وأمّا؟ وهل هو الله، بسابق تصميم، يفجّر البراكين أية كانت نتائجها، ويثير الزلازل حتى وان تسببت في تدمير مدن بكاملها وفي موت عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال؟ وهل الله وراء الحروب التي تخلّف القتلى والجرحى، حتى تلك التي تُضفى عليها صفة القدسيّة؟! وهل الله هو الذي يقف وراء الحرائق التي تحصد غابات برمّتها؟ والانكى: هل هو وراء كلّ الشرور والجرائم التي يقترفها البشر، وعلى كل المستويات؟ وهل هو الذي يقف وراء أعمال العنف والإرهاب التي أدّت وتؤدي إلى مجازر حقيقية يندى لها الجبين، ونحن في العراق عرفنا مثل هذه الاعمال البربرية التي طالت جوامع وكنائس ومؤسسات مدنية وعسكرية واجتماعية وثقافية وفنّية... وكيف يطاوعنا لساننا أن نقول لرجل فقد زوجته في كنيسة سيدة النجاة (٢٠١٠/١٠/٣١) انّ الربّ أحبّها فأخذها! أو أن نقول لواحدة من اللواتي كنّ في الكنيسة ونجت، بعد أن فقدت أبا وزوجا معا، انّ لله في خلقه شؤونا! ونحن نعلم أنّ وراءه أصابع سرّية كانت لها مقاصدها الدنيئة من هذا العمل اللاّ إنساني والوحشي! وكيف يهين علينا أن نقول لأمّ **الأب وسيم القس بطرس** (+٢٠١٠) -بهدف تعزيتها في جرحها العميق- أنّ يسوع أراده يكون، بصوته العذب، مرتّلا في جوقة السماء، ولم يَمضِ على رسامته الكهنوتية بعد سوى ثلاث سنوات؟ او ان نقول لأم **الأب ثائر عبدال** (+٢٠١٠): كُتب على الاب ثائر أن يتوقف عن رسالته مع الشباب والفقراء لأن الرب أحبّه فأراده لخدمته في السماء؟! ونحن نعلم أنّ وراء هذه الجريمة جماعات مظلّلة تُكفِّر مَن تشاء وتستبيح دماء من تشاء، وهي في ظنّها تؤدي عبادة لله! والله براء من كلّ قائين ما زال يقتل أخاه، بأية حجة كانت!

تساؤلات كبرى تزاحمت وما زالت تتزاحم في فكري بشأن أحداث مأساوية لا أجد لها تفسيرا. إنّها معضلة الشر في عريها! معضلة طرحها الإنسان على ذاته منذ أقدم العصور، لأنّها تتعلق بشكل وثيق بمسألة الحرية ومسألة الثواب والعقاب، لا بل بمسألة الله بالذات وبالصورة التي لنا عنه... فليس سواء بسواء أن يكون الله رحيما، رؤوفا طويل الأناة... وفي الوقت ذاته قاسيا، منتقما، شديد العقاب... وكيف تستوي في ذاته المحبة -وهو اله الحب الذي يشرق شمسه على الأخيار والأشرار- مع الشرور التي يسمح لها أن تعبث في الأرض فسادا؟ وإذا علمنا أنّ الله خلق للطبيعة سُنَناً تسير عليها، ويحترم بالتالي سُنَنَها، نفهم أنّ ما يجري من خلل في تلك السُنَن يتسبب في مصائب وكوارث شتّى... ولكن كيف نفهم أن يبلغ الشرّ بالإنسان -وقد خلق على صورة الله ومثاله-

إلى أفعال لا تمت إلى إنسانيته بصلة البتّة؟! والانكى، كيف يسمح الله بتلك الشرور التي يقترفها الناس بحق الناس، وفيها التعدّي الصارخ والاستباحة الفاضحة والجرم المشهود في أبشع مظاهره...؟ ولكَم يشهد عالمنا من تجاوزات على حقوق النّاس وحرّياتهم، وعلى أكثر من صعيد، تجاوزات لطالما أفرزت من الآلام والمعانيات...

لقد ذهبت بعيدا في محاورتي مع ذاتي بشأن الشرّ والألم، وهو سرّ لا تفك ألغازه بيسر، بل يبقى العديد منها خفيّا في أعماق المؤمن! فالشرّ والألم لغزان يبقيان سرّا... وبالاكثر، يبقى سرّا اكبر ألم البارّ وألم البريء، ولسان حاله يقول لله: لماذا يا رب؟ قالها أيّوب البارّ وبلغ في حواره مع أصدقائه -وقد زادوا، بتفسيراتهم، ألماً على ألَمِه- إلى طريق مسدود، وما كان عليه بالتالي إلاّ أن ينحني أمام محدوديّته وعلمه النّاقص ويبقى ثابتا في برّه، ويقينه أنّ "فاديه حيّ" (أيّوب ١٩: ٢٥)، وأنّه قادر على كلّ شيء، لا يستحيل عليه مراد، فأطلق كلمة أخيرة هي مفتاح السرّ: "كنت قد سَمِعتُك سَمعَ الأذن، أمّا الآن، فعيني قد رأتك" (أيّوب ٤٢: ١-٦).

كان لا بدّ لهذه التساؤلات أن تنتصب في أول ليلة أدخل فيها ظلمة اللّيل الحالك وأواجه مصيري المجهول... ولم يخطر ببالي لحظة أنّها إرادة الله! ولكنّي قرأت وسأقرأ بالأكثر الحدث فيما بعد في ضوء إرادة الله الخفيّة وما نتج عنه من خبرات عميقة كان لها ولا زال مردوداتها الايجابية... ودخل كلّ منّا في صمت قلبه، وعلى مدى ساعات الليل الطويلة التي لَكَم بدت طويلة... وتذكرت خلالها قول الشاعر:

"ولا بُدَّ لليل أن ينجلي، ولا بدَّ للقيد أن ينكسِر؟

وكان أول ما وجدتني مدفوعا إلى قوله للرب في صمت الليل: لتكن مشيئتك! ولست، أغالي إذا قلت بأنّي لم اطلب منه النّجاة، ولسان حالي يقول له: إذا أردت أن تضع حدّا لحياتي، فأنا مستعد... وان شئت أن أواصل الرسالة في خدمة إنجيلك، فأنا على استعداد أيضا، وقد أكون من ثمّ على عطاء اكبر وبذل أعمق...

ولازمتني أنشودة منسوجة من آيات متفرقة من سفر المزامير وسفر أشعيا النبيّ والأناجيل، هي تأمل في الآلام... حفظتها منذ صغري في كنيستي الحبيبة حيث كان يؤديها أشخاص، من رجال أو نساء، ترافقهم تمتمة بطبقة خافتة من أصوات المصلّين، ولاسيّما في أيّام الصوم وخلال أسبوع الآلام، رتّلت منها فقرات، في تلك الليلة الأولى، بصوت أكثر من خافت:

أصدقائي وأقربائي دنوا منّي ووقفوا مقابلي (مز ٣٨: ١٢).
صارَ عَرقي مثلَ عبيطِ دَمٍ مُنحَدِرٍ على الأرض (لوقا ٢٢: ٤٤).
جَسدي أعطيتُه للضاربين وخَديّ للناتفين (أشعيا ٥٠: ٦).
ما صَرفتُ وجهي من الزاجرين والباصقين فيّ (أشعيا ٥٠: ٦).
الجُند ظفروا إكليلا من الشوك ووضعوه على رأسي (متى ٢٧: ٢٩).
ثقبوا يديّ ورجليّ وأحصوا جميع عظامي (مز ٢٢: ١٧).
جعلوا في طعامي مرارةً وفي عطشي سَقوني خلاً (مز ٦٩: ٢٢).
هُم تَفرّسوا وأبصروني. اقتسموا ثيابي بينهم، وعلى لباسي اقترعوا (مز ٢٢: ١٩).
في يديك أستودع روحي.. خلّصتني يا رب اله الحقّ (مز ٣١: ٦).
أُذكر يا ربّ عبيدك إذا أتيت في ملكوتك (لوقا ٢٣: ٤٢).

وبين غفوة وأخرى كانت هناك فترات كثيرة من اليقظة ومن أحلام اليقظة، سرح فيها الفكر في متاهات نُسِحَت من خوف امتزج بسلام داخلي، ومن تصوّر للمصير المجهول إلى استسلامٍ واعٍ بين يدي الربّ... وبدت مخاوف في أعماقي بشأن الذين، خارجاً، يعانون من القلَق والاضطراب على مصيرنا، وقد اختلطت ولا شك أصوات تضرعاتهم الحارّة مع استغاثتهم الدامعة، يدعمها الرجاء الذي كان قد لامس اليأس ... وسأعلم فيما بعد أنّ تساعيات أقيمت في البيوت، بدموع حارّة، أسفرت عن تحريرنا في اليوم التاسع!

وبعد مضي قرابة أربع سنوات على الحدث استذكر اليوم، بشموخ، موقفا لست ادري حتى الآن كيف أمكنني اتخاذه في ليلتي الأولى التي لا أعلم إن كانت ستُسفِر عن صباح: لا اخفي بأنّي ما زلت اشعر بالسعادة حين قبلت أن أواجه موتي، وحين استطعت أن أضع موتي نصب عينيّ... وأقول -ويا ليتني أقولها كلّ يوم بعين الإيمان وعين الرجاء- بين يديك استودع روحي! وتذكّرت أنّ لوقا وحده انفرد بوضع صلاة المزمور ٣١ على لسان يسوع قُبيلَ أن يُسلم الروح، بينما وضع مرقس ومتى على لسانه الكلمات الأولى من المزمور ٢٢: إلهي إلهي لماذا تركتني. وبقدر ما عبّرت كلمات المزمور ٢٢ عن ضيقة المؤمن وهو يعلم انّه يتألّم ظلما ويعاني ما يعاني بسبب أمانته لإلهه... بقدر ذلك عبّرت كلمات المزمور ٣١ عن ثقة وطيدة بالرب الذي لا يتخلّى عن أحبائه الأمناء. ألا توحَز حياة يسوع برمتها في هذه العبارة من المزمور ٣١، وهو الذي سعى طيلة حياته أن يؤدي رسالته حتى النهاية بأمانة للآب الذي أرسله، وها هو يسلّمها بين

يديه في اللّحظة الأخيرة من حياته. وتمتمت في سرّي: لِمَ لا أسلّم الأمانة، إذا كانت تلك مشيئته؟

ما زلت اعتقد أنّي على كلمة "بين يديك استودع روحي" أغمضت عينيّ ونمت بسلام -سلام رافقته "فزّات" وكوابيس- على أمل النهوض ليوم ثان! حينذاك أدركت لماذا يقال للموت رُقاد! ولماذا يكتب على قبور المسيحيين: رقد على رجاء القيامة! أليس الموت رُقادا يُسفِرُ عن نهوض؟ ويا له من نهوض للمؤمن الذي يدرك انّه نهوض يسفر عن قيامة، ففي كلّ يوم يرقد المؤمن لينهض، أي انّه يموت مع المسيح ليقوم معه أيضا! ألَم ينقل القدّيس بولس هذا النشيد القديم: "تنبّه ايها النائم وقُم من بين الأموات يُضيء لكَ المسيح" (أفسس ٥: ١٤).

الموصل ٢٠١١/٥/٢٨

٥

وكان مساء وكان صباح يوم ثانٍ

وكان مساء وكان صباح يوم ثانٍ

اليوم الثاني: صباح الأحد ٢٠٠٧/١٠/١٤

كنت قد أمضيت ليلتي الأولى على موضوع الرقاد والنهوض -ولهذا الموضوع صلة وثيقة بالموت والحياة... وفي فجر اليوم الأول من الأسبوع -وكان يوم الأحد ١٠/١٤- استيقظت على صوت المؤذن وهو يدعو إلى الصلاة لأنها "خيرٌ من النوم" وعلمت أن يوما جديدا يُفتَتَح في سفر المحنة، ولم اكن أعلم ما يخفيه لي ولزميلي: هل سيؤخذ الواحد ويُترَك الآخر؟ هل سنموت كلانا أم نَحيا كلانا؟ وإذا أصرّ مختطفونا أن يضعوا حدّا لحياتنا -وليس ذلك من حق البشر، أية كانت الدوافع وأية كانت التّهم- فبأية طريقة سنموت؟ أبالسيف أم بالرصاص، أبالذبح أم بالتعذيب...؟

وسرعان ما طردْتُ هذه التخيُّلات المفزعة التي قد توقّف حركة الفكر والقلب معا فيُشَلّ الفكر ويجمد القلب ويكتئب المحيّا وتتصلب الشرايين وتتوتر الأعصاب ولن يبقى في الوجنتين دم! وسرعان ما نصير كالأموات، كما كان حال الجنود الحرّاس على باب قبر يسوع حين دُحرِجَ الحجر -وصيغة المجهول تدلّ على فعل الله الذي بوسعه وحده أن يُدحرج الحجر ويُنهضَ من الأموات.

كان ذلك في فجر يوم الأول من لأسبوع، يوم الأحد! كتبها متى ولوقا في سياق روايتهما لقيامة المسيح، ولم يدُر ببالهم البتّة لحظة أنّهما يتحدثان عن ثالث يوم بعد صلب يسوع، وهما يعلمان جيّدا أنّ بين الجمعة والأحد يوما ونصف اليوم!! ذلك انهما تلقّيا من التقليد العريق بأنّ قيامة الرب هي فجر عالم جديد وخلقة جديدة، وكأننا في بدء الخليقة، ما دام يسوع القائم هو آدم الجديد، وهو وحده جسّد صورة الله التي طالما حلم بها الله لدى الخلقة، فأصبح "بكر كلّ خليقة... وكان البدء والبكر من بين الأموات" (قولسّي ١: ١٥، ١٨). فبقيامة يسوع بدأ اليوم الثالث، أي يوم يهوه، يوم آخر الأزمنة، يوم قيامة

الأموات... فكانت الصيغة الإيمانية التي كان أول من نقلها هو القديس بولس في حدود العام ٥٧: "... سلّمتُ إليكم ما تسلّمتُه أنا أيضا، وهو... أنه قُبِرَ وقام في اليوم الثالث كما في الكتب"، (١ قورنتس ١٥ :٣) بحيث أنّ قيامة المسيح أصبحت عربون قيامتنا، وأصبحت قيامتنا أمامنا. فإذا كان المسيح قد قام، فكذلك الراقدون بيسوع... قام المسيح، وهو بكر الّذين ماتوا... وكما يموت جميع النّاس في آدم، فكذلك سيحيون جميعا في المسيح... والبكر أولا وهو المسيح... (١ قورنتس ١٥: ٢٠-٢٢).

وكان فجر اليوم الأول، بالنسبة لنا، يوم أحد! ورحت احسب الساعة التي تفصل عن موعد قداس الأحد -وكان ذوو المتوفاة قد أقفلوا الباب سريعا، ولم يدروا انّنا اختطفنا، مع اننا كنّا على قاب قوس من دارهم، فكانوا في مقدمة القادمين إلى القداس! ومعهم مؤمنون قلائل من الصامدين في الموصل اتخذوا طريقهم إلى كنيستنا عبر الزقاق العريض ومحلّة الخزرج، أم عبر محاليل الساعة وشهر سوق والميّاسة وتل الكرش... وأحيانا من الأحياء البعيدة: من الثورة والجديدة وحيّ الثقافة والأندلس وحيّ العربي والبلديات والمثنّى والبكر... ونزل الخبر عليهم كالصاعقة! وانتشر كالبرق، ونحن في عصر الموبايل الذي لَكَم خدم، ولكنه لَكَم أدّى أيضا إلى أعمال عنف لم نكن نتخيلها لسنوات قليلة خلت، وهي تتم بالتحكم عن بعد...

وكما كان الليل طويلا، هكذا بدا النهار أكثر طولا! كما بدا طويلا الزمن ما بين الفطور والغداء! وكان وضعنا في النهار شبيها بوضع الليل: فمن انطراح على الظهر، تارة يمينا، وتارة يسارا، إلى الجلوس أحيانا. ولعلّ أطيب الأوقات على الإطلاق هي ساعة يقتادنا احدهم ويدنا على كتفه ليذهب بنا إلى حيث نترك لوحدنا لبضع دقائق... وهذه الفعالية تتكرر ثلاث مرات في النهار، وهي نعيمنا، إذ خلالها تتمطى أرجلنا وتتحرك عظامنا ويسري الدم في عروقنا... وكنّا نشكر الرب دوما على أنّ اختطافنا لم يتم، لا في صيف ولا في شتاء، فلكانت المعاناة أعظم! وتذكرت قول يسوع في الخطاب عن "نجاسة الخراب المحدق بأورشليم" داعيا إلى الصلاة كي لا تحدث الكارثة في

شتاء! ولكنّها، في الواقع، جرت في ٢٩ آب من عام ٧٠ حين استولى طيطس على فناء الهيكل الداخلي وأحرق الهيكل! وكيف لا ينتقل بي الفكر إلى جموع السجناء في كلّ البلدان، لأسباب ومن دون أسباب، وبحجج أكثرها تصبّ في مصلحة الأنظمة التي لا تحتمل أية معارضة أو مقاومة... والى العديد من سجناء الرأي بسبب انتماءاتهم الحزبية أو الدينية أو العقائدية، وبعضهم يصفّى في السجن من دون محاكمة، كما كان يجري في بلدان أميركا اللاتينية وفي عدد من بلداننا الشرق أوسطية... ولكم اصدينا لمثل هذه التجاوزات، في "الفكر المسيحي"، أيام زمان!

انّه الصباح الأول الّذي كان التناوب فيه بين الصلاة والتأمُّل، وبين شرود المخيّلة في مجاهل المصير تارة، وفي الاستذكار تارة أخرى... وكان لي منها الشيء الكثير... وسرحت طويلا في أرجاء بيتنا الصغير، الذي طالما تخيلته كبيرًا في محلة الشطية (وتدعى أحيانا محلّة الثلاث أو السبع بلاليع!!)، ولكم تندرّت في الحديث عن ولادتي في البلاليع!! ذلك أنّي حين كنت أحاول أن اشرح لطلبة الدراسات الكتابية عن معنى أناجيل الطفولة التي نقرأها في الفصلين الأولين من إنجيلي متى ولوقا، كنت أقول لهم: لو حدث لي -وذلك لن يحدث!- أن بَلغتُ إلى السّدّة البابويّة باسم بيّوس الثالث عشر(!)، فسوف يتم على الفور تسليط الأضواء على ماضيّ، بدءا بولادة لم تكن بذات بال، ولكنّها سرعان ما تتخذ أهمية، لاسيّما حين يُعرف أنّها تَمّت والعماذ في يوم واحد! وسيرى بعضهم في ذلك عناية إلهيّة، ويضفون عليه معنىً لاهوتيا! وستتخذ أهمية كبرى: الموصل، ومحلة "الشطية"، مسقط رأسي، ودارنا رقم ١٠ على ٦٦ في محلّة الشيخ أبي العلاء... كما سيرتفع شأن كنيسة مار توما — وفيها سَجّل **القس (المطران) جرجس قندلا (+١٩٨٠)** أنّه، في ١٩ تموز ١٩٣٩، عمذ طفلا لفضيل حنا عفاص ورينة سليم قاقو ودعاه: يوسف، عصام، زهير، وحمله بهنام عزيز الوكيل، "وكان مولده في اليوم ذاته"! كما ستتخذ أهمية خاصّة المدرسة التوماوية للأحداث -وقد احتضنت اليوم متحف مار توما- لأنها شهدت اولى خطواتي في مجال المعرفة، كما شهدت اولى خطواتي في مجال الايمان من خلال المناولة

الأولى، في التاسعة من العمر. وتتواصل سلسلة الأحداث...

ذلك مثلٌ لما كانت عليه الحال مع يسوع الذي قُرئت طفولته في ضوء قيامته، فانعكست أنوارها على رواياتها التي تعدّ بحقّ "أناجيل الطفولة"، إذ انّها بمثابة تفكير لاهوتي عميق في سرّ يسوع، وقد تجلّى انّه، منذ الحَبَلِ به، ابن الله، ابن داؤد، ابن الإنسان، الرب، المخلّص، عمّانوئيل... إنها بشرى يسوع الذي تجلّى مجده في قيامته، ومنذئذ اتخذت حياته كلّها قيمة ومعنى... وهكذا كانت روايات الطفولة بمثابة كشف مُسبَق لسرّ يسوع، ذلك الابن الحبيب الذي رضيَ عنه الآب فأقامه من بين الأموات وجعله ربّا ومسيحا، ومخلّصا وديّانا... هكذا رتّب متى أحداث الطفولة بخمسة مشاهد يلتقي كلّ منها بما ورد في الكتاب، تصدرتها سلسلة الانساب التي كشفت عن هوية يسوع بصفته "المسيح ابن داؤد": حَبل مريم بيسوع من الروح القدس (أنظر أشعيا ٧: ١٤)؛ زيارة المجوس (أنظر ميخا ٥: ١، ٢ صموئيل ٥: ٢)؛ الهرب إلى مصر (أنظر هوشع ١١: ١)؛ مقتل أطفال بيت لحم (أنظر إرْمِيا ٣١: ١٥)؛ العودة من مصر والإقامة في الناصرة (أنظر أشعيا ٤٢: ٦، إرْمِيا ٤٩: ٦).

وبأسلوب رائع، وعبر روايات فريدة ترجع إلى تقاليد أخرى، رتّب لوقا مقدّمته اللاهوتيّة التي افتتح بها كتابه بجزئيه، وقد ضمّنها كل الألقاب التي أُضفيَت على يسوع. انّها إنجيل مُسبَق بسبعة مشاهد: بشارة زكريا، بشارة مريم، زيارة مريم لاليصابات، مولد يوحنا المعمذان، ميلاد يسوع، ختان يسوع، تقدمة يسوع إلى الهيكل، يسوع بين العلماء في سن الثانية عشرة. مشاهد تخلّلتها أناشيد ثلاثة رائعة: نشيد مريم، نشيد زكريا، نشيد سمعان الشيخ. وإذا كان مشهد البشارة يكشف عن أنّ المولود المنتظر هو ابن العلي، ابن داؤد، ابن الله، إلا أنّ مشهد الميلاد يكشف عن أنّ يسوع هو "المسيح الرّب" عبر بشرى للرعاة هي خلاصة الكرازة الرسوليّة: "أبشركم بفرح عظيم يكون فرح الشعب كلّه: ولد لكم اليوم مخلّص في مدينة داؤد، وهو المسيح الرّب" (لوقا ٢: ١٠-١١) -وسيرجّع الصدى نشيد سمعان الشيخ الذي راح ينادي: "...رأت عيناي خلاصك الذي أعددته في سبيل الشعوب كلّها" (لوقا

٢: ٣٠-٣١). فما كُشِفَ من سرّ يسوع في النهاية، عبر الآلام والموت والقيامة، جُعِلَ كَشفاً لِسرّه منذ البداية. فأناجيل الطفولة كُتِبَت في ضوء القيامة، وما زلنا نقرأها بنور القيامة ونور الاسفار المقدسة.

وامتزجت روايات طفولة يسوع بذكريات من طفولتي، وانا منطرح على البساط أتقلّب بمنة ويسرة... وتذكّرت يوم كنت في "آزيل" أي روضة مار عبد الاحد بالقرب من كنيسة اللاتين حين كانت ماسير ماري، القصيرة القامة، تعلّمنا مبادئ الايمان ممزوجة بمشاعر الخوف والرهبة، ولطالما هدّدتنا بزجّنا في "جب الأسود"، أو بتوشيحنا "لسان الشيطان"... ولكنّي تذكّرت أيضًا يوم وشّحتني هرّارا كان لي بمثابة وسام الشرف! وانتَصَبَت أمامي ذكريات عن معلمة الصف الثاني في المدرسة التوماوية، سوسن، التي كنت اخفي مغزلها و"كبّابتها" لدى دخول المديرة بهيّة كساب التي كانت لها هيبة! وسَرحتُ في الذكريات إلى يوم كان لي من العمر عامان، وأُصِبتُ بمرض التيفوئيد -وكان خطيرا آنذاك- وتذكرت أن أمّي الحنون لطالما روت قصة مرضي ودموعها تنهمر على وجنتيها، ولا سيما حين تصل في الحكاية إلى ما قاله لها الدكتور يوسف زبوني، طبيب العائلة، أن ليس من شفائي أمل! وعادت بي إلى البيت كئيبة حزينة، وكأن رمح الألم قد أدمى قلبها الحنون... ولم يكن لها سوى الانجيل تفتحه كيفما شاء، لعلّها تقع بالصدفة على ما تصبو إليه. وكان لها ما أرادت حين وقع نظرها على نص لوقا -ولا اعلم إن كانت هذه الصدفة وراء محبّتي للوقا!- وهو يروي قصة الشاب ابن أرملة نائين: "ولما رآها الرب أخذته الشفقة عليها... ثمّ دنا من النعش فلمسه... يا فتى، أقول لك، قم... فدفعه إلى أمّه" (لوقا ٧: ١١-١٥). وتواصل أمّي حكايتها فتقول: وإذا به يطلب طعاما (بفّ!)... وكان ما كان... وكأنّ الرّبّ دَفعني، أنا الآخر، إلى حضن أُمّي!

ثمّ سرحت مخيلتي إلى حفلة تغسيل الأرجل، يوم خميس الفصح، حين اضطرّ القس قندلا، بحكم علاقته الوثيقة باسرتنا أن يبدأ التغسيل بي -وكان الناس يعتقدون ولا يزالون أنّ التلميذ الأول الذي غسل المعلّم قدميه كان يهوذا! فكان الثّمن انّه زارنا في ذلك المساء عينه وقدّم لي هدية تعويضية! كما استذكرت الفرح الذي غمرني يوم تناولي

الأول حين امتزج فرح اللقاء بيسوع بفرح الهدايا التي حصلتُ عليها، وكان معظمها كتبا دينيّة وحياة قديسين من مطبعة الآباء الدومينيكيّين العريقة! وستبقى عذبة ذكرى فتيات بريئات كنت وإيّاهنّ على مصطبة واحدة، وما زلت استعيد وإيّاهنّ ذكرى السّير معا من المدرسة إلى البيت ومن البيت إلى المدرسة!! كما ستبقى محفورة في الذاكرة أيام كانت تخرج فيها كل المدارس إلى محطة الموصل لاستقبال الملك الصغير فيصل الثاني، برفقة خاله الوصي عبدالاله، مصطفّين على جانبي الطريق، من المحطة والى المتصرفيّة كما أظنّ. ولا زالت أليمة ذكرى وخز الإبر التي كنّا نحقن بها موسميّا، وقاية من أمراض الطفولة، وأكثر ألما ذكرى "القمل" الذي كان الأطفال يتناقلونه من بعضهم البعض، وكانت تضطر أمي إلى أن "تفلّي" رأسي بعد العودة من المدرسة فيستشهد القمل!

ولكنّي اذكر بفرح أيام الشهر المريمي حين كنّا ملزمين بتلاوة الوردية، وكان رأسنا يميل من النعاس، يمنة ويسرة، إبان قراءة الشهر وحكايات اوريامـا! وهكذا أيام شهر حزيران، شهر قلب يسوع، حين كنّا نحن الصغار نتنافس على حمل الشموع وقرع الأجراس إبان بركة القربان في كل يوم! ولعلّ أجمل الذكريات عن احتفالات كنيسة مار توما، هو الاحتفال بعيد الجسد وعيد الصليب: ففي عيد الجسد كانت الزينة في أوجها حول المذبح ولاسيّما في الفناء حيث يُنصب مذبح تُحيط به لافطات بالألوان عليها صور دينية مختلفة، وتفرش الزوالي لسجود الشمامسة لدى وصول شعاع القربان تحت مظلّة يحملها اربعة شمامسة، في تطواف يرافقه رمي الزهور بأيدي بعض المحظوظين من الصغار... أما عيد الصليب، فكانت روعته تقوم ليلة العيد حين كان يجتمع أعضاء أخوية الصليب ليلا على السطح، بعد أن يكونوا قد رفعوا على قبة الكنيسة أطول صليب في الموصل ولازال! وهم يرتّلون الفرض باعلى صوتهم ليُسمَعَ في البعيد... وحينذاك تنطلق "الطراقات" و"الصاعودات" وأحيانا البالونات... وكم كان خوفنا شديدا لأدنى زلّة يقترفها أحدنا، يقابلها القس جرجس بِجرّ الأذن بالإبهام والسبابة! ومع ذلك كُنّا نتسابق لخدمة قداسه من الصباح الباكر... وما زلت أعرف عن ظهر قلب الرسالة إلى أهل رومية (١٢: ٩-١٥) التي كانت قد

قسّمت إلى رسالتين وكنت أقرأهما دون كتاب، والآن علمت انها من طبعة الاباء الدومينيكيين، وترجمة العلامة (القس والمطران) اقليمس يوسف داود (+١٨٩٠). وها اني اقرأها اليوم بعيني مختطف يتبنى كلماتها!

فلتكن محبتكم بلا رياء. كونوا للشر مبغضين وبالخير ملتصقين. كونوا محبّين بعضكم بعضا بالمحبة الأخوية، وبالاكرام بعضكم لبعض مقدّمين. كونوا في الاجتهاد غير متكاسلين، بالروح حارّين، للربّ عابدين، بالرجاء فارحين، على الضيق صابرين، وعلى الصلاة مواظبين. مشتركين في حاجات القديسين، وعلى ضيافة الغرباء منعكفين. باركوا على الذين يضطهدونكم. باركوا ولا تلعنوا. فرحاً مع الفارحين وبكاءً مع الباكين. بارخمور!

لا تجازوا احداً شرّاً بشرّ: احرصوا على الصالحات، لا قدام الله فقط، بل قدام كل الناس ايضا. وان كان يُستطاع من حيث هو لكم، فسالموا الناس جميعا. لا تنتقموا لأنفسكم ايها الاحباء، بل اعطوا مكانا للغضب، لان لي النقمة وانا اجازي، يقول الرب. فان جاع عدوُّك فاطعمه، وإن عطش فاسقهِ، لانك إن فعلت هذا تجمع جمر نارٍ على هامته. لا يغلبك الشر، بل اغلب الشر بالخير. بارخمور!

الموصل ٢٠١١/٥/٣

٦

في مساء ذلك اليوم
يوم الأحد...

في مساء ذلك اليوم، يوم الأحد...

اليوم الثاني: مساء الأحد ٢٠٠٧/١٠/١٤

لا زال اليوم يوم الأحد بعد! يوم طويل! ويوم القيامة، لدى لوقا الإنجيلي، كان أيضًا طويلا جدا، امتدّ، على حدّ تعبير اتيين شربنتييه، على ٣٦ ساعة! بدأ بمشهد النساء عند القبر، وقد تلقّين هذا السؤال المليء بالكشف على لسان الرجلين: لماذا تبحثن عن الحي بين الأموات! وامتدّ إلى مشهد تلميذي عمّاوس على طول الطريق بين أورشليم وعمّاوس -طريق سيسلكه عكسياً التلميذان، مجدّدا، ليحملا، في تلك الليلة ذاتها، بشرى لقائهما بالمسيح الحي، وكانا قد نصحا "الغريب" أن يمكث عندهما تلك الليلة ويواصل من ثمّ طريقه في الغد! وختم بمشهد التراثي للتلاميذ وما رافقه من كشف في ضوء "شريعة موسى وكتب الأنبياء والمزامير"، وفتح للأذهان... ليسفر عن "رفع" إلى السماء -والقيامة والصعود وجهان لحقيقة واحدة.

هكذا كان يومنا نحن الاثنين طويلا جدّا! "ففي مساء ذلك اليوم" -على حدّ تعبير الإنجيلي يوحنا الذي وصف التلاميذ في "دار أغلقت أبوابها خوفا من اليهود"-وكنّا نحن أيضا في دار أغلقت أبوابها خوفا من الأمريكان، وسيقال لنا في إحدى الليالي: إذا حدث واقتُحمت الدار، نحل قيودكم وتصبحون ضيوفاً على أبي علي! -وتابع الإنجيلي: "جاء يسوع ووقف بينهم وقال: السلام عليكم! وسرعان ما ألحقها بسلام آخر، ومعه نفخة الروح قائلاً: خذوا الروح القدس... (يوحنا ٢٠: ٢٢)! ولكم يطيب لي أن أكرّر على مسامع الطلبة والمؤمنين أن القيامة والصعود وحلول الروح القدس (العنصرة) حقيقة واحدة بثلاثة أوجه! أي أنّ الذي أقيم من بين الأموات، هو ذاته الذي رفع في المجد، جالسا عن يمين الله، وهو ذاته نال من الآب الروح القدس الموعود به فأفاضه (أنظر أعمال الرسل ٢: ٣٣).

ونحن ايضاً، في مساء ذلك اليوم، كانت لنا "مناظرة" مع عدد من أشخاص لم ندرِ سبب مجيئهم إلينا: هل كانوا أصدقاء لأبي علي جاءوا ليقدموا التهاني بالعيد، أم هم من ضمن الرؤوس المدبّرة لأعمال الاختطاف والإرهاب والذبح؟... وكان لهم معنا، نحن المختطفين جميعا، مسلمين ومسيحيين، حديث ديني هو أشبه بتوعية في الدين وأصوله ومقوماته وأركانه وطقوسه وفي المقدمة أوقات الصلاة... وكان لنا، في طقس الوضوء،

درس طويل مملّ تغلغل فيه "الواعظ" إلى أدّق التفاصيل وأكثرها حشمة... فقد تكون تلك توعية لأولئك الّذين لم يكونوا قد أوتوا من العلم إلا قليلا!

وانطلق من ثمّ حديث معنا نحن "النصارى"، وانهالت الأسئلة علينا من كلّ جانب، وقد كان بينهم محاور جيد يطرح السؤال ويصغي إلى الجواب، ولا نعلم إلى أي مدى يستوعبه ويقتنع به أو لا يقتنع... ولكن صمته كان يوحي بأنّه ارتضى بجوابنا، حتى وان لم يعبّر عن ذلك...

بعد الأسئلة عن الله وعن الثالوث -وقد سعينا إلى التأكيد بأنّنا لسنا مشركين، وانّ إيماننا بالثالوث لا ينال البتّة من وحدانية الله الذي هو، في الوقت ذاته، أب وكلمة وروح...- كان السؤال الكبير عن صلب عيسى، والقرآن الكريم يقول: وما صلبوه، وما قتلوه... فكيف تقولون أنّه صلب! وجاءهم جوابنا هادئا، عميقا، فطنا، واضحا، بدون التباس أو تشويه؛ وكان كلّ منّا بدوره يدلي بدلوه في هذا الموضوع الحسّاس الذي تختلف فيه النظرتان إلى المسيح، ولكنّهما تلتقيان في العمق في تنزيه من هو "كلمة الله وروح منه" من العذاب الذي لا يليق بالّذي "رفعه الله إليه حيّا"، عيسى الحيّ. فيما نؤمن نحن بانه "كان ينبغي للمسيح ان يعاني الآلام ويدخل في مجده" (لوقا ٢٤: ٢٦).

وكان حديث أردناه طويلا ليكشف بشكل تدريجي عن وجه يسوع الناصري المصلوب ذاك الذي جاء بين الناس مُبشّرا بملكوت الله وساعيا إلى الكشف عن وجه إلهٍ كلّه حبّ وحنان ورأفة، صفح وغفران ونور وسلام...عبر ما عكسه من إرادة الله في خير الإنسان وسعادته... وتلك كانت الغاية القصوى من معجزاته التي صنعها باذن الله ولتمجيد الله، وهو الذي أصغى إلى صراخ المتألمين والمرضى وفتح عيون العميان وآذان الصّم وألسنة البكم... وأشبع الجياع في البرية من الخبز مؤكدا لهم من التوراة أنْ "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله" (تث ٨: ٣)... ولعلّ أعظم معجزاته كان اقترابه، باسم الله، من الخطأة المهمّشين ولاسيّما العشّارين الّذين كانوا في قائمة المنبوذين بحكم تعاونهم مع المحتل في جباية الضرائب وبسبب ما يدرّ ذلك عليهم... هو الذي كان يجالسهم ويأكل معهم ويقول: "ما جئت لأدعو الصدّيقين بل الخطاة إلى التوبة" (لوقا ٥: ٣٢)!

وبديهي ما جلب عليه موقفه هذا من انتقاد لاذع وحكم مُسبَق من جانب الفريسيّين، وهم أولئك الأتقياء الذين يعرفون الشريعة ويطبّقونها بحذافيرها، ويصومون ويصلّون، ويحتقرون سائر الناس ويعتبرونهم "أنجاسا"، لذا ينفصلون عنهم -وهذا معنى

اسمهم. ولعلّ خطأهم الأكبر يقوم في أنّهم يطالبون الله باستحقاقات مقابل أعمالهم الحسنة، وكأنّها منّة عليه تعالى، جلّ جلاله! ولذا يعجّ الإنجيل بكلمات قاسية بحقّهم، آخذا عليهم احتقارهم لسائر الناس الذين لا يسيرون على خطاهم، وبالأخص ادّعاءهم المفرط بأنّهم "قديسون"، إذ يلتزمون الشريعة حتى اصغر وصاياها، ويتناسون أنّهم يهملون أعظم ما في الشريعة: العدل والرحمة والأمانة...إنهم بكلمة "يصفّون الماء من البعوضة ويبتلعون الجمل"! قالها يسوع لهم وللكتبة يوما: "الويل لكم أيُّها الكتبة والفرّيسيون المراءون، فأنّكم تقفلون ملكوت السماوات في وجوه النّاس، فلا انتم تدخلون ولا الذّين يريدون الدخول تدعونهم يدخلون!" (متى ٢٣: ١٣).

وتدخّل أحدهم فقال: كيف يمكن لنبي مثل هذا أن يذوق العذاب؟! وكيف يمكن لمن اصطفاه الله أن يصلبه اليهود؟ وكان جوابنا: حقّا يصعب علينا أن نقبل مثل هذه الآلام، ولعلّ أعظمها وأقساها هي قساوة قلب اليهود الّذين لم يشاءوا أن يروا فيه مُرسَلا من الله إليهم. فلقد عرّى عيسى بجرأة معلّمي الشريعة وكتبتهم وكهنتهم وكشف عن رياءهم وكبريائهم واكتفائهم بذواتهم... كفى انّهم رأوا معجزاته ولم يؤمنوا بها، بل نسبوها إلى فعل الشيطان الرجيم: انّه ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين! وقلت لمحاوري: إسمح لي أن أورد لك مشهد مجادلة بين عيسى والحواريين بشأن هويته: فحين أخذ يعلمهم منبئا بأن ابن الإنسان-وقد اختصّ يسوع، لقب "ابن الانسان" المألوف لدى العارفين بسفر دانيال- "يجب عليه أن يعاني آلاما شديدة...ويقتل... لم يقو رئيس الحوّاريين على احتمال هذا الإنباء، وما كان منه سوى أن انفرد بعيسى وأخذ يعاتبه... وإذا بيسوع يزجره بقوة ويقول له: انسحب!ورائي! يا شيطان، لانّ أفكارك ليست أفكار الله بل أفكار البشر" (مرقس ٨: ١٣-٣٣).

واسترسلت قائلاً: أنّ الحواريين، وفي مقدّمتهم رئيسهم، لم يكونوا على درجة من الإدراك كي يفهموا أنّ على النبي أن يقبل الأهانة والتعيير والسخرية تأتيه من الّذين أرسلت إليهم كلمة الله ولم يقبلوها، بل انقلبوا عليه وعنّفوه وأبغضوه وحاكوا المؤامرات ضدّه بغية تصفيته... وهو من جهته، إذ كان على يقين من أنّه يُبلِّغ إليهم كلمة الله، لا بل كان هو ذاته كلمة الله الذي يضيء الطريق لكلّ إنسان -وكان هو ذاته الطريق إلى الله- واصل رسالته بكلّ أمانة وجرأة، وقبل بالتالي ثمن هذه الأمانة وما تسفر عنه من حقد وانتقام ذهب بأعدائه إلى المطالبة بموته من الوالي الروماني الذي كان على يقين من براءته، وهو الذي صرّح بها على ثلاث دفعات: إني لا أجد فيه سببا لاتهامه!

وفيما كنت أرسم هذه اللوحة عن يسوع الذي بقي أمينا على رسالته، بالرغم من

شبح الموت الذي كان مخيّما عليه، شعرت بالقرب مع القديس بولس في دفاعه عن نفسه أمام فستس الوالي والملك أغريبا وأخته برنيقة؛ وكان فستس قد عرض قضية بولس بأن كانت بينه وبين اليهود مجادلات "بشأن رجل اسمه يسوع، قد مات، وبولس يزعم أنّه حيّ"! (أعمال الرسل ٢٦: ١٩)؛ فكانت مرافعة رائعة سيكون بوسع فستس أن يرفعها مع ملف السجين الذي رفع دعواه إلى القيصر... وكان بولس قد انبرى يبرر ساحته مما يتهمه به اليهود، انطلاقا من قصة دعوته على طريق دمشق التي رواها بإسهاب، مبيّنا أنّه لم يكن بوسعه أن يعاند الرؤيا التي شهدها... أو يرفض الدور الذي عهد الله به إليه. ولما خلص إلى القول بأنه كان على المسيح، بحسب الأنبياء، أن يتألّم وأنّه أول القائمين من بين الأموات، كان ردّ فستس: "لقد جننت يا بولس!"... واغتنمها بولس فرصة ليتوجه بالحديث إلى أغريبا نصف اليهودي ويحصل منه على فعل إيمان بما قالته الأنبياء، حتى انتهى الأمر بأغريبا إلى القول: "انك بعد قليل ستقنعني أن أصير مسيحيّا!" (أعمال الرسل ٢٦: ١-٣٢).

وعدت إلى محاوريّ: لسنا على خلاف بشأن يسوع الحي الذي ظنّ اليهود أنّهم، بقتله، سيقضون عليه ويمحون اسمه... لكنّ الله كان ينظر إلى أمانته فرفعه إليه حيّا... على هذا الإيمان نلتقي وهو الإيمان بعيسى الحي الذي بعثه الله ومجّده ورفعه إليه حيّا وجعله آية للعالمين... ألا يلتقي إيماننا بإيمان القرآن الكريم الذي وضع على لسان عيسى وهو في المهد هذه الآية: "سلام عليّ يوم وُلدت ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّا" (سورة مريم: ٣٣)؟ ونحن لا نقول غير ذلك... وإنّما نضيف أنّ انبعاث المسيح من بين الأموات هو فعل وفاء الله مع يسوع الذي بلغ به حبّه لبني البشر إلى أقصى الحدود، وأنّ أمانته أدت به إلى الموت، إذ ما من حبّ أعظم من أن يبذل الإنسان نفسه عن أحبائه! لقد صنع الله من جانبه صنيعاً لا نظير له، صنيعاً لم يكن متوقعا البتة! انّه فعل جديد تماما لم يكن في الحسبان: الله أقام يسوع وبعثه من بين الأموات ورفعه ومجّده وأجلسه عن يمينه...

ولم يبقَ لي سوى أن استشهد بنشيد قديم حفظه القديس بولس في إحدى رسائله، أجاد في تلخيص مصير يسوع، وقد جاء فيه:

"مع أنّه في صورة الله
تجرّد من ذاته متّخذا صورة العبد (...)
ووضع نفسه وأطاع حتى الموت، موت الصليب
لذلك رفعه الله إلى العلى

ووهب له الاسم الذي يفوق جميع الأسماء
كيما تجثو لاسم يسوع
كلّ ركبة في السماوات وفي الأرض وتحت الأرض
ويشهد كلّ لسان أنّ يسوع المسيح هو الرب
لمجد الله ألآب" (فيلبي ٢: ٦-١١).

ولما كنّا في غمرة حوار اعتبرته وما زلت أعتبره نموذجا للحوار المسيحي-الاسلامي، من دون تشنّج ولا تزمّت، وكلّنا، مسيحيين ومسلمين، لنا عن المسيح صورة ولا أروع! ذلك أنّ عيسى حيٌّ يشفع فينا! وهنا حضرني مشهد لن أنساه، ولا ادري إن كنت قد قصصته لِمحاوريّ، مفاده أنّ امرأة مسلمة -من بين مسلمين كثر كانوا يلتجؤون إلى الكنيسة طلبا للمعونة منذ أيام الحصار والى ما بعد السقوط- راحت تهتف وهي خارجة، بعد أن أعطيتها ما تيسّر لديّ من مال: الله يرحم موسى وعيسى ومحمد! وناديتها للحال قائلا: رحم الله موسى ومحمد... أمّا عيسى فهو حيّ! وصادقت المرأة على القول وذهبت...

قلت: لما كنّا في غمرة الحوار الرائع، فاجأنا شخص -قد يكون الأمير، لا ندري- دخل علينا متهجّما على بندكتس الذي يبدو أنّه في هذا اليوم وجّه نداءً إلى المختطفين لإطلاق سراحنا... ومن دون كلمة منّا، انتابنا شعور امتزج فيه الفرح بالخوف: لقد بتنا مشهورين! وقد تتخذ قصتنا منحى ماساوياً... وفي كل الأحوال سوف ندفع غاليا ثمن هذه الشهرة! -ويطيب لي أن اضيف هنا هذا المشهد: حين حظيت بمقابلة قداسة البابا بندكتس السادس عشر بفرصة قدّاس الشركة عام ٢٠٠٩ الذي رئسه البطريرك الجديد مار اغناطيوس يوسف الثالث يونان، جاء دوري في الحديث: شكرته على النداء الذي وجّهه لإطلاق سراحنا فأبدى دهشته العظمى... ولكني لم أقل له حينذاك أن نداءه زادني "ثمناً"! وبالفعل، من بعد تلك الأيام، عرفنا أنّ "ثمننا" كان قد ارتفع بفعل هذا النداء!! ولكن أليست الحياة اثمن ما للانسان؟

الموصل ٢٠١١/٥/٣١

٧

وكان مساء وكان صباح
يوم ثالث

وكان مساء وكان صباح يوم ثالث

اليوم الثالث: الاثنين ١٥/١٠/٢٠٠٧

كان قد انقضى السبت، ومعه يوم الأحد من فجره حتى مسائه، ولكن هل سيكون لنا "اليوم الثالث" بمثابة القيامة، وتكون شمس الحريّة قد أشرقت في ظلمة السجن وهو أشبه بالقبر؟! في سفر التكوين كان اليوم الثالث من الخلقة ظهور البحر واليبس، حين سمّى الله اليبس أرضا، وتجمّع المياه سمّاه بحارا. ورأى الله أنّ ذلك حسن! وحينذاك أمر الله أن تُنبِتَ الأرض نباتا وشجرا مثمرا... وستبقى حبة الحنطة وسائر البذور لا تعطي ثمرا إن لم تقع في الأرض وتمت! ويا له من انطمار وتفسّخ يتمخض عن حياة... ولكم انتقل بي الفكر إلى شارل دي فوكو "رسول الاخوّة الشاملة" الذي أعجبت بحياته وموته، وقد كان يتمنى أن يموت شهيدا مضرّجا بدمه، مهانا ومحتقرا... ويقينه أنّ "حبّة الحنطة" إن لم تقع في الأرض وتمت بقيت وحدها، وان هي ماتت أتت بثمر كثير (يوحنا ١٢: ٢٤). وكان له ما أراد (في ١ كانون الأول ١٩١٦) برصاصة طائشة من سارق انتابه الفزع. وكان حبّه للمغامرة قد قاده إلى مجاهل الصحراء الجزائرية، وكان قد فقد الإيمان، وراح يكتشفه تدريجيّا في أولئك العرب الرحّل من المسلمين الذّين كانوا يقضون الصلاة بأوقاتها... حتى أنّه كتب يوماً: كان الكل من حولي يصلّون، وكنت أنا وحدي لا أصلّي!

بدأ هذا النهار تحت شعار الموت، إذ كانت بوادره توحي بالسوء حين أخذ التعامل معنا يشتد ويقسو ويصبح عنيفا أحيانا... ولعلّ مرور الزائر المجهول أعطى الضوء لشكل من الضغط والتخويف... وسنفهم فيما بعد أنّها الطريقة التي تفتح الطريق للحصول على الاكثر... فمن مسدّس يسدّد في صدغي إلى وقوف الرجل بثقله على أسفل الساقين مما يبعث على الصراخ والاستنجاد...إلى التخويف بحزام ناسف يوضع على جسمي ويدفع بي إلى تفجير سيارة، بما فيها ومن حولها... أو التهديد بالذبح وإلقاء الجثة للكلاب السائبة -وما أكثرها في البلد! هكذا انتصب الموت أمامي في كل لحظة: هل هي "ساعتي" قد اقتربت؟- كما كانت ساعة يسوع قد لاحت له وتهيّأ لها منذ بدء رسالته، إلى أن جاءت، قبيل عيد الفصح، وكانت "ساعة انتقاله من هذا العالم إلى أبيه" (يوحنا ١٣: ١). وكم تحوّل خوفي وقلقي إلى سلام حين قبلت "ساعتي" في

العمق، وشعرت بالفرح وما زلت اشعر به، وقد استطعت، بقوة الروح، أن أسلّم حياتي حين كانت قد حُشِرَت في مواجهة مع موت محتمل... وغصت، على مدى صباح ذلك اليوم الثالث، في الاستعداد لتلك الساعة، إذا كان لا بدّ لها أن تأتي وتتم! ولم اعد أستطيع أن أحصي كم مرّة تلوت مع شارل دي فوكو صلاة تسليم الذّات!

بعد ظهر ذلك اليوم، وبعد صلاة العصر التي كان يؤديها رجال لم ندرِ إن هم حرس يتناوبون على حراستنا، أم هم مستجوبون يستجلون حقيقة مُختَطَفيهم؟ وكانت الصلاة تقام في تلك الغرفة ذاتها وكأننا في مسجد صغير! وكنّا وإيّاهم على موجة واحدة: الله أكبر! وكان السؤال: ألا تصلّون أنتم؟ -كنّا نصلّي صلاتنا نحن أيضاً، بينما كنتم تصلّون صلاتكم التي نحترمها طالما تتوجه إلى الله الأوحد الذي لا إله إلا هو! وصلاتنا، هي الأخرى، تتوجه إلى الله الأوحد الذي ندعوه "أبانا" الذي في السماوات... ونقول له: ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. ذلك لأننّا نؤمن باله واحد هو أب لجميع البشر؛ وما دام الله أباهم جميعا، فهم بالتالي اخوة بعضهم لبعض... هذا الإله الواحد الذي نؤمن به، نريد ونسعى إلى تقديس اسمه، أي أن يقدّس اسمه جميع الناس ويقترب كلّ البشر من قداسته، وهو وحده القدوس الذي يدعوهم إلى أن يكونوا قدّيسين على مثاله... ألم يخلقنا على صورته ومثاله؟ لذا فنحن نتمنّى عليه ونسعى من جانبنا أن يوطد -تقدّس اسمه- ملكه على العالم، بحيث لا يكون للبشر مَلِك غير الله... وإذا كان لا بد أن يكون لهم مَلِك، فيترتب على هذا الملك من ثمّ أن يملك باسم الله ويحكم بالحقّ والعدل والمساواة بين الناس... وحين نقول "لتكن مشيئتك"، فلأننا نؤمن أنّ الله عالم بكل شيء وانّ إرادته تكمل حين يعترف البشر أنّه اله رحمان رحيم، كلّه حبّ وحنان ورأفة، وانّ إرادته هي في أن يعيش البشر في الأمانة لوصاياه وتعاليمه، ويحيوا في الاستقامة والنزاهة والتضامن في ما بينهم... وهكذا تتحقق إرادة الله في السماء كما على الأرض.

وتتواصل صلاتنا باتجاه حاجاتنا على الأرض، في انتظار ملكوت الله، فنطلب منه أن يعطينا خبزنا كفاف يومنا. وما أنّ نطلب الخبز، وهو أساسي للحياة، نشعر للحال أن "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله"، وان علينا أن نغتذي من خبز كلمة الله التي تسندنا وتنعشنا وتحيينا... وبقدر ما نطلب من الله "الخبز" لنا، بقدر ذلك نشعر بأنّ هذا الخبز يجب أن يكون خبزا مقتسما بيننا وبين الناس، ولا سيّما مع الأكثر فقرا والأكثر حاجة... أليس ما يرضي الله هو أن "تكسر خبزك للجائع"؟ وليس ذلك فقط... أوَليس هو "أن تدخل البائسين المطرودين بيتك،

وإذا رأيت العريان أن تكسوه...؟ وليس الجوع جوعاً إلى الخبز وحده، بل إلى كل أشكال العون والمساندة والتضامن: "حل قيود الشر وفك ربط النير، وإطلاق المسحونين أحرارًا وتحطيمُ كُلّ نير..." (أشَعيا ٥٨: ٦-٧).

وقلتُ لمحاوريّ أنّ الطلب الأكبر في الصلاة هو الغفران: اغفر لنا خطايانا... ذلك أنّ الله هو الغفّار الذي، بسعة رحمته ورأفته، يغفر للبشر تجاوزاتهم تجاهه وتجاه إخوتهم البشر... إن قلبه أكبر من قلبهم، ولذا فغفرانه المسبق لهم تجاه تعدّياتهم نحوه ونسيانهم فضله وعطاياه، يحملهم على الشعور العميق بمحبته الفائقة ورحمته التي لا حدود لها، وبالتالي يدفعهم إلى مقابلته بالحب والشكر والتسبيح والتمجيد... ويدفعهم بالأكثر إلى المغفرة لاخوانهم تعدياتهم وتجاوزاتهم. ولذا فنحن حين نطلب من الله أن يغفر خطايانا، نكون في الوقتِ ذاته على استعداد للغفران لمن أساء وأخطأ إلينا بأيّ شكل من الإشكال... وبعبارة اخرى: أي ان الله يغفر لنا ذنوبنا، حين نكون نحن على استعداد لأن نغفر، على مثاله، لمن أذنب إلينا، بكثير أو قليل، ولا ننتقم أو نثأر لأنفسنا، لانّ لله الانتقام وهو يجازي كلاًّ بحسب أعماله. وفيما كنت أتحدث عن الغفران قمت في سرّي، في الوقت ذاته، بفعل غفران لأشخاص كانوا قد أساءوا إليّ، وبأشكال عدّة، وليس الجرح النّفسي من أقلّها وطأة... ووجدتني للحال قادرا على أن ارفع صلاة من أجلهم...

وواصلت الحديث بأننا نطلب إلى الله في صلاتنا أن ينجّينا إبّان التجارب قائلين: لا تدخلنا في التجربة لكن نجّنا من الشرير. وهذا لا يعني اننا نطلب منه أن يبعد عن حياتنا كلّ تجربة أو امتحان... إذ انّ التجربة تلازم الإنسان بصفتها امتحانا لحبه لله وأمانته له، وهي من عمل الشرير الذي يسعى إلى تحويل الإنسان عن أهدافه السامية وعن دعوته إلى الثّبات في محبة الله... ألم يكتب القديس يعقوب: "إذا جُرِّب أحد فلا يقل: إن الله يجرّبني. فانّ الله لا يجرّبه الشر ولا يجرّب أحدا، في حين أنّ لكل إنسان شهوة تجرّبه فتفتنه وتغويه..." (يعقوب ١٣:١-٢٤). وهكذا نحن، حين نستغيث بالله كي يجنبنا الدخول في التجربة، فإنما نطلب منه أن يمكّننا على الصمود إبّان التجربة، فلا نسقط في حبائلها...

وفيما كنت أفسّر لِمحاوريّ هذه الفقرة من الصلاة الربيّة، انتقل بي الفكر إلى التجربة الكبرى التي نتعرض لها نحن المؤمنين بالمسيح، وهي تكمن في التخلّي عنه أو نكرانه... وحينذاك تصبح صلاتنا استغاثة ملحّة كي نبقى ثابتين راسخين إبّان التجربة التي قد نتعرض لها، ولاسيّما في زمن الاضطهاد أو الضغوط أو المضايقات المختلفة،

ليس على مستوى الإيمان حسب، بل أيضا على مستوى الأمانة للقيم والمثل الإنجيلية: كأن نتعرض لتجربة الخيانة أو التراجع عن الالتزام أو فقدان الثقة بالرب أو الشك في عنايته واهتمامه الدائمين بنا، ونحن نشاهد ما نشاهد ونختبر ما نختبر من ألوان المحن والتجارب... ولعلّ التجربة التي نتعرض لها بالأكثر في الحياة المسيحية تكمن في أنّ إيماننا بالرب يهتزّ ويتعثّر وتُمنَى ثقتنا بنكسة ويصاب رجاؤنا بخيبة إزاء مظاهر تعاكس هذا الرجاء وتنال من هذه الثقة وتصيب هذا الإيمان في الصميم...

وكان لا بدّ لنا من أن نبرّز ما تتصف به الصلاة المسيحية من صمت وتأمل، بعيدا عن المظاهر الخارجية، وقد قال يسوع في تعليمه بشأن الصلاة: "... وإذا صلّيت فادخل حجرتك وأغلق عليك بابها وصلّ إلى أبيك الذي في الخفية، وأبوك الذي يرى في الخفية يجازيك" (متى ٥: ٦). أوَلم يدعُ يسوع إلى عدم التكرار وإلى تجنّب الإكثار من الكلام -والله عليم بما نحتاج إليه- قبل أن يقول: أما انتم، فصلّوا هكذا...

وحينذاك، تلونا الصلاة الربّية كما جاءت في إنجيل لوقا -لعلّها هي الأقدم- ونحن نعلم أنّها وردت بصيغة أكثر اسهاباً في إنجيل متى. فبحسب لوقا، جاءت الصلاة الربية على طلب من التلاميذ الذين كانوا يشاهدون يسوع يصلّي وكيف كان يصلّي... إذا صلّيتم فقولوا:

أيّها الآب
ليُقدّس اسمك
ليأت ملكوتك
أُرزقنا خبزنا كفاف يومنا
واعفنا من خطايانا
فأننا نُعفي نحن أيضا كلّ من لنا عليه
ولا تعرّضنا للتجربة (لوقا ١١: ٢-٤).

وساد صمت عميق.. لعلّه كان ليفسح المجال للغوص في صلاة صامتة بعيدة عن الثرثرة وعن المطالب الكثيرة التي قد تزدحم في قلبنا إبّان الصلاة، سيّما حين نريد من الرب أن يلبّي حاجاتنا كلّها، وننسى أنّ "الحاجة إلى واحد" كما قالها يسوع لمرتا أخت مريم ولعازر، "وكانت قد جلست عند قدمي الرب تستمع إلى كلامه" (لوقا ١٠: ٣٩-٤٢).

وفي صمت اللّيلة الثانية صلّيت كما لم يسبق لي أن صلّيت من قبل، ولم أجرؤ لحظة أن اطلب النجاة! بل كانت صلاة مليئة بحضور الرب وحضوري أمامه في وضع البائس والفقير الذي لم يعد له في الدنيا شأن أو طمع أو تطلعات... وكأنّ لسان حالي تبنّى كلمات ذلك العشّار في مثل "الفرّيسي والعشّار": "ارحمني اللّهمّ أنا الخاطئ" (لوقا ١٨: ١٣)... وكان التكرار لصلاة القلب بمثابة التنفس في ارتفاع النَّفَسْ وانخفاضه: يا يسوع يا ابن الله الحيّ، ارحمني أنا الخاطئ.

الموصل ٢٠١١/٦/١

٨

وكان مساء وكان صباح
يوم رابع

وكان مساء وكان صباح يوم رابع

اليوم الرابع: الثلاثاء ٢٠٠٧/١٠/١٦

وفي اليوم الرابع، كان فصل بين النهار والليل، وعلامات للمواسم والأيام والسنين... وهكذا صنع الله النيّرين العظيمين: النّير الأكبر لحكم النهار، والنيّر الأصغر مع الكواكب لحكم اللّيل... ورأى الله أنّ ذلك حسن! (تكوين١: ١٤-١٩).

ونحن لا نكاد نميّز الليل من النهار إلاّ من خلال حركة البيت وضجة الأطفال في الصباح وازدحام الدار بالزوّار عصرا ومساء، والهدوء والسكون في الليل... ما عدا بعض الاستثناءات غير المنتظرة. فلم نرَ الشمس الشارقة إلاّ عبر تلصّص عبر العصابة -والغريب أنّ الكلمة هي ذاتها في العربية للدلالة على ما تعصب به العينان وعلى جماعة تشكّل عصابة!- وأترك للضليعين في اللغة البحث عن الصلة! أمّا القمر، فلم نرَهُ قط ولم نعد نعلم إن كان في أول شهره هلالا أم في آخره بدراً؟! إلا أنّ ذلك لم يمنعنا من استذكار مزمور يشيد بالقمرين:

سبّحوا الرب من السموات ... سبّحوه في الأعالي
سبّحوه يا جميع ملائكته ... سبّحيه يا جميع قوّاته
سبّحيه أيتها الشمس والقمر ... سبّحيه يا جميع كواكب النور
سبّحيه يا سماء السموات ... ويا أيّتها المياه التي فوق السموات

ومع الفجر، حين كان المؤذن يدعو إلى الصلاة، وحين لا يكون من يعكّر السكون، كانت ترتفع صلاتي كالبخور أمام الرب عبر مزامير حفظتُها عن ظهر القلب من مثل المزمور٢٧ الذي لكم ردّدته في الصباح وفي المساء: وبترجمته القديمة التي اعتمدها فرض أخوية الصليب:

الرّب نوري وخلاصي، فممن أخاف
الرب معاذ حياتي فمِمَن أرتعب
عندما اقترب الأشرار إليّ ليأكلوا لحمي
مضطهديّ وأعدائي هم عثروا وسقطوا
إن اصطفّ عليّ عسكر فلا يخاف قلبي

وإن قام عليّ قتال، فبهذا أنا واثق
واحدة سألت من الرب وإيّاها ألتمس
أن أسكن في بيت الرب كلّ أيام حياتي
لكي أبصر بهاء الرب وأتعهد هيكله
لأنّه يخفيني في مظلّته في يوم السوء
ويسترني في ستر خيمته وعلى صخرة يرفعني (...)
استمع يا رب صوتي إذ أدعو
وارحمني واستجب لي
لك قال قلبي إذ قلت: أطلبوا وجهي
لوجهك يا رب التمس
لا تستر وجهك عنّي
ولا تخيّب بالرجز عبدك
قد كنت عوني فلا تتركني
ولا تتخلّ عنّي يا اله خلاصي (...)
علّمني يا رب طريقك
واهدني في سبيل مستقيم
من أجل اعدائي
لا تسلّمني إلى أيدي مضطهديّ
لأنّه قد قام عليّ شهود الزور
والمتنفس بالظلم
لولا أنّي آمنت بأني أرى
جود الربّ في أرض الأحياء
اصطبر للرب وتقوّ
وليتجلّد قلبك وانتظر الرّبّ.

وكذلك المزمور ٢٤ الّذي كان يرتّل في أخوية العذراء المحبول بها بلا دنس، حين كان أعضاؤها، قبيل نهاية القداس الاحتفالي في مار توما، يتحولون إلى "الكابلّة"، مصلّي العذراء، ليؤدّوا فرض السيدة الذي وضعه البابا بيّوس الخامس... بنص أعتقِد أنه اعتمد طبعة الاباء الدومنيكيين

للـــرب الأرض وامتلاؤهـــا	الـــدنيا وكـــلّ الســـاكنين فيهـــا
لانّه هو على البحار أسّسها	وعلـــــى الأنهـــــار هيّأهـــــا
من يصعد إلى جبل الرب	ومـــن يقـــوم فـــي موضـــع قدســـه
الطاهر اليدين والنقيّ القلب	الذي لم يأخذ نفسه باطلا ولا حلف بالغش
هـذا ينـال بركـة مـن الـرب	وبـــرًّا مـــن إلـــه خلاصـــه
هذا هو جيل الذين يطلبونه	الملتمسين وجهك يا إله يعقوب...

وبدأ نهار طويل آخر، وأنا من دون أدويتي المعتادة وأهمّها ضد تصلّب الشرايين، وضبط ضغط الدم، والحدّ من السكر... وكانوا يمنّونني دوما بأنهم سيجلبون لي هذه الأدوية، ولكنّهم كانوا يستطردون قائلين بأننا سنخرج قريبا... وعلى هذا الأمل بدأنا العيش في احتساب الساعات التي تتوالى وليس من مخرج. وسابقى مندهشاً ازاء مقاومتي تسعة ايام من دون دواء!

وغصت من جديد في ذكريات طفولتي أقلب صفحاتها:

أول ما قفز إلى ذاكرتي تناولي الأول عام ١٩٤٨ حين كنت بعد في الصف الثاني –ولعلّ ما كنّا نعرفه، ولا سيّما على المستوى الديني، يفوق ما يعرفه الآن طلاّب في الصف الخامس! فلقد كانت استعدادات للتناول مكثّفة، علاوة على كل ما تلقّيناه طيلة السنة وعلى يد القس جرجس قندلا معلّم الدين الذي، بالرغم من قسوته، تعلّمنا منه الكثير! وأبقى أذكر الأناشيد التي لقّننا إياها، بدءًا بـ "قد أتى اليوم.."، والى أفعال ما قبل التناول وبعد التناول وهي من تأليفه وعلى وزن النشيد الميلادي الفرنسي "جوق الرعاة" –وكان رائدا في وضع كتاب الأناشيد بألحان لاتينيّة أو فرنسية يولّف لها كلمات عربية شعريّة. وترقى أول طبعة له إلى عام ١٩٢٢. كما بقي مطبوعا في الذاكرة وجه **المطران جرجس دلاّل** (+**١٩٥٢**) الذي رئس الاحتفال بالتناول، كما كان يرئس أعيادا كثيرة في مار توما، وفي مقدمتها عيد السعانين وعيد الدنح وعيد مار توما، (وكنّا نحن الصغار نتسابق في من يحجز القميص الأحمر من بيت بهنام حبّابة ليتاح له مرافقة المطران في الاحتفال! وكانت تجري حفلة "تجديد مواعيد المعموذيّة" بنشيد "إنّني اليوم جئت" في عصر يوم التناول، يرافقها فعل التقدمة لمريم العذراء ونشيد "يا مريم يا مريم كوني مكرّمة". ولعلّ أروع ما كان يخلّد التناول الأول صورة تذكارية في فناء الكنيسة –وفي متحف مار توما صور تذكارية لتناولات يرقى أقدمها إلى عام ١٩٣١!

أمّا في دارنا التي اذكر كُلّ زاوية فيها، كنّا نحن الإخوة الثلاثة -بعد وفاة الأخ البكر حنا في ١٩٤٩/٩/١، في عنفوان شبابه، اثر سقوطه من علو وارتطامه بالصندلية، وقد خلّفت وفاته جرحا عميقا في الأسرة ولسنين طويلة- نحتفل بإقامة القداس في البيت: فكان أكبرنا، بهنام، في دور البطريرك والوسطاني، حكمت، في دور الأسقف، فيما كنت أنا مرشحا للقسوسيّة! وفي أحد الأيام كان موعد رسامتي الكهنوتية وأنا في العاشرة من عمري! ومن المفارقة أنّ الإخوة الثلاثة الكبار كانوا قد رغبوا في الدخول إلى الاكليريكيّة، ووقفت بوجههم موانع وعراقيل من جانب أو من آخر؛ ولما جاء دوري، لم يكن بوسع والديّ أن يمانعا في دخولي! وغنيّ عن القول أنّ الحلل الحبريّة والكهنوتية كانت من أوراق الجرائد تُزيَّن بالصلبان الملونة؛ فيما كان التاج من الكارتون، والعكّاز من أنبوب حديدي!

وسَرَحَت بي الذاكرة إلى يوم كنت "أقدّس" لوحدي في "ايوان" دارنا، وهو يتوسط غرفتين متقابلتين، تعلوه كتابة ترقى إلى عام ١٨٩٨، عام تشييده، وبخط رقعي على أرضية بلون جوزي، تحمل هذه العبارة: "عزّوا الدنيا بالمال وعزّوا الآخرة بالأعمال. كُتِبَ السّعد على أبوابها، فادخلوها بسلام آمين". وكنت ألقي موعظة بصوت جهوري يبلغ إلى مسامع الجيران، ومطلعها: "وكان يسوعٌ.." -ولم أكن أعلم آنذاك أنّ اسم يسوع ممنوع من الصرف!! كما لم أعد أذكر ما كنت ارويه عن يسوع... وهنا عاد إلى ذاكرتي ما كان يرويه والدي عن جارنا، الشيخ الأرثوذكسي، سودي مقادسي، الذي زاره يوما كاهن جماعته وحرّضه على المواظبة على الكنيسة، فكان ردّه فوريّا وعفويّا: لدينا هنا في المحلّة بيعة... وحين استفهم الكاهن عنها، أجابه: كلّ يوم اسمع القداس من بيت رينة!! ولم يخيّل لي آنذاك أنّي سأصبح كاهنا واقف عند درج المذبح لأنادي بيسوع "ربّا ومسيحا"!

وعلى ذكر الكنيسة في المحلّة، يطيب لي أن أصدي لتقليد عريق كنت قد عكسته في كتيب يحكي تاريخ "كنيسة مارتوما في ماضيها وحاضرها"، كان بموجبه أحد أول قُسُسِها في الموصل **هو القس نعمة الله القس بهنام صايح** (صاحي) الذي كان داره مقابل دارنا في محلّة الشطيّة (وهي في معظمها من السريان الارثوذكس [اليعاقبة] وقد يكونون من آخر النازحين من تكريت والساكنين عند بوّابة باب لكش)، وهو المعروف **بالقس نعمي** (+١٨١٨)، وقد كان خطّاطا مشهورا ورث الخط عن ابيه، وحملت اسمه المخطوطة من عام ١٧٨١، وهي محفوظة في متحف مار توما -وقد تكون داره كنيسة "للمتكئلكين"، وكان له ابنان أصبحا كاهنين (بهنام وميخائيل) ذهبا كلاهما ضحيّة

الطاعون عام ١٨٢٨.

وتراقصت في ذاكرتي أحداث متفرّقة من أيّام زمان: فمن ذكريات اللعب البريء مع أولاد المحلّة بلعبة "السكسكوت" ولعبة "جلّو ملّو" -ولم أعد ادري تفاصيل اللّعبتين- إلى "الحالوسي" و"الطاولة"، وقضاء بعض الأعمال المنزلية، بغياب أخت كبيرة لنا... فيما كُنّا نتعاطى "التجارة" عبر تصنيع الظروف من دفاتر المدرسة ومن الورق الأسمر وبيعها لأصحاب "المكسّرات"، أو تصنيع "الفرّارات" ذات السيقان القصبية! وعلى ذكر التجارة، كنّا نحن الثلاثة نتنافس في صنع الفرّارات وبيعها... وكنّا أحيانا نقيم شركة ثلاثيّة وأحيانا ثنائية، وأحيانا أخرى يعمل كلّ منّا لحسابه! وكنّا نبيع أحيانا بالجملة لأصحاب الدكاكين، وأحيانا أخرى بالمفرد ولاسيّما في أعياد المسلمين... ولا زلت أذكر كيف تلصّصنا أنا وحكمت على أخينا الأكبر بهنام الذي كان قد وجد سوقًا لمنتوجه من الفرّارات، وما أن عرفنا "المشتري"، حتى عرضنا عليه بضاعتنا بسعر أدنى! وكالمعتاد يكون الربح الأكبر من نصيب أكثرنا حيلة ودهاء في الترويج لهذه الصناعة المحلّية...

كنت قد سرحت بعيداً في هذه الاستذكارات، متناسيا أنّي مختطف، وإذا بأبي علي يفاجئني بالسؤال عن الدين المسيحي وعن معتقداته وأخلاقياته في ما يتعلّق بالمشروبات والنساء والراهبات والقُسُس العزّاب... وجاء موضوع الدين الإسلامي وأركانه والدعوة إليه... وكان ينبغي أن يلتزم جوابنا جانب الفطنة والحكمة، إلى جانب الصراحة والأمانة معاً؛ فكان الحديث من جانبنا عن العيش المشترك طيلة ١٤ قرنا والعلاقات الطيبة بين المسيحيّين والمسلمين والمتسمة بالتسامح والتفاهم والتضامن، لأننا جميعاً نؤمن بالله الواحد واليوم الآخر، هو الذي سيدين كل واحد بحسب أعماله... والدين لله.. ولا إكراه في الدين... -وسيبقى مشهد من مشاهد الضغط مطمورا في عمق الذاكرة، وفي قلب الله الذي هو وحده فاحص الكلى والقلوب! أمّا أن تسعى بعض المصالح إلى زرع التفرقة بيننا وفي مقدمتها المصالح الأمّبريالية، فمن المعيب علينا نحن أبناء العراق الواحد أن نترك المحتل الأمريكي باسم "صليبيّة" واهمة وموهمة -وليس للدين المسيحي صلة بها-يلعب بمقدّراتنا ويحملنا على التقاتل والفرقة، ونحن مدعوون إلى أن نعمل، يدا بيد، من أجل بناء العراق ورصّ الصفوف بين كافة أبنائه من مختلف الأديان والمذاهب والأطياف...

وعلى سؤال بصدد الأمريكان الّذين ينتمي معظمهم اسمياً إلى الدين المسيحي، كان جوابنا أن هناك فرقا بين شعب يؤمن وبين دولة لا دين لها! لذا لا يصّح البتة أن نسمّي أمريكا دولة مسيحيّة، فليس باسم المسيحية فعلت أمريكا ما فعلت من احتلال

واستغلال، في العراق وفي غيره من البلدان، وما جنته من مكاسب ومنافع لمصلحتها، وان ادّعت إحلال الديمقراطية أو رفعت شعار الدفاع عن حقوق الإنسان وصيانة حرّياته... ونحن نعلم أصابع ما يسمّى بـ"الصهيونية المسيحية" التي تغلغلت إلى قلب الإدارة الأمريكية، بعد أن بقيت وحدها على الساحة العالميّة.... ونعلم بالأكثر ما يخلّفه النظام العالمي الجديد من مخاطر جسيمة على مستقبل العالم.

وهنا يطيب لي أن أسجل قناعة في داخلي لم تتزعزع بفعل الاختطاف تجاه المسلمين والدين الإسلامي، وان أصابني قدرٌ من المعاناة من بعض الحركات الإسلامية المتطرفة، سلفيّة كانت أم تكفيريّة. ذلك أنّي على يقين من أن الإسلام الحنيف براء من كل أعمال الإرهاب والترهيب، وانّ المسلمين في غالبيتهم العظمى يستنكرون كل تعدّ وتجاوز على الإنسان، ويشجبون كل أعمال القتل والذبح والتعذيب التي تقترف باسم الله -وحاشَ لله جلّ جلاله أن يؤيّد أو يبارك أفعالا لا تمتّ إلى الدين بصلة، ولعظمها دوافع سياسيّة لم تعد خافية. ومثل هذه القناعة حملتها وما زلت احملها إبّان أعمال العنف الرهيبة التي طالت العراق ومدينة الموصل بنوع خاص، وكان للمسيحيين منها نصيب كبير، من خطف وقتل وترهيب وتهجير، وعلى دفعات من الكرّ والفرّ... كما كان لرجال الدين منها، وخاصّة في الموصل، من مسلمين ومسيحيين حصّة كبيرة، بدءا بالمطران جرجس القس موسى (٢٠٠٥)، بكر المختطفين، وانتهاء بآخرهم **المطران الشهيد بولس فرج رحّو** (+٢٠٠٨)، مرورا بأول كاهن شهيد الأب بولس اسكندر (+٢٠٠٦) وآخرهم الأب رغيد كني (+٢٠٠٧)...

ومع ذلك لم أسمح لنفسي الانزلاق في منحدر الحقد والكراهيّة، ولم أدع مجالا يتسرب منه الشّك في إمكانية العيش المشترك وفي القدرة على بناء الجسور بين مؤمني الديانتين الكبريين، وكلّنا نلتقي في إيمان إبراهيم أبي المؤمنين جميعا، وهو أول من أسلم لله، فحسب له ذلك برّاً... ولا أخفي أنّ قناعتي هذه تستند إلى حسن الجيرة في محلّة الشطيّة في الطفولة -ولن أنسى العلاقات الطيّبة التي كانت لذويّ مع بيت الحاج رحّو أبي صدّيق، وقد أحجموا لدى وفاة أخي البكر حنّا، عن تشغيل الراديو طيلة ٤٠ يوما!- والى الصداقات الكثيرة التي ربطتني وتربطني مع أشخاص أعتزّ بهم أيّما اعتزاز...أشخاصا تتراقص أسماؤهم في مخيّلتي، يستحيل، لا ماضيا ولا حاضرا، أن أضعهم في عداد صانعي العنف ومنفذي العمليات الإرهابية التي يندى لها الجبين!

الموصل في ٢٠١١/٦/٧

٩

وكان لليوم الرابع امتداد!

وكان لليوم الرابع امتداد!

اليوم الرابع (تتمة): الثلاثاء ١٦/١٠/٢٠٠٧

كان الحديث في أمور الدين قد تشعّب، ومن دون توتر، وأخذنا نحسّ بالجوع... وجاء برغل أم علي، ذو النكهة العفرية، مع قطع الدجاج، ليسدّ جوعنا ويمنحنا رغبة في قيلولة امتزجت فيها أحلام اليقظة بأحلام الظهيرة، وهي في المعتاد أكثر غزارة وأكثر قربا إلى الواقع! ذلك أنّ حديث الصباح كان قد أسفر عن تلاق في النّظرة بشأن العديد من النقاط، حتى أكثرها صعوبة وتعقيدا، ومنحني مزيدا من السلام والاطمئنان. ووجدتني برفقة أخي المرحوم حنّا ونحن نعود من الشهر المريمي حين كانت تلحق به فتاة تطمح إليه وهو في عنفوان الشباب وسيماء الجمال في عينيه وطلعته... وسرعان ما تحوّل المشهد إلى مأتم، حين كنت مع الأختين الصغيرتين، برفقة أمّي وزميلاتها، في سفرة إلى حمام العليل... وكانت المحلّة كلّها، لدى عودتنا، قد ضجّت لتشاهد الأم المفجوعة بابنها البكر قبل أن يعودوا به ميتا من المستشفى.

واختلطت المشاهد في مخيّلتي: فمن ذكرى التلصص من الصندلية لدى ولادة أولى الأختين عام ١٩٤٦ (!)-وكان والديّ قد سمّياها برناديت في أعقاب مشاهدتهما فيلما عن القديسة برناديت وعذراء لورد- إلى ذكرى زيارة القس جرجس قندلا الذي جاء إلى دارنا ليهيّئ أمّي، ابنة قلب يسوع، لتتبنى موقف العذراء وهي تضع ابنها المصلوب في أحضانها!... إلى احتشاد الجموع على طول المحلّة لعلّهم يخففون من جرح أب أصيب في بكره، وكأنّه يعقوب أبو الأسباط، لدى فقدانه يوسف، وقد تمنّى أن ينزل معه إلى الهاوية! وكان صراخ وبكاء وعويل...

ووجدتني من جديد أستذكر في اليقظة مجريات الحدث، وقد اختلط فيها ما كنت شاهدا له وما كان قد رسخ في ذاكرتي من أحاديث حوله، وقد طال أثره وتعمّق بفعل السنين، وبدت انعكاساته الأليمة في أُمّ (+١٩٧٠) على عتبة الأربعين كانت دموعها، ولسنين طويلة، تنهمر دون إنذار، وفي أبٍ (+١٩٩٣) بات شيخا مقوّس الظهر، كان في الخامسة والأربعين!

لم يكن بوسعي آنذاك أن أقيس عظم المصاب ومردوداته... وانّما أذكر أنّه كان عليّ أن أهتم باختيّ برناديت ونوال وأجنّبهما وطأة الحدث... وهكذا وجدتني أنا ابن

العاشرة مضطرّا إلى الذهاب بهما صباحا إلى بيت عزيز الوكيل، خال الوالد، فيما كانت مراسيم التشييع تجري من دارنا وعلى امتداد محاليل السرجخانة وحتى شارع نينوى باتجاه الساعة وحتى كنيسة مار توما -وعرفت من بعد أنّها كانت دفنة مهيبة شارك فيها المئات من الشباب المسيحي والمسلم، وبعضهم ألقى قصائد في فناء الكنيسة في المقبرة القديمة -ولم يكن قبر الأسرة جاهزا، فتبرع أحد الأقارب البعيدين بقبره! -ما ان بلغت بأختيّ، وإذا بي أجهش بالبكاء، ولم يكن بوسعي آنذاك أن أقيس حجم المصيبة... ولم أعد أذكر من الحدث سوى اليوم الثالث حين كانت الكنيسة مكتظة بالمؤمنين، وكان عليّ من جديد أن أكون مع الصغيرتين في الفناء، فيما كنت بين الحين والآخر أتطلع إلى الداخل لأشاهد البخّاز ذا الطوابق الثلاثة، مزيّنا بالمصابيح والزهور!

وطالت فترة العزاء على مدى تلك السنة التي لم ينقطع خلالها المعزّون من الأقارب والأصدقاء... وكنت أصغي باهتمام إلى كل ما كان يقال عنه، وما خلّفه من صور مع زملائه في معهد المعلّمين الابتدائية ببغداد، في مقدمتهم حسن البياتي الذي يبدو أنّه كان من أعزّ أصدقائه... ولكم سمعت أنّه كان خلال العطلة الصيفية يحوّل حسّابات أسبوع الآلام من المخطوطة الكرشونية إلى العربية، وبخطّه الأنيق على دفتر بورق أسمر من مخلّفات الحرب الثانية -ولأذكر أنّ هذا الدفتر طُلِبَ لاستخدامه في أسبوع الآلام لدى تأسيس كنيسة السريان في كركوك في منتصف الخمسينات! ولعلّ أكثر ما بقي في ذاكرتي من أيّام العزاء أنّ صديق العائلة، المعلم ناصر متيتي، وجّه إليّ كلمة مرحّبا بي في الصف الخامس في مدرسة الطاهرة، بعد أن أنهيت الرابع في المدرسة التوماوية للأحداث.

كنت في سرّي أمنّي النفس أن أقاسم من بقي من افراد الأسرة هذه الذكريات - ولم يبقَ منهم سوى بهنام وبرناديت وكلاهما في استراليا... وكنت طيلة الفترة المسائية، أغفو حينا وأصحو أحيانا، لأعود بالذاكرة إلى مدرسة الطاهرة حيث قضيت فيها الصفّين الخامس والسادس... حين كان المدير أبلحد خياط، ومعه من المعلمين اسحق عيسكو وفرج سيبا وناصر متيتي وجورج قصير وألبير أصفر وبهنام مطلوب، ومعلم التاريخ عبد الهادي، فضلاً عن معلميّ **القس القس (الخوري) حنا رحماني (+١٩٦٩) والقس أفرام فرنساوي (+١٩٦٧)** إلى جانب آخرين كُثُر من معلّمي الصفوف الأولى من أمثال فرج فرجو وقاسم... فيما كان لي عدد من الأصدقاء، من أمثال فاروق مراد وزهير الدملوجي وغيرهم...

وفيما استذكرت اسحق عيسكو معلم العربية القدير الذي كان قد وضع دفترا "سَلْ عن ما بدا لكَ" نسجل فيه ما فاتنا من مواضيع لم نستوعبها، ويجيبنا عليها من ثَمّ، كُلٌّ بمفرده، تذكّرت مستوى "الحساب" لدى بهنام مطلوب وكفاءة "الإنكليزية" لدى

فرج سيبا، إلى جانب "القسوة" السادية لدى جورج قصير والبير أصفر! وإذا كان جورج يضرب بالمسطرة الخشبية على ظهر اليد، ورجله على رجل الطالب، كان البير يوزّع الضربات صباحا على راحة اليد، بعود طويلة، لأقل تأخير عن الدوام... وهو الذي حين التقيته في تورنتو، في صيف ٢٠٠٧ وددتُ، مزاحاً، أن أرد له الصاع صاعين لقاء ضرباته الشديدة التي لم يكن لي منها سوى القليل!!

ومن جملة ذكرياتي في شتاءات ذلك الزمن القارسة –ولم تكن هناك أيّة تدفئة– انّه كان يسمح لنا في أيّام الامتحانات أن نجلب علبة مليئة بفحم متقد ندفئ به أصابعنا المرتجفة لتقوى على الكتابة! –ولم يكن يفطن أحد آنذاك إلى ما في ذلك من مخاطر... وسرعان ما قفزت بي الذاكرة إلى يوم قررت الدخول إلى السمنير (الاكليريكية) بعد انتهائي من الصف السادس في صيف ١٩٥١، عوضاً عن التوجه إلى المتوسطة. لم أعد أذكر ما الذي حملني على هذا التوجّه عدا المناخ العائلي الذي كان له أثره في إنماء فكرة الكهنوت لديّ، بما فيها روح الخدمة والقداسة... فضلا عن الأثر الذي تركه فيّ الكهنة الذّين كانوا يترددون إلى دارنا، وفي مقدّمتهم كاهن الرعية القس جرجس قندلا، مرشد الجمعيّة الخيريّة التي كان والدي أمين الصندوق فيها –ولا زلت أذكر كيف كان والدي مع سائر الأعضاء يقومون كل مساء، في الشتاءات الممطرة، بزيارة العوائل لجمع التبرعات التي ترصد لمساعدة الفقراء، واتساءل في سرّي: أليست هي صورة قندلا التي أردت أن أتمثل بها في تعليمه ووعظه وقداسه...؟! ومهما يكن، ففي صيف ١٩٥١ قصدت، ومن دون علم والديّ، معهد مار يوحنّا الحبيب لأقابل مديره الفرنسي **الأب يوسف أومي (+١٩٧٤)**... وما زلت حتى اليوم أعجب من الجرأة التي بها عبّرت عن رغبتي في أن أكون كاهنا أخصص حياتي لخدمة يسوع وأكون مبشّرا به! وحين أطلعني على بعض الصعوبات من درس والتزام بالقانون وتجرّد عن الاهل الخ... اذكر بدهشة كيف استطعت أن أجيب بكلمات الانجيل: من وضع يده على المحراث لا ينظر إلى الوراء!

وعدت إلى البيت لأعلن الخبر، ولم ألق أية معارضة! واطلعت كاهن الرعية آنذاك، **القس ميخائيل صائغ (+١٩٧٩)** الذي تسلّم المسؤولية بعد انتخاب القس جرجس قندلا مطرانا على ابرشية الموصل (١٩٥١)، فزوّدني بشهادة العماذ... وبدأت أستعد بشوق إلى يوم الدخول إلى السمنير في أواخر أيلول. لم يكن من السهل على فتى في الثانية عشرة أن يعيش دون ذويه، وتحت قانون وانضباط في الأكل والنوم واللعب والدرس، سيّما حين يبدأ مع زملائه في الاكليريكية الصغرى (petit séminaire) رياضة روحيّة لمدة ثلاثة

أيّام، فيها الركوع على الركبتين، وفيها الصمت والاختلاء، وفيها المواعظ الثلاثة كلّ يوم مع درب الصليب ومسبحة الوردية...

وما زال ماثلا أمامي مشهد تشبّثي، في ديوان المعهد، بوالدي الذي جاء لزيارتي في أول أحد بعد مغادرتي البيت، طالبا منه باكيا أن يعيدني إليه... وسوف أبقى مدينا **للقس اسطيفان زكريا (+١٩٩٩)**، المرسوم حديثا، حين انتزعني من يد أبي مطمئنا إيّاي بطيب العيش في السمنير، وقد ملأ كفّيّ بالجوز! وما زلت أعتقد أنّ الصعوبة الأولى كانت من جانب الأكل، وبالأخص بسبب حليب الجاموس الذي كان عليّ أن أتناول منه "طاسة"، من الجينكو، كل صباح، مع خبز اليوم السابق... وعلمت من ثمّ أنّ وساطات جرت ومفاوضات تمت بين المطران قندلا والأب أومي كي يُسمح لي بعلبة من الكاكاو أمزجها مع الحليب! وعلى ذكر المطران قندلا، لن أنسى استقبالنا له مطرانا جديدا على الموصل، بصفته أحد قدامى المعهد (رسم كاهنا عام ١٩١٣)، هو الذي في نهاية الزيارة، سحبني -على مرأى من كل الزملاء- وأخذ يسير بي، ذهاباً أياباً، مرشدا ومشجّعا لي في مشواري الطويل نحو الكهنوت... وكان لا بدّ للزملاء، بدافع من الغيرة الطفوليّة، أن يخلعوا عليّ لقب "سيّدنا"!

وكانت هناك ولا شك صعوبات أخرى كثيرة لم يكن بوسعي آنذاك أن أتحملها، وأبرزها القانون اليومي الذي كان النّاقوس يحدد فقراته، في أجواء مليئة بالصمت، ولاسيّما حين كان علينا أن نأوي إلى الفراش في ساعة مبكرة، وفي شبه "قاويش"، ونستيقظ في الصباح الباكر للتأمل والقداس الذي يليه... وما زال بعض الزملاء حتى اليوم يتندرون على حسابي، مردّدين كلماتي آنذاك: أشنو هال القانون؟! ويبدو أنّ الأب أومي كان يتوجس من زيارات أمّي المتكررة ومن تلصصها من فتحة الباب الكبير، ويُنسب إليه قوله بلغته العربية المتعثّرة: بيوس يمكنه أن يصبح كاهنا، لكن أمّه، بتعلّقها، تقف بطريقه!

كنت غارقا في هذه الذكريات العزيزة، بحلوها ومرّها، حين وجدتني من جديد بإزاء عدد من الأشخاص لم نعلم إذا كانوا من المحققين أو " المبشّرين" بالدين، أم من أصدقاء أبي علي طاب لهم أن يتعرّفوا على مختطفين من نوع آخر، لا يتكلّمان إلا إذا سئلا، ولا تخرج من فمهما أيّة كلمة احتجاج ولا أيّة استغاثة! فكانت هناك دروس في أركان الدين الخمسة أعتقد أنّها كانت باتجاه المختطفين المسلمين معنا. وبدا لي المتكلم أنّه هو نفسه يسأل ويجيب! لعلّها كانت، في نظره، خير طريقة للحوار! أمّا الأسئلة التي كانت باتجاهنا، فمعظمها كان يدور حول محل سكنانا وهل لنا أخوة عملوا مع

الأمريكان أو انخرطوا في سلك الشرطة... وللمرة الأولى جرى حديث معنا عن الجزية التي تقع على النصارى في دار الاسلام، وما يتصف به الدين الإسلامي من روح التسامح تجاه الأديان الأخرى... وعلمنا أنّهم ينوّهون ما سيترتب علينا دفعه لدولة العراق الإسلامية...

بعد صمت قصير، قيل لأحد المختطفين أنّ عليه أن يدفع خمسة دفاتر، وقيل لنا أنّ علينا نحن أن ندفع مئة دفتر يدفعها المسيحيون لقاء شراء دمنا! وهنا كان لا بدّ لي أن أردّ بأنّ المسيحيين جميعا في الموصل لا يملكون هذا المبلغ! ولم أخف عليهم أنّ المسيحيين الباقين في الموصل هم أناس عزّل، معظمهم من الموظّفين وأصحاب المهن الحرّة أو العمّال ذوي الدخل المحدود... وتوقف الحديث حين آن وقت صلاة المغرب، وأقيمت الصلاة فيما كنّا نحن الاثنين نرفع الصلوات التي رسخت في ذاكرتنا، سواء من صلوات القداس أو من المزامير أو غيرها من الصلوات، وفي مقدمتها صلاة الابانا.

في مثل هذه الأوقات، غالبا ما كانت تخطر ببالي الأناشيد التي وضعها الإنجيلي لوقا على لسان مريم "تعظّم نفسي الرّب" أو على لسان زكريا " مبارك هو الرّب"... ونشيد زكريا بالذّات كنت قد حفظته لكثرة ما كنّا نتلوه في أخويّة الصليب، وبالترجمة القديمة الشائعة، ولطالما تلوته في أيّام الأسر:

مبارك هو الرّب اله إسرائيل الذي اطّلع وصنع خلاصا لشعبه
وأقام لنا قرن خلاص في بيت داؤد فتاه
كما تكلّم على أفواه أنبيائه القدّيسين الذين هم منذ الدهر
خلاصا من أعدائنا ومن أيدي كلّ مبغضينا
ليصنع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس
القسم الذي حلف به لإبراهيم أبينا
أن يعطينا أن ننجو من أيدي أعدائنا
فنعبده بلا خوف بالقداسة والبرّ قدّامه كلّ أيام حياتنا
وأنت أيّها الصبي نبيّ العلي تدعى
لأنّك تتقدم قدام وجه الرب لتعدّ طرقه
لتعطي شعبه علم الخلاص لمغفرة خطاياهم
بأحشاء رحمة إلهنا الذي بها افتقدنا المشرق من العلاء
ليضيء للجالسين في الظلمة وظلال الموت
لتهتدي أرجلنا إلى سبيل السلامة.

كنت قد استغرقت في الصلاة حين حضر وقت العشاء، وبالأخص الوقت الذي

يعقبه حين كان لا بدّ لنا من الزيارة القانونية قبل النوم! وحين كان حارسنا الليلي يطمئن علينا ويتركنا ليذهب إلى الغرفة المجاورة حيث التلفزيون، يعلو صوته وينخفض وتتحول محطّاته بحسب الفضائيّات، من الأخبار إلى الأغاني والى المسرحيّات... وخلالها يصبح النوم ممكنا أحيانا! وكثيرا ما اغتنمت فترات اليقظة لأعود إلى ذكريات من زمن السمنير، ما زالت شاخصة.

وانتصبت أمامي فترة الدراسة حين كان **الأب جبرائيل جرخي (+١٩٩٢)** قد حبّب إلينا اللغة العربية وراح **الخوري انطون زيوني (+١٩٥٣)** يضبط لنا أصول النحو ويقوّم الأغلاط الشائعة ويصحّح لغة الإنشاء، مشدّدا على المرادفات... وبعد وفاته، أخذ القس حنّا رحماني مكانه ذاهبا بنا في رحاب الأدب العربي... وإذا كانت لنا عقدة مع اللغة اللاتينيّة مع **الأب هياسنت ريشار (+١٩٩٢)** -ذلك المعاون النشيط الذي يضطلع بكلّ المهام الماديّة من التصليحات إلى أعمال النجارة والى حاجات المطبخ... ويتحول مساء إلى مضمّد وطبيب- كنّا، بالمقابل، نسعى إلى تلقّن اللغة الفرنسية بالرغم من صعوبتها على يد آباء كانوا يضطرّوننا على التكلم بها في كلّ الفرص، حتى حين كانت تنقصنا المفردات ولم نكن نحسن صياغة الجمل... ولن أنسى حين أصرّ الأب منصور ليكونت على جعل طلبة الصف المتوسط يستعدون طيلة أشهر لحفظ رواية "الأمير الصغير" للكاتب الفرنسي الشهير أنطوان دي سانت أكزوبيري، بهدف تمثيلها في عيد مار يوسف شفيع الأب أومي... وقد أُسنِد دور الأمير، بسبب طوله، إليّ وإلى اسحق لاسو (فرنسيس جحّولا) -ولا أظن أنّنا فهمنا في حينه ما كان ينطوي على هذه المسرحيّة الفلسفية من عمق وأبعاد...

وبصدد الدراسة، لا يسعني ألاّ أستذكر درس الهندسة على **يد القس الياس صقّال (+١٩٩٥)** الذي كان يعتمد دفتر شقيقته، فيما كان له منافس ذكي وعنيد في شخص زميلنا يعقوب (القس والمطران يعقوب شير)! وهل أنسى الأب أمودري مع درس الجبر، وبالفرنسيّة، حين كانت الكلمات تخرج على لسانه متعثرة، هو الذي كان يتندر على ذاته، وقد روى لنا يوما كيف قال له فرنسي كان في رحلة معه إلى فرنسا على الباخرة: بصفتك عراقيا لا بأس في لغتك الفرنسية!! أو حين كان يريد أن يهنّئ راهبة بعيدها، فقلب الجملة من (Bonne fête ma soeur) إلى Bonne soeur ma (fête)! وسرعان ما انتقل بي الفكر إلى بعض مشاكساتنا وحيلنا، ولاسيّما مع أساتذة نستضعفهم أو نتندر على حسابهم!

وانتقلت بالذكرى إلى سفراتنا الشهرية التي كنّا ننتظرها بفارغ الصبر، وان كنّا جميعا (حوالي ٧٠ أكليريكيا)، كبارا وصغارا، وقوفا، اشبه بالخراف، على ظهر "لوري"!! إلى أن بلغ بنا الرُّقيّ إلى الباص الخشبي! وكانت تلك السفرات قد شملت معظم المناطق الأثرية والسياحيّة، من نمرود ومار بهنام الى خورصابات ودير الشيخ متي، ومن الحضر إلى معلثايا (دهوك) والى الشيخ عادي... وقلّما بقيت قرية أو قصبة دون أن تحظى بزيارتنا.

وكان السير على الأقدام مألوفا! أمّا نزهتنا الأسبوعيّة، يومي الخميس والأحد، إلى جنبات الموصل، فقد امتدت من معمل النسيج والجديدة إلى تل قوينجو، ومن منطقة أسوار نينوى، عند بداية حي المثنّى الذي لم يكن له وجود بعدُ، إلى ياربحة أو الدملماجة أو الخوصر... وحين يكون الجو ممطرا، كان علينا أن نقتنع بعرض فيلم شاهدناه عشرات المرّات كالفيلم الذي كان فيه الطيّاران ميشليه وآدوماي يجيدان الإقلاع لكنهما يخشيان الهبوط بسبب لافطة تحذّر من أخطار الهبوط، تحملهما للحال على التحليق من جديد! -ولطالما شبّهت بهما من يطيلون الكلام في المواعظ دون جدوى: اولئك الواعظون الذين يكاد حديثهم يبلغ إلى نهايته، وإذا بهم يستأنفونه من جديد، دون أن يقولوا شيئا جديدا!

ولكم كانت لنا ذكريات طيّبة في عيد الميلاد حين كنّا نعود من قدّاس العيد في كنيستي مسكنتة أو الطاهرة، ونتسارع في البحث عمّا أخفاه لنا بابا نوئيل من هدايا، سواء في الفراش أم في الأحذية... فيما كانت هناك ذكريات أخرى أكثر روحانيّة في فترة الصوم الكبير -وكان بعضنا يفرض على ذاته صوما إلى الظهر- حين كان الانقطاع عن اللحم يمتد على مدى الصوم، وحتى في عيد مار يوسف! وهكذا الحال في اسبوع الآلام، حين كنا نعود من الفروض والاحتفالات بتعليقات، بعضها نابٍ عن واعظين تقاس أحيانا جودة موعظتهم بمقدار ما يستدرّون الدموع من مآقي النساء! أو عن شمامسة يتبارون في التباهي بأعلى الطبقات الصوتية ويتنافسون في الحصول على اكبر حصة من "القطع" الانفرادية، ولا سيّما في جمعة الآلام، حين تجري المساومات على "الحسّايات" أو على نشيد "من لا يحزن" أو على فقرات أوفر من طلبة "آه يا مريم" -وهنا أدرج ما عرفته فيما بعد عن شماس، في كنيسة مار توما، باع "حسّاية" سجدة الصليب بمَنٍ من الفستق!!! والبائع والشاري كلاهما الآن في دار الحقّ: الشماس الحداد داود قرنَ الذي تنازل عن الحسّاية -وكان قد احتكرها لمدة طويلة- للشماس ايرم وحيدة الذي كان متعهدا لبستان قصر المطران لقاء اجر زهيد!

الموصل ٢٠١١/٦/٨

١٠

وكان مساء وكان صباح
يوم خامس

وكان مساء وكان صباح يوم خامس

اليوم الخامس: الأربعاء ١٧/١٠/٢٠٠٧

مع خامس يوم من الخلقة –وفي كلّ يوم، نحسّ أننا نخلق من جديد! – تعجّ المياه بذوات أنفس حيّة ويعجّ جلد السماء بالطيور... فكان من الحيتان العظام أصناف، ومن الطيور أصناف... ورأى الله أنّ ذلك حسن!

أمّا نحن ففي اليوم الخامس من اعتقالنا، أحسسنا بأجنحتنا قصّت وبحركة جسمنا حدّدت وبنَفَسنا تَقَلّص! كيف يرتضي من حسُنَ لديه أن يرى الحياة تعج في الكائنات، طيورا كانت أم أسماكاً أم بشراً، أن يرانا بدون أجنحة نطير بها، ولا زعانف نسبح بها، ولا لسان ننطق به!! وكيف يرتضي من نَفَخَ نسمة الحياة في الكائنات الحيّة بأسرها أن يرى خلائقه تعمل على خنق الحياة وقتلها أو الحدّ من حركتها وحريتها؟ حينذاك يرى الله أنّ ذلك ليس بحسن!

كان اليوم الخامس هادئا نسبيا أتاح لي أن أواصل ما كنت قد استذكرته من أيّام الدراسة في معهد مار يوحنا الحبيب، وتحديدا في قسم الصغار –وسنبقى نعتزّ به وبآباء تخلّوا عن ذواتهم، في تجرد كبير، من أجل تربية كهنة المستقبل من الطائفتين الكلدانية والسريانية، بروح العطاء والانفتاح والتضامن... في رحاب دار كبيرة (كانت قبلا دار القصادة الرسوليّة، وكان القاصد الرسولي اتيين دي شيلا في الخمسينات يزورنا من عام لآخر ويقضي بضعة أيام في مقرّه السابق في الطابق الأول) تشهد كلّ عام أو عامين تخرّج كهنة يزداد وينقص عددهم بحسب الصفوف... وقد بلغ ثمانية منّا الكهنوت من اصل ٢٧، عام ١٩٦٢، بالتساوي بين السريان والكلدان، بدءًا بـ: اسحق، جرجس، نعمان، بيوس، يعقوب، حنا، يوسف، وانتهاء بجاك إسحق (١٩٦٣)، إلى جانب زملاء تركوا في منتصف الطريق أو في آخره: إسحق أوراها، آدم، بطرس، هرمز، شليمون، يوحنا، يلدا، ابلحد، أدور...

كُنتُ منطرحا على الأرض –ولم يكن ذلك البساط قادرا أن يسند ظهري الذي رُضّت عظامه!– حين عدت بالذاكرة إلى أيام كان علينا في ذلك الشتاء القارس أن نضع رأسنا تحت حنفية الماء البارد –وحذار لمن يتحايل مع الحنفية!– أو أيام كانت وسيلتنا الوحيدة في التدفئة هي الركض، ولم نحظَ بمدفأة أو بساط أو سجّاد،

لا في قاعة الدراسة ولا في غرف النوم التي كانت أشبه بردهة المستشفى، وعلى مدى إحدى عشرة سنة، إلا أللهمّ حين أُستحيب لنا في السنوات الأخيرة من الدراسة بموقد ابان الامتحانات لا غير! وإذا كانت العصرونية مقتصرة على ربع "قرصة" لا غير، إلا أن تغذيتنا عموماً كانت صحيّة على بساطتها، ولكننا لم نكن نحظى بالفاكهة إلا في المناسبات! وكان ما يسمّى فاكهة يكاد يقتصر على الزبيب أو القصب -وكان بعضه قد سكنه الدود!

وتذكّرت فيما تذكّرت كيف كانت الأعمال المنزلية تتوزّع علينا في بدء السنة: فكان بعضنا كنّاسين، وبعضنا صبّاغي أحذية، فيما كانت مهمة آخر أن يتلقى كل أثنين الأحذية التي تحتاج إلى إصلاح... وآخر يجمع كل أربعاء الملابس التي كانت بحاجة إلى غثي أو ترقيع! -ولا زلت أتندّر عن ذلك مع الأخت جيرمين الدومينيكية! وفيما كان هناك ثلاثة مسؤولين عن التراتيل بحسب الطقوس الثلاثة، كان اثنان يقومان بدور الساعور -وهي مهمة مستطابة، لانها تتيح لهما فطوراً متأخراً مع حرية اكبر! كما تذكرت كل سبت، حين كان يترتب على حوالي ٧٠ طالبا أن يتوزعوا على أربع حمّامات، وبمعدل ١٥ دقيقة للطالب الواحد، ممّا كان يتطلب اكثر من ٤ ساعات! فيما تذكّرت قداس الأحد الاحتفالي، وبأحد الطقسين، ومن ثم على على مدى أسبوع، بالتناوب بين الخوري أنطون زبوني والقس اسطيفان زكريا -وكان بعضنا يخدم القدّاس من غير طقسه- تذكرت أيضا أول جمعة من الشهر حين كان لنا فيها تأمل حزين في الموت -تأمّل لم يقو على فهمه شاب فرنسي (كريستيان لوشون) كان قد جاء إلى المعهد ليتعلم العربية عندنا، وأصبح له فيما بعد موقع هام في الخارجية الفرنسية! وأنا أيضًا لم أكن استسيغه آنذاك، وها قد اصبحت الآن على قاب قوس منه!

لم نكن آنذاك ندرك معنى هذا الشظف في العيش ولا معنى بعض هذه المعانيات التي تبدو اليوم وكأنها تجاوزت الحدّ! (إن لم يعتبرها بعضهم شكلا من أشكال السادية!)؛ ومن ثمّ، وعلى مدى سنوات الكهنوت، أخذنا نفهم كم كان مفيدا تدرّبنا على الاكتفاء بالقليل وعدم الرغبة في البحبوحة والرغد، فيما كان شعبنا يعاني من أشكال النقص في وسائل العيش... وهنا تحضرني كلمات القديس بولس، حين كتب: "تعلمت أن أقنع بما أنا عليه، فأُحسِنُ العيش بالحرمان كما أُحسِنُ العيش في اليُسر... " (فيليّ ٤: ١١-١٢). أليس وضع الاختطاف تجسيدًا حيًّا لذلك الشظف؟!

وسرعان ما سرحت إلى يوم كان المعهد يحتفل بشفيعه مار يوحنا الحبيب في

ثالث يوم بعد الميلاد، والى الاحتفالات بعيد مار يوسف حين كان يُنظّم مهرجان على مدى ثلاثة أيام بفعاليات غنائية ومسرحية ونشاطات والعاب... كما سرحت بي الذاكرة إلى العطلة الربيعية وهي بالنسبة لنا عطلة عيد القيامة، على مدى اسبوعين، نقضيها في إحدى قرى الشمال... ولعلّ أكثر ما بقي في ذاكرتي من تلك الرحلات، الرحلة إلى زاخو في عهد **المطران حنا نيسان (+١٩٥٦)** الذي كانت تشدنا إليه حكاياته اللذيذة ونكاته العذبة... وفي تلك الرحلة المليئة بالأمطار تعرّفنا على مهمدية وبيرسفي وفيشخابور وليفو وحتى دوريناخ على الحدود التركية... وكم كانت رائعة الرحلة إلى السليمانية حيث كنّا في ضيافة **الاب جبرائيل ماري (+٢٠٠٤)** من تلامذة المعهد القدامى، وفيها تعرّفنا على مشروع سدّي الدوكان ودربندخان في أوائل العمل بهما، كما تسلّقنا جبل بيرامكرون وزُرنا حلبجة... وماذا أقول عن الرحلة إلى ربوع وادي صبنا حين حططنا الرحال في أرادن في دار الكاهن ودور أهل القرية، وفي مقدّمتهم "ريّس هرمز"، ومنها إلى العديد من القرى: اينشكي وبيناثن وهمزية وديري وكوماني وبيبادي والعمادية... ولن أنسى زيارتنا إلى شيخ بامرني ومن ثم تسلقنا جبل متينا حيث جرت منازلة بالثلج...

أما الرحلة الأكثر عذوبة فكانت في ربوع عقرة وعلى ثلاث دفعات، حين كان على رأس الأبرشية **المطران (البطريرك) بولس شيخو (+١٩٨٩)** الذي كانت تربطه علاقة وثيقة مع الآباء الدومينيكيين، وفي كل مرة تُكرَّس كنيسة ويوضع حجر أساس لأخرى في قرى الزيبار... فكانت كنائس خرجاوة وخربا وكربيش، إلى جانب زيارات لقرى شرمن وخردس ودير مار عوديشو في كندك حيث كان إخوة يسوع الصغار قد أسّسوا أول اخوّة لهم في المنطقة الكردية -وكان قد سبقهم إخوة في الخضر(البساطليّة) بالقرب من دير مار بهنام، وعلى رأسهم الأخ الصغير كريستيان الذي تعلّم في المعهد العربيّة والسريانيّة، ومعه كان لنا أوّل احتكاك بالإخوة الصغار... وعلى ذكر الكنائس العديدة التي بناها المطران شيخو، لا ولن أنسى كيف كنّا، ابّان إقامتنا في عقرة، نرافقه في زياراته الراعويّة إلى القرى، وكيف كان الأهالي ذوو الإيمان العميق يفرشون الطريق إلى الكنيسة، وعلى بعد كيلومتر على الأقل، بمختلف الأغطية والفرش، وكان علينا أن نسير عليها بأقدام ملوّثة بالأطيان!

وحين أتذكّر هذه الرحلات يزداد إعجابي بإدارة المعهد التي جعلتنا نتعرف على قرى شمالنا ونحتك بشرائح من شعبنا في قرى نائية لم تكن وسائل الحضارة قد وصلتها

بعد... وحينذاك أخذت أقيّم الخشونة التي كنّا نتدرب عليها ونحن في المعهد لنقوى على تحمّلها حين نُستدعى للخدمة في تلك القرى النائية، وبعضها لا تصل إليه السيارة! أوليس الكاهن، في عرف المؤمنين "جُنديّا" يذهب إلى حيث يستدعيه الواجب، فلا يبحث أولا عن راحته وسبل توفيرها، وإنّما يسعى، أينما وجد، أن يشهد للمعلّم ويشقّ للناس الطريق إليه، وسط الصعوبات والمعوقات، فلا ينتظر أن تتوفر له كل سبل الراحة والرفاهية كي يباشر بالرسالة!

وسرح بي الخيال إلى أيام كنّا في قسم الصغار نرتدي الـ "مرمري" -وهو أشبه بدشداشة من كتّان من صنع محلّي، مع حزام، يضاف إليها عباءة سوداء وكالوت (عقجين) اسود- ولم أتمالك نفسي من الضحك في سرّي حين تذكّرت كيف كان عليّ في العطلة الصيفيّة -وكنّا نقضيها برمّتها عند ذوينا، وهي الاخرى خبرة جيّدة للاحتكاك بالناس وممارسة بعض النشاطات الدينية كالتعليم المسيحي وغيره- أن أسير بهذا الزي من دارنا في الشطّية إلى كنيسة مار توما، عبر محاليل كان الاولاد يخرجون عليّ بالحجارة والقشور وهم يهتفون: "هذا القس ما ينمس، يزرع بصل يطلع خسّ"!! وبالكاد كُنتُ أُفلت من أيديهم... وتتكرر القصّة كل صباح لحضور القدّاس، وكل عصر لصلاة الرمش! وكان يترتب عليّ دوما أن أبدّل خط السير! وقد تبدّل هذا المشهد قليلا حين تقرر استبدال هذا الزي بالبنطلون والقمصلة الزرقاء مع علامة النسر الذي يذكّر بيوحنّا الحبيب -وسيعود مشهد الهزء والملاحقة حين أكون قد انتقلت إلى معهد الكبار (grand séminaire) مع السلطانة السوداء والياخة البيضاء! فأصبحت ردّة الصبية أكثر توافقا مع ما تشير اليه الملابس!!

وعلى ذكر البيت في محلّة البلاليع، استعدت ذكرى الأشهر الثلاثة من العطلة بين ذويّ، ولا سيّما في النّهارات الطويلة بين الأم الحنون وجناحيها برناديت ونوال (+٢٠٠٣) اللتين مارستُ تجاههما أولى بدايات الرسالة، ولاسيّما بعد مناولتهما الأولى في مدرسة مار عبد الاحد -وكانتا تلهثان دوما بماسير سان توما وماسير منّيس ودومينيك وانجيلا- حين كنت أعلّمهما ما كنت قد تعلّمته في السمنير من أناشيد وصلوات وطلبات... ولعلّ أبرز نشاط قمت به هو حين جمعت صبيان المحلّة وصباياها -ولم أعد أذكر ما كنت القيه عليهم، ولا إلى أي مدى استمر هذا النشاط... وسرحت في زوايا دارنا حيث كانت هناك مكتبة صغيرة، معظم كتبها تحمل اسم مطبعة الدومينيكان التي ترقى بداياتها إلى عام ١٨٥٧، أضفت إليها كتباً اقتنيتها شيئا فشيئا أثناء الدراسة؛ وبمجرد ترقيمها وتجليدها، اعتبرتها ملكا لي، مع ما يرافق ذلك من مشاجرة مع أخي بهنام بشأن العائدية!

وإن نسيت، فلن أنسى التوجه الثقافي الذي دفعني إلى أن أقرأ كل ما كان بحوزتي من كتب. فيما كنت اسمح لأختيّ أن تقرآا بعضا من الكتب التي كانتا تجلّدانها! وحين كان يضيق بي البيت، كنت أتوجه مع كتبي إلى المكتبة العامة، وعلى مدى الساعات الصباحيّة... ولا زلت أفاخر بأنّي كنت ألخّص كل كتاب أقرأه -ولا اعلم إلى من أنا مدين بهذه الفكرة؟! وقد خلّفتها ليرناديت التي تفاخر هي الأخرى بأن أصبح لديها مجموعة من الملخّصات لكتب عديدة قرأتها منذ ذلك الحين... وبعد المكتبة العامة تحوّلت إلى مكتبة المتحف مع الآثاري الشهير **بهنام أبو الصوف** (+٢٠١٢) -وكان فيها عدد كبير من كتب **الأب العلاّمة انستاس الكرملي** (+١٩٤٧) التي فاضت عن مكتبة المتحف العراقي ببغداد- حيث كنت اقضي فيها ساعات الدوام مع الموظفين وعلى رأسهم مدير المتحف آنذاك الأستاذ سعيد الديه وجي.

وسرحت بالفكر إلى ايام العطلة الصيفية، حين كنّا نقوم نحن التلامذة الموصليين ببعض السفرات إلى بعض الأماكن السياحيّة والقرى التي لنا فيها زملاء... ولا زلت اذكر رحلات شخصية قمت بها لوحدي إلى قره قوش حيث كنت اقضي ليلة بين ذوي أحد الزملاء الاكليريكيين (جرجس، اسحق، افرام، بيير، ميخائيل...)، نقضيها على السطح في ضوء القمر... أو إلى ارادن ومانكيش حيث كان لي زملاء اصغر سنّا منّي، أو إلى عقرة حيث قضيت ليلة عند المطران أندراوس صنا ليسهّل لي رحلتي على البغال، صعودا إلى أعلى جبل عقرة ونزولا إلى وادي نهلة للوصول إلى كربيش حيث كان لي زملاء بلغ احدهم إلى الكهنوت هو الأب يوحنّا عيسى. ولكم كانت عذبة تلك الليالي في العراء حيث تشاهد السماء بكل بهائها، بكواكبها ومذنّباتها... كما أذكر أنّي رافقت لبضعة أيّام أولاد الميتم -مع نعمان وجرجس اللّذين كانا يتجنّدان في خدمتهم ومرافقتهم على مدى بضع عطل صيفيّة- إلى دير مار ياقو في اتجاه الجبل الذي يشرف على شيّوز، وهو دير بناه الآباء الدومينيكيّون القدامى بمثابة مصيف لهم، وكان تلامذة المعهد، في زمن غابر، يقضون فيه جزءا كبيرا من عطلتهم الصيفيّة...

كنت قد ذهبت بعيدا في ذكرياتي وأنا اكليريكي في عمر المراهقة، حين كان لي مع الوالد مواقف عنيفة من التحدّي والرغبة في إثبات الذات والاستقلالية في القرار... وإذا بي أعود إلى ارض الواقع في بيت "أبي علي" حيث وجدتني من جديد بإزاء الموت الذي لم يفارقنا شبحه، سيّما وان التهديد كان متواترا، وكان يتكثّف ويتصاعد وفق وتيرة المفاوضات العسيرة في الخارج. وقد علمنا، بعد تحريرنا، أنّ مهلة ٧٢ ساعة كانت قد

أعطيت لتصفيتنا، وازدادت خشية الناس على حياتنا، حتى بعد أن كانت الفدية قد دفعت!

بعد هذه الهزّة الجديدة، عدت إلى أحلام اليقظة لأستذكر السنة الأخيرة من حياتي في قسم الصغار حين كان على كلّ منّا خلال العطلة الصيفية الأخيرة قبيل الدخول إلى قسم الكبار، أن يفحص دعوته بشكل جاد ويقيس، بواقعية، قدرته على الاستمرار في هذا المسلك الذي تحفّ به الصعوبات من كلّ جانب. وكان عليّ أن أقرّر، في غمرة المنازعات بشأن المطران قندلا[٣] وما خلّفته من معثرة لدى المؤمنين... ولم يكن نصيبي منها باليسير!

ففي قلب الانقسامات والتحزبات بين الكهنة في الموصل وقره قوش، قررت أن أواصل المسيرة نحو الكهنوت... وقد يرقى الشعور لديّ بضرورة التكاتف والألفة بين الكهنة إلى تلك الفترة التي استسلم فيها الكهنة لمعارك جانبية، لا طائل تحتها، أسفرت بالتالي عن استقالة المطران قندلا وشغور الكرسي قرابة سنتين، بعدها تسلّم **المطران عمّانوئيل بنّي (+١٩٩٩)**، في نهاية عام ١٩٥٩، زمام الأبرشية في ظروف أكثر مأساوية، سياسيًا واجتماعيًا، في أعقاب ثورة الشوّاف وما تلاها من رد فعل مضاد باغتيال عدد من المسيحيين وهجرة العديد منهم إلى بغداد -وكان ذويّ من بينهم! وهكذا سيترتب عليّ أن أقضي عطلتين صيفيّتين في بغداد قبيل الرسامة الكهنوتية التي مضى عليها اليوم ٤٩ عاما بالتمام!

انقضى ذلك النهار الطويل على ذكرى المآسي التي شهدتها الموصل في حقبة ما بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وقد أسفرت، بفعل القوميين والشيوعيين معا، عن فوضى تمخّضت عن قتل وتهديد وتهجير لأهالي الموصل الأصلاء من مسلمين ومسيحيين... ونجدنا اليوم وكأنّ التاريخ يعيد نفسه من خلال الفوضى التي شهدتها وتشهدها الموصل في أعقاب خمسين عاما على الشوّاف! وقد تكون تلك السنوات المأساوية أقلّ وطأة من مأساوية السنوات التي عقبت السقوط وما رافقها من نهب وسلب وتدمير وخطف وقتل

(٣) على ذكر المطران قندلا، استذكرت ما حقّقه في "قضية قره قوش" -وهي قضيّة ظلّت في ذمّة المحاكم طيلة ١٠٠ عام بين الجليليين وسكّان قره قوش بشأن ملكيّة الأراضي- بمساعي الحاكم القدير عبد الباري توفيق، فكانت فرحة عارمة في فناء كنيسة الطاهرة الكبرى إبان العطلة الصّيفيّة من عام ١٩٥٣، ولم أعد أدري كيف كنت مع المحتفلين! قضية استوْنفت في عهد المطران بنّي فاكتسبت صفة القطعية بقرار من محكمة التمييز عام ١٩٦٤... فكانت أطول دعوى نظرت فيها محاكم العراق المدنية!

وتفجيرات من كل شكل، لم نعرفها فيما مضى، من العبوات الناسفة إلى الحزام الناسف والسيارات المفخخة وحتى العبوات اللاصقة! إلى متى يا رب؟

أكملت ما كنت قد بدأت بكتابته من ذكريات، في باناصور، حيث كان الأب يوحنا عيسى قد دعاني إلى إلقاء محاضرة سرعان ما تحولت إلى شهادة حيّة عن خبرة الاختطاف لشبّان وشابّات معظمهم وفدوا إليها من بغداد والموصل... وكانت رحلة استعدت فيها الكثير من ذكريات الماضي ولاسيّما في قرى عقرة...

باناصور ٢٠١١/٦/١٠

١١

وكان مساء وكان صباح
يوم سادس

وكان مساء وكان صباح يوم سادس

اليوم السادس: الخميس ١٨/١٠/٢٠٠٧

وجاء في اليوم السادس دور "الأنفس الحيّة"، بحسب أصنافها، من بهائم وحيوانات ووحوش... ولما رأى الله أنّ ذلك حسن، قال: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا! وسلّطه على أسماك البحر وطيور السماء ووحوش الأرض وكلّ حيوان يدبّ على الأرض... ورأى الله جميع ما صنعه، فإذا هو حسن جدا!

يا لعظم الإنسان وكرامته، وقد أراده الله شبيها به، على صورته ومثاله! ولا أكاد أصدّق كيف يسع هذا الإنسان المخلوق على صورة الله، أن يشوّه صورته وصورة الله فيه حين يستسلم إلى افتراس أخيه الإنسان! انّها "حيوانيّة" الإنسان بكل معنى الكلمة، يتصف بها حين لا يدرك عظم إنسانيته ويعود ليتشبّه بالحيوانات! فهو يقترب من الوحوش بقدر ابتعاده عن الله وعن أخيه الإنسان! كتبها المفكّر الفرنسي الشهير بليز باسكال: "من الخطأ الجسيم أن نبيّن للإنسان أنّه شبيه جدّا بالحيوانات، دون أن نظهر له حقيقة عظمته من الجهة الأخرى. ولكن من الخطأ أيضا أن نتركه يجهل هاتين الحالتين"! -وقد عَكشتُ هذه المقولة في افتتاحية الملف عن"الحيوانات في الكتاب المقدس" هذا الملف الذي خشيت عنوانه فاستبدلته بعنوان "...وأعطاها اسما"، ولا أكاد أصدّق أنّ كاهنا قدّم الملف في قداس الأحد وكأنّه ملف عن العذراء مريم بعد أن شاهد صورة الغلاف: العذراء على حمار يوم الهرب إلى مصر! ولم يكن يعلم أنّ المقصود هو الحمار وغيره من الحيوانات في الكتاب المقدّس!

واستغرقت في التأمل منذ الصباح الباكر في هذه الحقيقة الأزليّة التي لو أدركها البشر لانتفت النزاعات وتوقفت المعارك وبطلت الحروب... ولعدنا إلى زمن الفردوس الأرضي المفقود ... ولكم مثلت أمامي صورة المسيح، بكر الخليقة، وقد جسّد في ذاته كل ما حلم به الله في بدء الخليقة: "فيه خلق كلّ شيء مما في السموات ومما في الأرض... كلّ شيء خلق به وله... فقد حسن لدى الله أن يحل به الكمال كلّه" (قولسّي ١: ١٥-١٩). انّه بحق آدم الجديد، بكر الخليقة الجديدة، هو الذي عكس وجسّد صورة الله، فحقّ لله أن يقول في المزمور ٢ الذي طالما طبّقته الجماعة المسيحيّة الأولى على يسوع: "أنت أبني وأنا اليوم ولدتك"... أنت ابني الحبيب عنك رضيت! ويا

ليتنا نحقق فينا صورة الابن، في كل ملامحه وصفاته، ليكون بوسع الله أن يرانا من خلاله... ويقول لكل منّا: أنت ابني... عنك رضيت! أليس هذا معنى الصفة التي تضفى على أولياء الله وقدّيسيه: رضي الله عنه.. سلام الله عليه..؟ ليتنا نحظى بسلام الله ورضوانه...

وانتقلت بالفكر إلى يوم توشّحنا بالسلطانة نحن الاثني عشر: آدم اسكندر، اسحق أوراها، بطرس نيسان، هرمز مرزا –وهؤلاء الأربعة تركوا ابان دراسة اللاهوت–، يعقوب شير، جاك اسحق، يوسف به ري، حنا زورا، اسحق لاسو، جرجس القس موسى، نعمان اوريدة، بيوس عفّاص، بعد أن قمنا برياضة روحية في بدء السنة الدراسية ١٩٥٦–١٩٥٧ ألقى مواعظها المؤثّرة المطران قندلا حين كنّا على عتبة قسم الكبار لسنتي الفلسفة، واللاهوت لأربع سنوات. لقد كان هذا التوشح بالسلطانة خطوة على درب الكهنوت، حين كانت تعجّ في داخلنا أحلام وطموحات ومشاريع من أجل كهنوت يكون أولا وآخرا شهادة وخدمة... وكنّا قد بدأنا، ونحن في عنفوان الشباب، نحسّ بالثغرات والتعثرات التي كانت تعاني منها كنائسنا وعلى أكثر من صعيد...

وكنّا، من حيث لا ندري، نتطلّع إلى نهضة شاملة وإصلاح جذري، سوف يطلع بها علينا **البابا يوحنا الثالث والعشرون (+١٩٦٣)** في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٩، آخر يوم من أسبوع الصلاة من أجل وحدة المسيحيين، حين أطلق الدعوة إلى عقد مجمع مسكوني!! ونزلت الدعوة حينذاك كالصاعقة على الكرادلة ورؤساء المجامع الرومانية الّذين انتخبوه عام ١٩٥٨، في عمر متقدم، خلفا **لبيوس الثاني عشر (+١٩٥٨)**، وكأنّه بابا انتقالي... ولم يكن يدور بذهنهم أنّه سيفجّر ثورة كبرى في الكنيسة تعيد النظر في مضامين رسالتها وأسلوب ممارستها وصيغ تعبيرها وعلاقاتها المسكونيّة مع الكنائس ومع الديانات الأخرى... في أعظم مجمع مسكوني هو الفاتيكاني الثاني.

وفي سنتي الفلسفة، قد تكون أعمق ذكرى بقيت هي دراسة أسس الفلسفة وتاريخها على يد **الأب برازوت (+٢٠٠٠)**، إلى جانب درس"الدفاع عن الإيمان" مع الأب منصور ليكونت حين تعلّمنا أجوبة جاهزة على الاعتراضات الموجّهة إلى العقائد والممارسات الكاثوليكية –ولعلّ مثل هذه التوجهات التقليدية كانت في أصل ذلك الانقلاب في المفاهيم الذي حققه المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢–١٩٦٥) حين أصبح التأكيد على إبراز ما في إيمان الكنيسة من عمق وأصالة، والتشديد على عيش هذا الإيمان بإخلاص وأمانة، يسقطان الكثير من المآخذ والاعتراضات والانتقادات الموجهة إلى الكنيسة وقيادتها...

وكان يوم الخميس في" بيت الحبس" هادئا، تخللته كلمات مُطمئنة بانفراج المحنة... ورحت أحلم مُمنّيا النفس بالخروج، لأكون على استعداد في الغد، الجمعة ١٩/١٠/٢٠٠٧، لبدء العام الدراسي الجديد في مركز الدراسات الكتابية مع طلبة الدورة الثامنة، ومع الطلبة الجدد في الدورة التاسعة -وكانوا قد سجّلوا لرحلة مع الكتاب المقدس! وبمشاعر التفاؤل، غرقت من جديد في ذكريات ربيع ١٩٥٧ حين كان والدي قد قرر الحج إلى القدس في أعياد الفصح، مستصحبا الأسرة، وأنا بضمنها... وكان عليّ أن أفاتح الأب المدير بالمشروع... وكان عليه هو الآخر أن يستشير الأساتذة، لأنّها كانت المرة الأولى يسافر فيها اكليريكي إلى خارج العراق!! علما بأنّي لم أكن في حينه قد زرت بغداد، إذ كانت زيارتها تتطلب سماحا خاصّا لا يمنح إلاّ في حالات نادرة! وكان السماح أشبه ببشرى خارقة خلقت التعجب والغيرة معا لدى الزملاء الذين فرح بعضهم لفرصة بوسعها أن تتيح لي التقدّم في القداسة! ولَكَم تندّروا على حسابي بعد العودة، حين كان يقرأ كتاب "الاقتداء بالمسيح" على المائدة، وتأتي فيه هذه المقولة، وتتجه نحوي الأنظار: "كثيرون يزورون الأماكن المقدسة، وقلّما يتقدّسون"!

كان ذلك في فصح ١٩٥٧، وكان علينا أن نصل القدس قبيل سبت السعانين. فبقطار طوروس من الموصل إلى حلب، فدمشق، ومنها إلى القدس حيث استأجرنا غرفة في القدس القديمة على مقربة من باب العمود وطريق الجلجلة. وكان دخول البطاركة التقليدي، سبت السعانين، مهيبا إلى كنيسة القيامة -وكان العيد واحدا في تلك السنة- وفيها تبرّكنا بصخرة المسحة ومذبح الجلجلة وقبر الخلاص. أمّا في احد السعانين، فذهبنا مع الحجّاج إلى بيت فاجي حيث ينطلق موكب البطريرك اللاتيني بسعف النخل، يتقدمه اكليريكيو بيت جالا الذين كان لي الحظ أن أنضمّ إليهم -كما في كلّ الاحتفالات اللاحقة- في المسيرة الصاعدة إلى جبل الزيتون حيث تظهر فجأة المدينة المقدسة برمّتها، بقبابها ومآذنها وفي المقدّمة قبّة الصخرة المذهّبة؛ ويبقى المشهد شاخصا على مدى الانحدار حيث يتم الدخول إليها، من باب الأسود أو باب الغنم، إلى كنيسة القديسة حنّة (والى جانبها بركة بيت حسدا ذات الخمسة أروقة التي ذكرها الإنجيلي يوحنا بفرصة شفاء المخلّع (ف٥) -بركة كشفت عنها الحفريات.

لم أعد أذكر كيف تعرّفنا على **الأب أوغسطين مرمرجي (+١٩٥٩)** من المعهد الكتابي الأثري للآباء الدومينيكيين (دير مار اسطيفانوس-ويشاهد في باحته تمثاله، وقد قُطِعَ رأسه بقنبلة في حرب ١٩٤٨، وكأنه استشهد مرتين!) الذي التزمنا

بشكل خاص ورافقنا بصفة دليل من درجة أولى، علميا وروحيّا، في كل الأماكن المقدسة، داخل القدس (كنيسة القيامة، قبّة الصخرة، الجامع الأقصى، قبر العذراء، كنيسة الجتسمانية، كنيسة صياح الديك، جبل الصعود...) وخارجها: بيت لحم، بيت جالا، حبرون الخليل حيث مدفن الاباء، بيت عنيا (اللعازرية) حيث قبر لعازر[٤]...

ومنذ خميس الفصح، كنّا نشارك في الاحتفالات اللاتينية في كنيسة القيامة، بدءاً برتبة تغسيل الأرجل أمام القبر المقدس... وبقيت محفورة بعمق ذكريات درب الآلام وهو يبدأ من المدرسة العمريّة بالقرب من دير"هوذا الرجل" لراهبات بنات صهيون، إلى الجلجلة، مرورا بمراحل عديدة عبر طريق ضيّق صاعد؛ إلى جانب ذكرى "فيضان النور" في سبت النور وذكرى قدّاس القيامة الاحتفالي أمام قبر الخلاص... إلاّ أنّ هناك ذكرى أقل تألّقا بقيت: ذكرى التوتّر بين الفرنسيسكان، حرّاس الأرض المقدسة، وبين رهبان الروم الأرثوذكس، وهم يتناوبون في إقامة الاحتفالات وتغيير الديكور بسرعة البرق! يا له من مشهد يعكس الانقسام والتمزّق في كنيسة المسيح الواحدة، وأمام قبر المسيح! وعدت من زيارتي الأولى للقدس بصديقين حميمين ظلّت المراسلات بيننا ولفترة طويلة: الأب (المطران) **حبيب باشا البولسي (+١٩٩٩)** من لبنان والأب **يوسف نعمات (+٢٠١٠)** من فلسطين.

بعد هذا الحج الميمون، مررنا ببيروت في طريق العودة، وهي الأخرى رأيتها للمرة الأولى، ومعها البحر والجبال... وفيها كان لا بدّ لوالدي أن يقابل **البطريرك الكردينال جبرائيل تبّوني (+١٩٦٨)** في شأن المطران قندلا؛ ولا زلت أذكر ردّه الذي طالما ردده

(٤) لن أنسى أنّي، بفضل الأب مرمرجي، دُعيت إلى الغداء، يوم خميس الفصح، على مائدة الآباء الدومينيكيين -وتشهد بذلك صورة تذكارية أعتز بها أيما اعتزاز- بينهم اختصاصيّون بيبليون كبار ما زالت وجوههم شاخصة في ذاكرتي، من أمثال الأب ديفو وبيير بنوا وإميل بوامار -وقد نقلت للأخيرين إلى العربية كتابين (يسوع الذي من الناصرة، تأليف الأب ماري اميل بوامار-سلسلة ابحاث كتابية/٢، دار بيبليا-الموصل، ٢٠٠٢؛ روايات الآلام والقيامة، تأليف الأب بيير بنوا-سلسلة ابحاث كتابية/٩-١٠، دار بيبليا-الموصل، ٢٠٠٦)! فمن المعهد الكتابي الأثري اقتنيت نسخة من الكتاب المقدّس بالفرنسيّة ظهرت، لأول مرة، عام ١٩٥٦ وهي الترجمة الشهيرة التي عُرفت، بطبعة أورشليم (Bible de Jérusalem). وعلى ذكر هذا المعهد، انتقل بي الفكر الى يوم اقترح عليّ الأب يوسف أومي أن أقضي سنة دراسيّة فيه، أكمّل خلالها العمر القانوني لاقتبال الكهنوت -وكان ينقصني سنة وشهران- ورفضت آنذاك كي لا أتخلّف عن زملائي! فطُلِبَ لي تفسيح بذلك من الكرسي الرسولي. وهكذا أضعت فرصة فريدة كان بوسعها أن تضعني منذ ذلك الحين على عتبة الدراسات الكتابية!

والدي: لم يصلنا من الموصل سوى "مضابط" مناوئة! مما سيحمله، بعد العودة، على تكثيف الجهود لدعم المطران قندلا، وان بعد فوات الأوان! وما زلت أذكر كيف رئس المطران قندلا، في نهاية قداس الأحد الأول بعد عودتنا، رتبة ارتدينا فيها حلّة كهنوتية، ودخلنا بها إلى الكنيسة بصفة "مقدسيين"!

كانت هذه الاحداث تتسارع في مخيلتي وتمرّ كشريط سينمائي لا يسعني أن أوقفه، سيّما وانه كان يعرض صورا لا تمحى عن مدن وكنائس وأديرة ومعالم تاريخيّة وآثاريّة... حتى كدت أنسى أنّي مختطف! وقطع الغداء (وقد حَمَلَته إلينا إحدى بنات "أبي علي" الصغيرات، داعية إيّانا، كالمعتاد، إلى نزع العصابة وإدارة ظهرنا باتجاه الجدار) سلسلة الاحداث لأعيد "تشغيل" الفيلم من ثمّ بشكل عكسي (flash back) مستذكراً الساعات الطويلة التي كنت فيها أتحدث إلى زملائي في المعهد عن مشاهداتي وانطباعاتي... وبقيت أجترّ هذه الذكريات لسنين طويلة، كنت خلالها اخطط لتنظيم رحلة، مع عدد من زملاء المعهد المقربين، إلى الأماكن المقدسة! وكان لي ما شئت حين كتبت إلى الأب الدومينيكي الذي لم اعد أذكر اسمه بشأن ضيافتنا في المعهد الكتابي لبضعة أيّام –ونحن أربعة من طلبة اللاهوت في معهد مار يوحنا للآباء الدومينيكيين – وما زلت اذكر باعتزاز ردّه اللطيف، مدعوما بذكرى طيّبة عن زيارتي الأولى، مُستسمحا اياي أن تكون لأربعتنا غرفتان فقط!!

كان ذلك في صيف ١٩٦١حين حجزنا (جرجس، جاك، قيصر (+)، بيوس) بدينارين للشخص، مقاعد في باص لشركة الاقتصاد، اضطرت من ثَمّ، لقلة الرّكّاب، أن تنقلنا وبنفس السعر، الى سيارة ستيشن مع ثلاثة ركّاب آخرين. واذكر أيضًا ويذكر زملاء الرحلة كيف كنت طيلة الليل أتكلم مع السائق بأحاديث من كلّ فجّ عميق، لئلاّ ينعس وينام ونحن في طريق صحراوي مظلم وغير معبّد من حوالي ١٠٠٠كم إلى عمّان! ولكم تندّر زملائي وظلوا يردّدون أنّي تكلّمت في ذلك اليوم ٢٥ ساعة من أصل٢٤!! بينما قد لا أكون تجاوزت ٢٠ ساعة فقط!

ومن عمان إلى القدس حين حللنا ضيوفا على آباء علماء أفاضل تأثّرنا بتواضعهم ومحبتهم... وكان لنا الحظ أن ننظمّ الى اثنين من الدومينيكيين المبتدئين وشابة فرنسية تدعى فرانسواز –وستصبح الأخت كلير[٥] في رهبنة تأملية ذات تجذر في

(٥) كانت بيننا، ولسنين طويلة، مراسلة ذات طابع روحي... وحالفني الحظ ان ازورها مرتين في ديرها في Egallière، ولا سيما بعد ان أصابها سرطان لم يُفقدها ابتسامتها التي تخفي عمقاً روحياً يتحلى على محيّاها... وقد نعتها لي رئيسة الدير بهذه العبارة: ولِدَت للحياة (+٢٠١٢)، وحمّلت المطران جرجس، في

روحانية سريانية، باسم الظهور: Monstère de l'Epiphanie في ايكالبير جنوب فرنسا- يحجّون معنا إلى الأماكن المقدسة مع دليل قدير هو الأب بيير شاربيه الذي كان، خلال رحلتنا إلى المواقع البيبلية، يقرأ النصوص الموافقة ويفسّر ويشرح على ضوء الاكتشافات والحفريّات: من بيت ايل والعيّ إلى سبسطية وجبل جريزيم مع توراة السامريين وبئر يعقوب، والى أريحا وقمران مع قصة مخطوطات البحر الميّت... فيما واصلنا نحن الأربعة زيارة جبل التجربة (القرنطل) وبيت لحم وحبرون والخليل... ولا زلت اذكر بتأثر بالغ زيارتنا إلى اللاطرون (عماوس) حيث قضينا ليلة في دير الآباء السكوتيين (ترابيست) واشتركنا معهم في صلاة منتصف الليل!

لا اخفي أنّ الصور أخذت تختلط عليّ في أعقاب ثلاث زيارات للأرض المقدسة (١٩٥٧، ١٩٦١، ١٩٦٤) ولعلّ آخرها أكثرها عمقا، ونحن كهنة ثلاثة جدد (جرجس، جاك، بيوس)، كان يطيب لنا أن نقدّس في تلك الأماكن المقدسة ونستلهم منها روح الحب والبذل والعطاء على مثال الرب يسوع. ومن الأماكن التي احتفظنا عنها بذكريات عميقة: المعهد الكتابي للاباء الدومينيكيين (Ecole Biblique)، دير المخلّص للآباء الفرنسيسكان، دير مار مرقس للسريان الارثوذكس، كنيسة مار يعقوب للأرمن، كنيسة الجتسمانية، كنيسة الأبانا لحراس الأرض المقدسة... ومن ثمّ عمّاوس حيث عدنا إلى دير اللاطرون لرياضة روحيّة قصيرة، رافقنا فيها احد الآباء السكوتيين؛ وفي بيت لحم حيث أقمنا قدّاسا في كنيسة المهد؛ وفي رام الله تعرّفنا على" المساعدات الدوليات"(A.F.I.)؛ وفي بيت جالا حيث كان لقاء مع الاكليريكيين اللاتين وأساتذتهم، وفي مقدمتهم **الأب تيودور صماما**؛ دون أن أنسى أخوات يسوع الصغيرات، في أخوّتهن في "المرحلة السادسة"... وإن نسيت، فلن أنسى أننا انضممنا إلى فريق كبير من الشباب الفرنسي في حج احيوا فيه اسبوع الآلام برمّته، ببرامج وأمسيات روحية، أبرزها أمسية الجتسمانيّة حول صخرة الصلاة... تكللت بعماذ شابّة يوم الأحد في كنيسة القيامة! وكانت هذه المشاركة برمّتها قد تركت أثرا عميقا في قلبنا.

ولعلّ المجازفة الأكبر كانت في إقدامنا على ارتداء حلّة لاتينيّة "للتمويه" كي يتاح لنا أن نقدّس على صخرة القبر المقدّس (ولا يحقّ للكاثوليك الشرقيين إقامة القداس

حزيران ٢٠١٢، أيقونة على الخشب من صُنع يدها، هدية لي بمناسبة اليوبيل الكهنوتي الذهبي!

عليها!)، فكان في الداخل قداس سرياني في أجواء من التقوى والرهبة معا! وعلى ذكر الحج إلى القدس، كنت والأب جرجس نخطط لرحلة لأعضاء الشبيبة الطالبة المسيحيّة[٦] عام ١٩٦٧. وحين كنّا نُعدّ لها ونُمنّي النفس بحج متميّز، فيه الروحانية مع السياحة الدينيّة، فوجئنا في ٥ حزيران بالاحتلال الصهيوني الذي كرّس انقسام فلسطين وذهب بحلم تدويل القدس الذي كان يهدف إلى جعل القدس مدينة مفتوحة لمؤمني الديانات الثلاث... وهكذا قضي على رغبة المسيحيين في الشرق في الحج إلى الأماكن المقدسة! فلئن كنّا نتحسّر في زياراتنا السابقة إلى حرماننا من القدس الغربية ومن كل الضفة الغربية وفي مقدمتها الجليل... أصبحنا نتحسّر على كل ما ضمّ إلى إسرائيل في حرب تحدّ واغتصاب وعنجهيّة وتجاوز لكلّ القرارات الدوليّة...

كنت قد سرحت طويلا في هذه الاستذكارات التي امتزج حلوها بمرّها، حين كان لنا جولة جديدة من الاستجواب، أصبحت مألوفة لدينا... وخشينا أن تطول بنا الإقامة في بيت أبي علي! وفي هذه الليلة، كان الخوف مُخيّمًا على أصحابنا مخافة أن تجري مداهمة الأمريكان للدار... وكانت تعليمات أبي علي لنا: إذا كان هناك تفتيش، فسوف يفكّ قيودنا وعصائبنا ونجلس وكأننا ضيوفه. نحن حقّا ضيوفه، ولكن أي نوع من الضيوف؟! وحين شعرنا بأنّ أجوبتنا قد تكون أكثر وبالا علينا، قررنا أن نلزم الصمت...وكانت صلاتنا ألا نتعرض لهذه التجربة القاسية، لما لها من مردودات لا تحمد عقباها! وقد استجيب لنا وأعفينا من هذه المحنة!

لقد عشنا تلك الليلة في توتر وترقب... وتوقفت عن الاستذكار لاستذكر صلوات عن ظهر القلب... وفي مقدمتها مزمور للقديسين اميروسيوس واوغسطينوس كان يرتل بنغم لاتيني ليلة عيد رأس السنة... ولكم رتّلناه طلابا اكليريكيين في كنيسة اللاتين للآباء الدومينيكيين عصر ليلة رأس السنة، وفي المعهد، قبيل منتصف الليل (حين كان الناقوس ينتزعنا من أحلامنا لنقضي ساعة سجود بين الساعة ٣٠: ١١ و ٣٠: ١٢

(٦) حركة علمانية رسولية متخصصة تاسست في بلجيكا عام ١٩٢٧ ودخلت الشرق منذ الخمسينات... تعرّفت على فرقة منها في حلب عام ١٩٦٤ بفرصة موعظة الجمعة العظيمة في كنيسة السريان، وحملت "دليلها" الذي بوحيه أنشات أول فرقة لكلية العلوم في خريف عام ١٩٦٤. وتوسعت الشبيبة إلى كل كلّيات جامعة الموصل حين كانت في بداياتها، من أواخر الستينات وإلى أوائل السبعينات، حتى بلغت أثنتي عشرة فرقة بفرعيها الجامعي والثانوي، بارشاد عدد من الكهنة في مقدمتهم الأب (المطران) فرج رحو. عقدت مؤتمرها الأول عام ١٩٧١، وفي نهاية عام ١٩٧٣شنّ عليها حزبيون بعثيون حملة معادية تمخضت عن توقيف كافة أعضائها من الشباب بهدف وقف نشاطها المتميز في المحيط الطلابي. انظر ما كتبت بصددها في الفصل ١٩: شاب بين شباب.

ونتناول من ثمّ الشاي مع قطعة كيك وقطعة كليجة وبسكويت، ونسمع الأب اومي يقول، وعلى مدى احدى عشرة سنة: لستم ملزمين بتناولها برمتها!!)، هذا المزمور الذي أعرفه عن ظهر قلبي، وقد رددته مرارا ايام الخطف:

إيّاكَ اللّهُمَّ نَمدَح   إيّاكَ يا رَبُّ نَعترِف
إيّاكَ أيُّها الآبُ الأزلي   كُلُّ الأرضِ تَعبُد
إليكَ جَميعُ المَلائِكة   والسَّمواتُ وكُلُّ القُوّات
وإليكَ الكواريبُ والسّواريف   يَصيحونَ بِصَوتٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ قائلين:
قُدّوسٌ قُدّوس   قُدّوسٌ الرَّبُّ إلَهُ الصَّباؤوت
السَّماءُ والأرضُ مَملوءتانِ   مِن جَلالِ مَجدِكَ
إيّاكَ تُسَبِّح   زُمرَةُ الرُّسُلِ الحَواريين
إيّاكَ يُعَظِّم   غَفيرُ الأنبياءِ النَبيلين
إيّاكَ يُبَجِّل   عَسكَرُ الشُّهداءِ المُكَلَّلين
إياكَ تَعتَرِفُ الكَنيسة   في جَميعِ أقطارِ المَسكونة
أنتَ الذي هو   أبو الجَلالِ غَيرِ المَحدود
مَعَ آبنِكَ الوَحيد   الحَقيقيِّ المَعبود
وأيضاً   رَوحُ القُدُسِ الفارقليط
أنتَ هو مَلِكُ المَجد   يا أيُّها المَسيح
أنتَ هو إبنٌ   سَرمَديٌّ للآب
أنتَ لَمّا بَاشَرتَ أنْ تُخَلِّصَ البَشَر   لَمْ تَستَنكِفْ مِنْ مُستَودَعِ عَذراء
أنتَ كَسَرتَ شَوكَةَ المَوت   وفَتَحتَ بِذَلِكَ مُلكَ السَّماواتِ لِلمؤمنين
أنتَ جالِسٌ عَن يَمينِ الله   في مَجدِ الآب
نُقِرُّ بِأنَّكَ   سَتأتي لِكَي تَدين
فَنَطلبُ إليكَ أنْ تَعَطَّفَ على عبيدِكَ   الذينَ فَدَيتَهُم بِالدَّمِ الثَمين.
وتَجعَلَهُم أنْ يُحصَوا   مَعَ قديسيكَ في مَجدِ الخُلود
يا رَبُّ خَلِّصْ شَعبَكَ   وَبارِك على ميراثِكَ
وَدَبِّرهُم   وآرفَع شَأنَهُم إلى الأبد
في كُلِّ يَومٍ وَيَوم   لا نَزالُ نُبارِكُك
وَنُسَبِّحُ آسْمَكَ إلى الدهر   وإلى دَهرِ الداهرين

آرتَـــضِ يـــا ربُّ أنْ تَحفَظَنـــا ... فـــي هـــذا اليـــومِ بِـــلا خَطيئـــة
تَـــــــــرَحَّمْ عَلينـــــــــا ... يـــــا رَبُّ تَـــــرَحَّمْ عَلينـــــا
لِـــتَكُنْ يـــا رَبُّ رَحمَتُـــكَ عَلينـــا ... كَمِثـــلِ مـــا رَجَونـــا بِـــكِ
عَليـــــكَ يـــــا رَبُّ تَوَكَّلـــــتُ ... فـــلا أخْـــزى إلـــى الأبـــد.

الموصل ٢٠١١/٦/١٥

١٢

واستراح الله في اليوم السابع من كل عمله...

واستراح الله في اليوم السابع من كل عمله...

اليوم السابع: الجمعة ١٩/١٠/٢٠٠٧

عكست الرواية الأولى من سفر التكوين (١: ١-٢: ٣)، خلافا للرواية الثانية (٢: ٤- ٣: ٢٤) التي تنتمي إلى المصدر اليهوي، ذي الطابع الإنساني، توجّهات المصدر الكهنوتي ذي الطابع التحريدي، بهدف التأكيد على أنّ الخلقة تمّت في ستّة أيّام، وأنّ الله ذاته استراح في اليوم السابع (شبّات/السبت)، فيتوجّب من ثمّ على المؤمن أن "يقدّس" يوم السبت بالراحة والتسبيح... وإذا كانت الخلقة قد تمّت في اسبوع، إلاّ أنّ اسبوعنا كان له امتداد إلى اليوم التاسع -وكان اليوم التاسع، يوم أحد- يوم خُلِقنا من جديد، وسيترتب علينا من ثمّ أن نقدّس كلّ الأيام، وقد منحت لنا منّة من لدن الرب الذي يجب أن نلهث دوما بمدحه وتسبيحه، مع المزمور ١٣٦:

إحمَدوا الرَّبَّ فإنَّهُ صالِح ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
صانِعَ العَجائِبِ العِظامِ وَحدَهُ ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
باسِطَ الأَرضِ على المياه ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
صانِعَ النيِّراتِ العِظام ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
الشَّمسِ لِحُكمِ النَّهار ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
والقَمَرِ والكواكِبِ لِحُكمِ الليل ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه (...)
هو الذي ذَكَرنا في مَذَلَّتِنا ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه
وآنتَشَلنا مِن مُضايقينا ... فإنَّ لِلأَبَدِ رَحمَتَه

ومع المزمور ١٤٨ الذي طالما أنشدته في أخوية الصليب، في صباح كل جمعة، وبترجمته القديمة:

سَبِّحوا الرَّبَّ مِنَ السَّمواتِ ... سَبِّحوه في الأعالي.
سَبِّحوه يا جَميعَ مَلائِكَتِه ... سَبِّحيه يا جَميعَ جنوده.
سَبِّحيه أَيَّتُها الشَّمسُ والقَمَر ... سَبِّحيه يا جَميعَ الكَواكِبَ النُّورية.

سَبِّحيه يا سَماءَ السَّموات ... والماء الذي فَوقَ السَّمَوات
فلْتُسَبِّحِ آسمَ الرَّبِّ ... لأنه هو قال فكانت، وهو امر فخُلِقت
وأقامَها إلى الدَّهر وإلى الأَبَد ... وضعَ لها حدّاً فلن تجوزه
سَبِّحي الرَّبَّ مِنَ الأَرْضِ ... أَيُّتُها التِّنانينُ وجَميعُ اللجج
النَّارُ والبَرَدُ، والثَّلجُ والجليد ... الرِّيحُ العَاصِفَةُ الصانعة كَلِمَتِه
الجِبالُ وجَميعُ التِّلال ... الشَّجَرُ المُثمِرُ وكل الأَرْز
الحيوان وكل البَهائِم ... الدبّاب والطير المجنَّح.
مُلوكُ الأَرضِ وكل الشُّعوب ... الرُّؤَساء وكل قُضاةِ الأَرْض
الأحداث بل العَذارى ... الشُّيوخُ مع الشباب
فلِيُسَبِّحوا لآسم الرَّبِّ ... لانه عظيم هو اسمه وحده
مجدُه على الأَرضِ والسماء ... ورفعَ قرنَ شَعبِه.
الفخرُ لجَميعِ أَصْفِيائِه ... بَني إِسْرائيل الشَّعبِ القريب إليه.

يوم جديد من المعاناة، وقد أصبحت جزءا منّا! ومنذ الصباح الباكر، انتقلت بالفكر إلى دير مار كوركيس، والى الموعد المقرر لبدء الدراسة في م.د.ك.، وخشيت آنذاك أن تتسبب أزمتنا في تشتت الطلبة ولاسيّما الجدد منهم -ولم أكن أدري أنّهم، فيما بعد، اتخذوا من قيودي قوّة وصمودا، فكان صمودهم من صمودي، وصمودي من صمودهم، وهم الذين احتفلنا في ٣ حزيران ٢٠١١ بتخرّجهم في أعقاب أربع سنوات (٢٠٠٧-٢٠١١) من الالتزام الذي رافقه بعض التعثّر بسبب الأوضاع الأمنيّة .

لقد كان اليوم السابع بالنسبة لنا يوما هادئا نسبيّا، استسلمت فيه إلى خيالاتي التي كانت قد بلغت بي إلى سنوات قسم الكبار، والى عام ١٩٥٩بالذّات، وبالتحديد إلى ٨ شباط وهو اليوم الّذي كان مقرّرا لرسامتنا، كلدانا وسريانا، قارئين، على يد البطريرك الكلداني الجديد مار بولس الثاني شيخو. فلقد كان يوما شهدت فيه الموصل توترات سياسية كبرى وعلامات ثورة وبوادر انقلاب على الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان قد قاد الانقلاب على الحكم الملكي في العراق في ١٤ تمّوز ١٩٥٨... فانتشر الجيش في شوارع الموصل وأعلن منع التحوال... وفيما كنّا نتساءل هل ستتم الرسامة أم لا؟ وإذا بالأب المدير يبشّرنا بانّ البطريرك -هو الذي كان قد أعلن عن رغبته في توزيع مقر إقامته بين الموصل وبغداد!- وصل إلى كنيسة اللاتين حيث كان من المقرر أن تجري رسامتنا؛ وحضرها من حضرها من ذوينا في الموصل عبر المحاليل، فيما لم يستطع الكثير

من ذوي زملائنا في القرى الوصول إلى الكنيسة في الموعد المحدد. "مشيحا نّقيّل منّاخ كول كوثماثا دحطيثا بشيم آوا وورا وروحا دقودشا لعالمين"! كرّرها غبطته اثنتي عشرة مرة وهو يقتطع شعرات من رأسنا في أول "رسامة" تلقّيناها، هي رسامة المزمّرين (قص الشعر) والقارئين، قائلا: "رفع المسيح عنك كل أدران الخطيئة باسم الآب والابن والروح القدس" –وكنّا نحن السريان ننتظر أول قداس احتفالي كي يتاح لنا فيه، بصفة قارئين، أن نتّشح بالاورار في شكل صليب على الصدر والظهر!

كنّا قد قضينا ذلك اليوم بين جدران المعهد في شبه ترقّب لما سيحدث من مآسٍ بدت بوادرها في اليوم التالي بقنبلتين من طائرة قصفت مقّر الشوّاف في الغزلاني... ومنذئذ استغلّها الحزب الشيوعي فرصة لإشاعة إيديولوجيته الماديّة الإلحاديّة التي انجرف وراءها عدد من الشباب، بدافع الحريّة والديمقراطيّة ومناصرة السلام! فكانت جرائم بشعة تمثّلت بأعمال القتل والسحل والتمثيل بالجثث، يشهد عليها وادي الدملماجة وأسوار نينوى الشمالية حيث كانت ترمى جثث القتلى! وكان بالتالي ردّ فعل معاكس تسبب في موجة عارمة من الاغتيالات نفّذتها عصابات بدوافع مختلفة، وذهب ضحيّتها أبرياء كُثر من مسلمين ومسيحيين أُلصِقت بهم تهمة التواطؤ مع الشيوعيّة؛ كما تسببت في تهديد أسر مسلمة ومسيحيّة وحملها على مغادرة الموصل –وكان للمسيحيّين من حملة القتل والتهجير نصيب كبير! إنّها أول هجرة كبيرة للمسيحيين من الموصل في العصر الحديث، كان من نتائجها أنّها كثّفت الوجود المسيحي في بغداد حيث، خلال بضعة اعوام، أصبحت مناطق جديدة برمتها تسكنها أغلبية مسيحيّة، مثل الغدير، تل محمد، بغداد الجديدة، المشتل، وحتى المنصور والدورة...

وفي غمرة هذه الأحداث المأساويّة التي شهدتها الموصل، كانت الدراسة في المعهد تتواصل بانتظام، وان كنّا، في كثير من الأحيان، نشرد ونذهب في تخيّلات بشأن المصير، وتنتابنا المخاوف على ذوينا ولاسيّما نحن اكليريكيي الموصل، كل مرة تطرق مسامعنا أخبار القتل والتهديد هنا وهناك... ولكننا، بفضل مدير ومدبّر حكيمَين، أُعفينا من مواجهة تلك المآسي، وغُصنا في لاهوت القديس توما الاكويني على يد **الأب برلي** (Brelet) (+ ١٩٦٩) الذي كان يكرر على مسامعنا: هل يمكنني أن اعلّمكم أفضل مما علّم الاكويني؟! أو في اللاهوت العقائدي بأسلوب ما قبل المجمع مع **الأب فيريّات** (+ ١٩٨٨) الذي يقرأ ملزمته أكثر مما يشرحها... فيما خلّف لنا درس تفسير الكتاب المقدّس على يد **الأب لاشيز** (+ ٢٠٠٩) شبه عقدة، عبر ملزمة كان قد أعدّها سلفه

على منبر التفسير الكتابي **الأب هودري (+ ٢٠٠٥)**... ولا زلت آسف جداً أنه قلما حمّلنا على استذواق النصوص البيبليّة، أو المشاركة في مغامرة شعب أعاد قراءة تاريخه في ضوء الحدث المؤسّس، الخروج، ومن ثمّ في خبرة المسيحيين الأولين الذين أعادوا قراءة حياة يسوع برمّتها في ضوء القيامة، وهي الحدث المؤسس للايمان المسيحي...

كانت ساعات النّهار تمرّ بسرعة حين استيقظت من بعد الظهر على ذكريات رافقت الدراسة، وكان لها وقع كبير في حياتنا بصفتنا شبابا يستعدّون للكهنوت وللرسالة. فكانت ذكريات زياراتنا لعوائل الموصل الجديدة منذ عام ١٩٥٧! تلك كانت فكرة رائعة أطلقها الأب أومي، كنّا بموجبها، "نحن الفلاسفة واللاهوتيين" نتوزّع، اثنين اثنين، على منطقة قسّمت إلى حوالي ثمانية قواطع. لقد كانت تلك المبادرة فرصة ثمينة لنا نحن كهنة المستقبل، حين باشرنا بزيارة العوائل من الطوائف كافّة لنتعرف على ربّ الأسرة وعلى عمله أو وظيفته ونسجّل أسماء أفراد الأسرة وأعمارهم ودراستهم أو مهنهم... داعين إيّاهم إلى قدّاس الأحد في دير الراهبات الدومينيكيّات –ولم تكن هناك آنذاك أيّة كنيسة قريبة في منطقة تكثّف فيها الحضور المسيحي منذ بداية الخمسينات– قداس التزمه **الأب خليل قوجحصارلي (+١٩٩٣)**، وكنّا بالتناوب نرافقه لخدمة القدّاس وللفطور الدسم الذي يعقبه! وهنا تحضرني ردّة فعل الأب خليل حين بلّغته يوماً، على لسان الأب أومي، بأن يعظ عن الوحدة المسيحية في اسبوع الصلاة من أجلها، فاجابني بانزعاج: كلمة الله لا تُرتَجَل! ومنذئذ كان لي هذا الرّد شعاراً في حياتي الكهنوتية... كما تحضرني ايضًا تلك المجادلات الساخنة مع الشباب الذين كانت الأفكار الشيوعيّة قد تسربت إليهم، وكيف كنّا نستعدّ لمواجهتها عبر مطالعات تردّ على الإيديولوجية المادّية وانعكاساتها الإلحاديّة... وكانت تلك المجادلات قد اتّخذت الأولوية من رسالتنا في أواخر الخمسينات. كما اذكر باعتزاز مرافقتي وزميلي في الرسالة داود (لويس) الديراني، غبطة البطريرك شيخو، عقب تنصيبه بقليل، حين شاء أن يزور كافة العوائل في الموصل الجديدة، وكانت قد أصبحت حقل رسالتنا!

وعلى ذكر الزيارات "الراعويّة"، مثلت أمامي ذكرى حملة التبرعات التي قمنا بها لأهالي الموصل الجديدة بمبادرة الأب أومي، في أعقاب هجرة المسيحيين من قرى الشمال إلى الموصل في أوائل الستينات، بسبب الحرب الهوجاء على الأكراد، وبعضهم اضطرّوا إلى ترك قراهم ومساكنهم دون أن يحملوا منها شيئا! حينذاك شهدت الموصل توافد مسيحيين كثر من قرى عقرة والزيبار، وبأعداد أقل من قرى زاخو والعماديّة الذين توجهوا بالأكثر إلى بغداد... وهنا لا بدّ لي أن أسجّل للأب اسطيفان زكريا غيرته

الرسوليّة في إنقاذ أسر برمّتها من قرى عقرة، وبسيارته الخاصّة، وفي ظروف أمنيّة رهيبة... وانتصبت في ذاكرتي الزيارات في قاطعي، مع رفيق الدرب داؤد، حين كان علينا، في كلّ بيت، أن نشرح الحالة المزرية لمسيحيي الشمال الذين لجأوا إلى الموصل بعد أن قصفت القوّات الجويّة قُراهم ومزارعهم، ابان ردعها العنيف للثورة الكرديّة بقيادة الملاّ مصطفى البرزاني...

وما زالت مطبوعة في ذاكرتي تلك المحاورة الرائعة مع يوسف هرمز الذي، بسبب وضعه المادّي، قررنا ألا نقبل منه مشاركة! وكانت المفاجأة حين اضطرّنا، وقد علم بمأساة المهجّرين، على قبول دينار-وكان الدينار آنذاك ذا قيمة تذكر ولم يدفع مثله كثيرون من الأغنياء!- وهو يقول: الفقير وحده يعلم بـ"درد" (هم وألم) الفقير! مقولة صادقة يتناساها أو يتجاهلها الذين لا ينقصهم شيء، فلا يعودون قادرين على الشعور بما ينقص غيرهم من أساسيات الحياة؛ والانكى أنّ بعض الأثرياء تذهب بهم لا أباليتهم إلى القول: هل هناك فقير؟! الفقراء كلّهم محتالون! ألم تقلها لي إحدى السيدات الثريات في أوائل التسعينات ابّان سنوات الحصار في أعقاب الهجمة الأمريكية: ليس هناك فقير طالما أنّي لا أجد خادمة تقبل العمل في بيتي! وتنسى تلك السيدة أنّ الكرامة هي فوق كلّ شيء، ولا سيما حين تُمتَهَن!

وعلى ذكر الكرامة...لن أنسى كيف أنّ أهالي منطقة عقرة الوافدين إلى الموصل، في أوائل الستينات، بدأوا من الصفر في أعمال البناء والحلاّن وسائر الأعمال المتواضعة... فيما اضطرّت بعض الفتيات إلى العمل لدى الأهالي، ولكن سرعان ما وضع كاهنهم الأب يوحّنا عيسى حدّا لهذا العمل لما يرافقه من هدر كرامة ومشاكل جانبيّة -وهو موقف مشرفٌ يذكر... وفي خلال أعوام قليلة استطاعوا أن ينهضوا بأنفسهم وبنوا لهم مساكن، وقد أصبح بعضهم أصحاب معامل حلاّن!

وبصدد المساعدات التي كان لا بدّ أن تجمع من أهالي الموصل لنجدة إخوانهم الوافدين من قرى الشمال، كانت هناك مبادرة من الأب اومي باتجاه قره قوش حيث ذهبنا، نحن طلبة قسم الكبار، وتوزّعنا على بضع فرق، وفق قواطع من البلدة، يرافقنا في جولتنا شخص مع حمار، إذ انّ الإعانات كانت تشمل كل أشكال الحبوب من حنطة وشعير وعدس وبرغل... لقد كانت خبرة رائعة اكتشفنا فيها قدرتنا على التوعية وتحريك الهمم للتضامن مع إخوة متضررين سُلِبَت دورهم وممتلكاتهم[٧]... وذلك بروح الشركة

(٧) إلى جانب الذكريات الطيبة عن أناس لم يترددوا لحظة في مدّ يد المعونة بما كان لديهم من نقود أو

والاقتسام الذي كان ينعش المسيحيين الأولين، وقد رسم لوقا ملامحهم في سفر أعمال الرسل، وهدفه أن يقدم نموذجا للمحبة والاقتسام يتصف به مسيحيّو الثمانينات الّذين إليهم وجّه كتابه: "وكان جميع الّذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كلّ شيء مشتركا بينهم... ولم يكن فيهم محتاج" (أعمال الرسل ٢: ٤٤، ٤: ٣٤).

وهنا حضرتني خاطرة بقلم خوان ارياس، في كتابه "لا أومن بهذا الإله" بصدد تطوية الفقر: لا احد يستطيع أن يهتف "طوبى للفقراء" إلا من شعر في لحمه بهمهاز الفقر والألم... واستأنف القول: " لقد خجلت أيّما خجل يوم ألقيت عظة عن التطويبات أضرمتها بكلّ ما فيّ من حرارة، فجاءني أحد العمّال، بعد خروجه من الكنيسة، وقال لي: هل أنت تؤمن بما قلت؟ فأجبته بكلّ إخلاص: أخال أنّي أؤمن. فأردف قائلا: ولكن هل تعلم ما هو الفقر؟ فتأخّرت في الجواب. وكان بوسعي أن أقول له أنني نذرت الفقر، ولكن الخجل منعني... فاستطرد: بالله سألتك هل صدف لك أن فكّرت بأنّه قد يأتي عليك يوم لن يكون لك فيه ما تأكله؟ أو تأتي عليك ليلة قد لا تجد فيها ما تأوي إليه؟(...) يحسن بك أن تترك العظة عن التطويبات للفقراء الحقّيقيين، للمضطَهَدين الحقّيقيين، أولئك الّذين جفّت مآقيهم لكثرة ما استرسلوا في البكاء![٨].

لقد كنت غارقا في هذه الذكريات التي رافقتها خواطر ومشاعر كان لها ولا يزال وقع على نفسي... وإذا باحدهم يدخل علينا ليقول بأننا سنخرج غدا... وعلى هذا الأمل أطبقنا أجفاننا، ممنين النفس بأنّ محنتنا قد شارفت على نهايتها...كيف؟ ومتى؟ بقينا نجهل ذلك اليوم وتلك الساعة!! انّه الانتظار المليء بالأمل حملنا على تحمّل

حبوب... بقي محفوظا في ذاكرتي ذاك الرجل الذي دلّ داره على أنّه ثري، فمنّينا النفس بالحصول على مساعدة دسمة! ودخلنا الدار، وكان استقبال حافل... وسرعان ما أوعز إلى زوجته بجلب محفظته التي كانت تطوى طبقات، وكانت إحدى طبقاتها تحوي القطع النثرية من فئة الفلس وحتى المائة. وفيما كان ينشر طبقات محفظته وهو يقول: ذلك حقّ وواجب... يجب علينا أن نساعد... وإن لم نساعد، فمن يساعد؟! وإذا به يمسك بقطعتين من عشرة فلوس ويمدّها إلينا!! ولم يكن بوسعنا، بدافع من الأدب، أن نلقيهما بوجهه، نحن تلامذة معهد اكليريكي! ولكننا ما انفككنا نروي قصّته في كل سانحة، وعلى مدى ايام وسنين! فكما كان فلسا الأرملة قد استحصلا امتداح يسوع لها، مؤكدا أنّها ألقت أكثر من كلّ الّذين القوا في الخزانة -وهي التي ما برح الواعظون، منذ ألفي عام، يشيدون بسخائها الذي لم يكن من فضل ما لديها، بل من إعوازها- هكذا يبقى التندّر قائما على من يتحدّث عن الفقراء ولا يعرف أن يقاسمهم خبزه!

(٨) صفحة من كتاب "لا أومن بهذا الاله" سبق أن نُشرت في "الفكر المسيحي"، ووثقت من جديد في ص ١٨٣ من كتاب "خواطر وشذرات" في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي" -دار بيبليا-الموصل ٢٠٠٩.

الضيقة مع الجلد والصبر... قالها القديس بولس حين كتب إلى أهل روما: "نحن نفتخر بالرجاء لمجد الله، لا بل نفتخر بشدائدنا نفسها لعلمنا أنّ الشدّة تلد الثبات، والثبات يلد فضيلة الاختبار، وفضيلة الاختبار تلد الرجاء، والرجاء لا يخيّب صاحبه...!" (روما ٥: ٢-٥).

الموصل ٢٠١١/٦/١٧

١٣

ومكلّ غد لناظره قريب!

وكلّ غد لناظره قريب!

اليوم الثامن: السبت ٢٠٠٧/١٠/٢٠

قضينا ليلة الجمعة على السبت بمشاعر التفاؤل والرجاء ونحن على يقين، مع القديس بولس، من أنّ الشدّة تلد الثبات والثبات يلد فضيلة الاختبار، وفضيلة الاختبار تلد الرجاء... انّه اليوم الثامن من خبرة سنتذكرها بتفاؤل ونبقى نستذكرها طويلا بفرح، وقد تمخّضت عن فرج يجعل الضيقة تتحول إلى ذكريات يُنسى مرّها ويطفو حلوها على السطح! وانّ ما جعل تلك الضيقة تُحتَمَل هو استرسالي في استعادة ذكريات الماضي، وكأنّها المرة الأخيرة! ومن هنا كانت طراوتها وجدّتها، فبدت وكأنّها ذكريات الأمس...

وفي استعراضي فيلم حياتي، كنت وأنا محتجز، استعجل تمريره لأصل إلى ذكريات السنة الأخيرة في المعهد والأشهر الأخيرة قبل الرسامة، وكنّا -وفي المقدمة زميلنا نعمان اوريدة- نقوم بالعد التنازلي، يوما بعد يوم! ولكم بدت الأيام طويلة، كما بدا لنا، ونحن في الاختطاف، ذلك السبت طويلا وطويلا جدّا!

وأول ما قفز إلى ذاكرتي عن السنة الأخيرة لقاءاتنا نحن الثلاثة (جرجس، نعمان، بيوس) في المكتبة للتداول في مستقبلنا، على صعيد الحياة الكهنوتيّة، وكيف نريده يكون فاعلا ومثمرا على مستوى الخدمة والعطاء... وكانت جلّ اهتماماتنا أن نجنّب أنفسنا التبعيّة لذوينا، أو السكنى معهم، كما كانت الحال بالنسبة إلى الكهنة، في كلّ مكان على وجه التقريب. ولكن الأولويّة في تطلّعاتنا كانت باتجاه عيش مشترك ينعش روحانيتنا ويبقينا متأهبين لممارسة العمل الرسولي في خدمة الإنجيل، ومبتكرين وسائل وسبلاً جديدة في اداء الرسالة بين شعب يحتاج إلى شهادة يؤدّيها الكهنة للمحبّة والتعاون والوحدة... ولاسيّما في الموصل حين كنّا نعاني من التحزّبات والانقسامات بين الكهنة إبّان أسقفيّة المطران قندلا وفي أعقاب استقالته عام ١٩٥٧... وسرعان ما انضمّ إلينا جاك في توجهنا هذا، فأخذنا نحن الأربعة نخطط ونهيّئ أنفسنا للحياة المشتركة التي تتوازن فيها شركة الحياة مع الصلاة، والتجرد مع الرسالة... وغنيّ عن القول ما تتطلبه الحياة المشتركة من تجرّد ونكران ذات واحترام للآخر ورغبة صادقة في عيش المحبّة والتعاون والتضامن...

لم يكن بوسعنا أن نبقى نسترق الأوقات الحرة إبّان الدراسة في النزهات والسفرات لكي نواصل التداول في أمر حياتنا الكهنوتية التي أوشكت أن تبدأ؛ ففاتحنا الأب أومي الذي أبدى على الفور فرحه وتحمّسه لفكرة الترابط بيننا في عيش مشترك، وأفسح لنا المجال كي نلتقي نحن الأربعة، كلّ أربعاء، في غرفته، فكنّا نمارس "الإصلاح الأخوي" ونناقش سويّة مدى التزامنا بقانون المعهد وبالجدّية التي كنّا نسعى إلى أن نتصف بها في متابعاتنا على صعيد الدراسة والروحانيّة... وقد كُشِفَ أمرنا بعض الشيء لزملائنا سيّما حين كان الأب اومي يرسل دقّات من جرسه إلى احدنا، وللحال نتحرك نحن الأربعة متوجهين إلى غرفته! ولكم أصبح استعدادنا للكهنوت في تلك السنة الاخيرة متّسما بالجديّة ونحن ندرك اننا نقترب من جبل الرب المقدّس...

كانت اجتماعاتنا الأسبوعية فرصة للدخول إلى حياة بعضنا البعض، بروح التعهد المتبادل والتعاضد، لعيش قيم الإنجيل في الحياة اليوميّة... ولكم تحسّنت علاقاتنا مع زملائنا وتعمّق التزامنا بروح الألفة والتعاون في نطاق الحياة في الاكليريكية. ولعلّ أكثر ما بدا علينا من روح الخدمة في السنوات الأخيرة من الدراسة التزامنا نحن الثلاثة بطبع ملازم اللاهوت النظري والأدبي والكتاب المقدّس، حين كنّا نغتنم كل فرصة لمواصلة الطباعة، ولاسيّما في يومي الخميس والأحد –وكان الزملاء يتناوبون، كلّ لنصف ساعة، في إملاء النصّ علينا، ولكم عانينا من بعضهم الذين كانوا يتعمدون إزعاجنا بطريقة قراءتهم كي نستغني عنهم!! ويحضرني هنا توبيخ كنت أتلقاه من الأب برليه حين كان يسألني عن درس الأمس ولم أكن قادرا على الإجابة بسبب الوقت الذي كنت قد صرفته في الطباعة عوضا عن مراجعة الدروس! وراح في كل صباح يناديني، عمداً، ليختبر مدى متابعتي ليخلص إلى القول: كل مرة سألتك، لا تعرف درسك... صفحتان تعيستان لم تقو على مراجعتهما؟!

كما يحضرني أيضا أيّام كنت في دروس ما بعد الظهر –وهي دروس مملّة كالحقّ القانوني والتاريخ– أضع على فخذيّ كتابا كنت أقرأ صفحات منه كلّ مرة تحوّل نظر الأستاذ عنّي... ولكم قيل لي: ما لعيونك تنظر إلى أسفل؟! ولم يكن الأب الفاضل يدري أنّي أنجزت، خلال مادته، قراءة كتاب ضخم للأستاذ الحدّاد "أطوار الدعوة القرآنيّة" –وكنّا آنذاك نتهافت على قراءة كتبه، وعلمت من ثمّ أنّه **الأب يوسف درّة الحدّاد** (+) الذي التقيته عام ١٩٦٨ في لبنان، فحكيت له كيف كنت أسرق من أوقات الدرس لقراءة كتبه! وأذكر أنّي أعرت يوما من ايام العطلة الصيفية، أمينة مكتبة المتحف كتابه "الإنجيل في القرآن"، فردّته إليّ بعد ايام قائلة: انّه كتاب مدسوس!

وعلمت من بعد -وبعد لقاء لن أنساه مع **الأب عفيف عسيران** (+ ١٩٨٨)[٩]، وهو مهتد لبناني- أنّ مجادلاتنا مع إخوتنا المسلمين لا ينبغي أن تتخذ أسلوبا دفاعيا يدحض ليبرهن، أو أسلوبا ننطلق فيه من آيات قرآنية لنثبت معتقدات مسيحيّة... وانّما أن يتفق الطرفان، في احترام متبادل، على الإصغاء إلى ما يؤمن به كلّ طرف ويعيشه. فلقد قالها عسيران، وكلماته مطبوعة في ذاكرتي: لا تخشَ أن تقول لأخيك المسلم أنّك تؤمن باله كلّه حب، اله دفعه حبّه إلى أن يسكن بين بني البشر: والكلمة صار بشرا وسكن بيننا! أو أن تقول له: مسيحنا أصبح لنا خبزا نتناوله، هو الكلمة المتجسّد!

في آخر عطلة صيفيّة قضيتها بين ذويّ في بغداد، اذكر كيف كنت كلّ صباح أسير إلى موقف باص رقم ٢٨ أو موقف سيّارات الفورد -وكان يطلق عليها لقب "بساط الريح"- لأتوجّه إلى كنيسة سيدة النجاة لحضور قدّاس يطول ويقصر بحسب الكاهن الذي يقيمه والشمّاس الذي يخدمه: فحين يكون **الأب نوئيل أيّوب** (+١٩٨٩) مع الشماس اسطيفان أبي خالد، فهو لا يتعدى العشر دقائق! ويطول قليلا إذا كان المحتفل هو **القس (الخوري) يعقوب حبي** (+٢٠٠٠)- وكان قد انتقل من مارتوما إلى بغداد -تزامنا مع قدوم المطران بتّي إلى الموصل- فاحتضن سريان الموصل الذين سرعان ما أطلقوا على كنيسة سيدة النجاة "كنيسة قس يعقوب"!

ولكنّي اذكر بالأكثر كيف كنت أعود بسرعة إلى البيت لأتفرّغ لترجمة كتاب من سلسلة "كلام الله" التي كان قد أطلقها الآباء الدومينيكيون في أواخر الخمسينات. وطاب لي أن أجرب حظّي في الترجمة، مختارا كتابين من سلسلة (Cahiers Evangiee) جعلتهما واحدا بعنوان "الكتاب المقدس والإنجيل" ظهر في آذار ١٩٦٢ قبيل رسامتي ببضعة أشهر، حاملا اسم بيوس عفّاص! وإذا كان هذا الكتاب باكورة ترجماتي، إلاّ أنّي كنت قد أدليت بدلوي في ميدان الكتابة عبر نشرة "ليكونوا واحدا" في نطاق "اسبوع الصلاة لأجل الوحدة المسيحيّة" الذي كان الأب

(٩) من عائلة شيعية معروفة من صيدا (لبنان) كان قد تدرج في الفلسفة والعلوم الشرقية في جامعة السوربون ونال شهادات عالية... وفي بحثه النزيه عن الحقيقة وجدها في يسوع، عبر قراءته لانجيل متى والخطبة على الجبل بنوع خاص. اعتمد والتزم السير على خطى يسوع في بساطته وفقره... انتمى فترة إلى اخوة يسوع الصغار، ومن ثم انخرط في ابرشية بيروت المارونية وفيها رسم كاهنا يعمل مع المهملين والهامشيين ولا سيما الاطفال المشردين في الشوارع، فأسس لهم دار العناية... جمع حوله عدداً من للممهتدين إلى الايمان المسيحي التقيناهم ذات مساء في افخارستيا لا تنسى!

أومي قد أطلقه، وسرعان ما امتد إلى كنائس العراق كافة. وقد كتبت كرّاسين من بضع صفحات –ومن دون توقيع!– في موضوع الوحدة من وحي توجهات المجمع المسكوني إبّان فترة إعداده في السنوات الثلاث قبل رسامتنا (١٩٥٩-١٩٦٢). ولا زلت اذكر أنّ الأب اومي أوفدني إلى بغداد، مرتين على الاقل، لأوزّع صلوات الوحدة مع الكرّاس، على كليّة بغداد وجامعة الحكمة لليسوعيين ومدارس الأرمن وراهبات التقدمة وبنات مريم، كما على عدد من الكنائس والأخويّات.

ولا أنسى أولى مساهماتي في سلسلة "أمسيات الأحد" التي أصدرها، في الخمسينات، الاباء البولسيون في حريصا (لبنان)، فكان لي فيها عددان: رقم ٤٧ بعنوان "العلماء والدين" ورقم ٥٢ بعنوان "الكسي كارل". وإذ لم يكن مسموحا آنذاك أن يذيّل الاكليريكي مقاله باسمه الصريح، فقد ذيّلتها بالحروف الأولى منه (ز.ع.)! أما الكتاب الثاني الذي نقلته عن الفرنسيّة، فهو بعنوان "لوقا، إنجيلي المخلّص"، ظهر عام ١٩٦٤ برقم ١١ في سلسلة "كلام الله" وانا مدين بإصلاح ترجمته وضبط عربيتها إلى الاب حبيب باشا[١٠] الذي تعلّمت الكثير من تصحيحاته وتنقيحاته... ولعلّ تحيّزي للوقا يرقى إلى ذلك الزمن، حين بدأت أول اكتشافاتي في مجال الأناجيل، وانجيل لوقا بشكل خاص!

وكان موعد رسامتنا يقترب... وفيما كنت أستعرض شريط الأشهر الأخيرة، مثلت أمامي صورة والدي الذي كان يمنّي النفس أن أكون كاهنًا يتباهى به في كنف أسرة أعطي لها أن تقدم أحد أبنائها إلى مذبح الرّب... لم يخطر ببالي قط، بعد انتقال ذويّ إلى بغداد، أن أرافقهم إليها، سيّما وقد كنت أرغب في الاستقلال عنهم والارتباط بأسرة أخرى يتعهد أفرادها بعضهم بعضا، ويساندون بعضهم بعضا، في جوّ من الأخوة والتضامن، وعلى أكثر من صعيد... فرحت أعدّ والدي لتقبل هذا الانشطار والانسلاخ، عبر رسائل عكست فيها، عن قصد، رغبة مفتعلة للذهاب إلى الصحراء الأفريقية في اثر الأب شارل دي فوكو! وبغيتي كانت تكمن في أن "أريه

(١٠) تعرّفت عليه في القدس في اكليريكيّة القديسة حنّة، وهو الذي عرّفني بجمعيتهم وبجلتهم الغرّاء "المسرّة" التي كنت لها خير داعية في المعهد وبين المتتبعين الكُثر في الموصل، وكانت تستهويني كثيرًا مقالات الأب جورج فاخوري (+)، رئيس تحريرها، حين كان يطلق قلمه السيّال في أمور ساخنة... وعلى ذكر الفاخوري، لا أنسى كيف كانت لي وليرحس صورة شاحبة عنه... ولكم كانت دهشتنا كبيرة حين التقينا به في بيروت عام ١٩٦٤ ولم نخشَ أن نقول له بشيء من الاستغراب: أنت الفاخوري؟! وهو الذي كانت طروحاته في العلاقات المسيحيّة الإسلامية تجلب عليه عندنا في العراق نقمة الرقابة!

الموت كي يقبل بالحمّى"! وهكذا حدث حين كشفت له عن رغبتي في الحياة المشتركة مع زملاء لي، وطدنا العزم، قبيل رسامتنا، على العيش تحت سقف واحد، وحينذاك هان عليه الأمر!

وكانت هناك عوائق وعراقيل اخرى كثيرة تحول دون تحقيق رغبتنا هذه، وفي مقدمتها أن يرتضي مطراننا بالسماح لنا في العيش تحت سقف واحد. وتولّى الأمر الأب أومي في مفاتحة المطران عمانوئيل بني، بالنسبة لنا نحن الثلاثة السريان، ومفاتحة **المطران عمّانوئيل ددي** (+١٩٨٠) بشأن الشماس جاك –وكان قد قرر، ولأسباب شخصيّة، تأجيل رسامته إلى العام التالي. وكان لنا ما أردنا بدعم مديرنا لمسيرتنا، هو الذي كان قد أسّس منذ منتصف الأربعينات رابطة "أصدقاء يسوع الملك: Amis du Christ-Roi" من كهنة المعهد المنتشرين في المدن والقرى، كانوا يجتمعون شهريًا، في المعهد، في لقاء روحي يجددون فيه التزامهم برسالتهم. وتبنينا بالتالي القانون الذي كان قد وضعه لهم –بعد أن استعرضنا صيغ بعض الجمعيّات الكهنوتية من مثل الجمعية البولسيّة وجمعيّة البرادو والأخوّة الكهنوتية شارل دي فوكو– سيّما وأنّ أحد بنوده كان قد تضمّن إمكانية إنشاء حياة مشتركة حيث يكون ذلك ممكنا...

والطريف في كل هذا التخطيط، قبيل الرسامة، هو أننّا بدأنا بالبحث عن مكان للسكنى خارجا عن المطرانيات أو الكنائس –ولم تكن مهيّأة للسكنى. وكان يترتب علينا أن نجد دارا بسبع غرف... فمن دار يوسف عنائي، بالقرب من المعهد، إلى دار خليل لعلي بالقرب من مدرسة شمعون الصفا، وآخر بالقرب من كنيسة مسكنتة (دار فرج نازو)... ومن بعد استبعاد فكرة العيش في "قصرالمطران" المعروض علينا –وكان يحتاج إلى الكثير من الترميمات والتصليحات– قرّ الرأي على ان تتخذ من الطابق العلوي في كنيسة مارتوما مسكنًا لنا، وهو الطابق الذي شيّده القس ميخائيل صائغ عام ١٩٥٩ ابّان عمليّة صيانة الكنيسة، على الجناح الأيسر من الكنيسة، ليسند صحنها. وقصدناه للتفاوض معه في مشروع السكنى، فأبدى والحقّ يقال ترحيبا، لأنه رأى فيه تحقيقًا للهدف الأول من تشييد تلك الغرف الأربع! ولكن مشروع الحياة المشتركة الجديد – والفريد من نوعه في كنيسة العراق– كان يتعدّى فكرة دار للكهنة يعيشون فيها متجاورين، وإنما يقوم على شركة حقيقيّة،على الصعيد الروحي والرسولي والمادّي... ولذا كان الاتفاق مسبقا على استقلالنا عن كنيسة مار توما وخورنتها التي كان يخدمها آنذاك الأبوان ميخائيل صائغ وبهنام نهّاب (+١٩٧٢).

وهكذا استقر بنا المقام في حضن كنيسة تعمّذت فيها وتعلمت في مدرستها وقبلت المناولة الأولى فيها وترعرعت في أحضان أخويّاتها وشهدت صيانتها الجذريّة في أواخر الخمسينات، وقبلت الرسامة الانجيليّة فيها، قبل أن تشهد قداسي الأول في ١١ حزيران ١٩٦٢... وسيتبيّن لنا فيما بعد أنّ السكنى في حضن كنيسة وفّرت علينا الكثير من المتاعب، وأفسحت لنا في الوقت ذاته فرصا كبرى لممارسة العمل الرسولي ولاسيّما باتجاه الشباب، وفيها من المساحات ما يتيح إقامة نشاطات مختلفة، ثقافيّة وروحيّة ورياضيّة!

كان هذا الاستذكار قد امتدّ على ساعات من ذلك اليوم الطويل الذي كان اليوم الأخير حين جاءنا شخص يبشّرنا بأنّ محنتنا قد انتهت وقضيّتنا سوّيت وأننا سنُردّ غدا إلى أهلنا —ولم يكن يعلم أنّ أهلنا أصبحوا مئات الألوف لا بل ملايين من المتعاطفين والمتضامنين في كلّ أرجاء العالم، لم تنقطع صلاتهم طيلة تلك الأيام... فيما انتقلت بالفكر إلى بهنام وبرناديت وابنتي المرحومة نوال، رنا وحلا، وقد أُخفي اختطافي عن رنا التي كانت على وشك أن تضع طفلتها الأولى... وفيما كنت غارقًا في تخيلاتي واستذكاراتي، وإذا بأحدهم يمدّ لي الموبايل لأجد على الخط المطران جرجس الذي لمست للحال في صوته نبرة دلّت على أنّه لا يصدّق أذنيه! وأذكر أنّي قلت له: نحن بخير، ونتمنى أن تكونوا أنتم بخير! بالنا عندكم أنتم!! وتركنا الرجل لنغوص في فعل شكر عميق للرب الذي سمع صراخنا واستجاب لاستغاثة المؤمنين به في كل مكان...

وحينذاك تبنيّت أقوال المزامير التي، فيما تصدي لصرخات البار المتألم، تضع على لسانه كلمات نابية بحق الأعداء والأشرار... إنّها المزامير التي كنت دوما أقول عنها، ردّا على المتشككين فيها، انّ "الكفر في وقته تسبيح" (!) طالما أنّه يعكس ثقة المؤمن بعدالة إلهه:

إليك يارب أصرخ يا صخرتي لا تتصامم عنّي (...)
لا تجرّني مع الأشرار وفعلة الآثام
من يسالمون قريبهم بألسنتهم، والشرّ كامن في قلوبهم
بأفعالهم وبخبث أعمالهم جازهم، وبصنع أيديهم كافئهم وردّ عليهم أجرهم (مزمور ٢٨)
لقد سبرت قلبي وافتقدتني ليلا، وبالنار محّصتني فلم تجد شيئا (...)
أفض مراحمك يا مخلّص المعتصمين بيمينك من المعتدين
احفظني حفظ الحدقة، إنسان العين وبظلّ جناحيك استرني

من وجه الأشرار الّذين يطشون بي والأعداء الّذين يحاصرونني طالبين نفسي (...)
أمّا أنا فبالبرّ أشاهد وجهك وعند اليقظة أشبع من صورتك (مزمور ١٧)

الموصل ٢٠١١/٦/١٨

١٤

... وكان يوم الفرج:
اليوم الأول من الأسبوع

... وكان يوم الفرج: اليوم الأول من الأسبوع

اليوم التاسع: الاحد٢١/١٠/٢٠٠٧ ومع صباح هذا اليوم دخلنا يومنا التاسع!

وكان اليوم الأول من الأسبوع قد أخذ يلوح منذ العشيّة! ألسنا في مساء سبت النور نؤدّي فرض القيامة؟ ألا نقول أنّ اليوم يبدأ مع طلوع النجمة؟ فحين تلقّينا نبأ تحريرنا، مساء السبت، اجتاحنا فرح عارم لم نشأ أن يخيّل الينا أنّه فرح كاذب، أو انّه أمل سرعان ما ينبخر إذا ما قرر مختطفونا غير ذلك أو أن ينالوا أكثر مما نالوا!! وحينذاك ألا تصبح بشراهم بشرى انتقالنا من هذا العالم إلى الآب؟! من يدري؟ غير أنّي آثرت التزام جانب التفاؤل والرجاء، فرحت أتخيّل عودتنا وكيف ستتم، ومن الذي سيأتي ليتسلّمنا من أيدي مختطفينا... وسرعان ما تذكّرت يوم كنت مفاوضا في اختطاف المطران جرجس -وكانت حالة الاختطاف جديدة علينا آنذاك- حين دقّ منبّه موبايلي منذ صباح ٢٠٠٥/١/١٧ لأسمع مضيّف المطران يتكلّم من موقع القوّة، وقابلته برباطة جأش حين قلت له: إنكم تواجهون رئيس طائفة له مكانته في البلد، ويجب من ثمّ أن يحظى بالعناية والاهتمام! وسرعان ما تغيّرت النبرة لتتحول إلى تهديد بقطع الرأس وإلقاء الجثّة تحت الجسر الخامس!! وتزاحمت الأفكار في رأسي وتقاسمتني مخاوف كبيرة وتخيّلات بائسة استطعت أن أتجاوزها لأردّ بضحكتي المعهودة: ليس بوسعكم أن تقدموا على مثل هذا الفعل! فجاءني ردّ عنيف زادني خشية: نحن لا نمزح.. تدبّر أمرك! وأُغلق الموبايل بوجهي! وازدحمت المخاوف وبلغ مني القلق أوجه...

كان عليّ آنذاك أن أنتظر مكالمة أخرى لأسمع فيها المطران جرجس يقول، بصوت متأرجح: عليك أن تتجاوب مع طلبات الاخ -وربّ أخ لم تلده لي أمّي!- فكان رقم أول للفدية، سرعان ما ارتفع في أعقاب احتجاجي على عدم قدرتنا على أدائه... وأغلق الخط من جديد في انتظار مكالمة أخرى... وفي الأثناء كان ينبغي العمل على جمع المال، وبالسرعة الممكنة التي فرضت عليّ... وإلاّ! وفي المكالمة التالية بلغ المبلغ حدّه الأقصى، وبدأ التداول في أمر الاستلام والتسليم وكأننا في عملية بيع وشراء! أهكذا يُفتدى الانسان؟ وأدركت آنذاك ثمن الفدية التي دفعها يسوع عنّا، وكلفته دمه، فيما دفع ليهوذا ثلاثون من الفضة لقاء تسليم يسوع...! فعن افتداء يسوع كتب بطرس

الرسول في رسالته الأولى: "إنكم لم تُفتدوا بالفاني من الفضّة أوالذهب... بل بدم كريم، دم الحمل الذي لا عيب فيه ولا دنس، دم المسيح" (١بطرس١: ١٨-١٩).

وبامتياز خاص، سمح لي أن أذهب، مع هاني، ساعور مار توما آنذاك، وهو يقود بتوتر بالغ سيارة البيكب دبل -وهو امتياز تلطف به مختطفو المطران!- كي ندفع الرهان ونستلم الرهينة، أو بالأحرى أن ندفع الفدية في انتظار المفتدى الذي خُيّل إلينا، برهة، أنه قد لا يعود!! كان الموعد قد حُدد لنا بالانتظار بالقرب من جامع صابرين - ولم نكن نعرفه حق المعرفة بالرغم من شهرته!.. وفي أثناء المسافة، بين مار توما والجامع، كانت هناك مكالمات عدّة أحسست من خلالها أنّنا مراقبون ومسيّرون. ووقفنا عند حائط الجامع في انتظار قلق، جف فيه الدم والريق... واستغرق انتظارنا قرابة الساعة. حينذاك صفّت سيارة بجانبنا تنادي: بيّوس، أين الأمانة؟ وكانت أشبه بقطعة "بلوك" احتوت "بلوكات" من الدولارات ضمتها "علاّقة" سوداء كثيرا ما تستخدم للنفايات... والنقود هي أشبه بالنفايات لولا تهافت الناس عليها! إلاّ أنّ عين الإنسان تتجه دوما نحو النفايات! فالكل يقول انّ المال "وسخ الدنيا" ولكنّهم لا يستنكفون من أن يلوّثوا أيديهم به! وتسلّمها صاحبنا من نافذة السيارة وذهب، وبقينا ننتظر قدوم "المفتدى" ونحن بين الشكّ واليقين، متسائلين: ماذا لو ذهبت الفدية والمفتدى معًا؟!

في هذه الأثناء جرت فجأة منازلة بين مسلّحين وقوّات أمريكيّة على مقربة منّا، وانهال الرصاص من كلّ صوب، وبتنا نحن الاثنين في خطر... ومن دون تردد، كانت استدارة عنيفة بالسيّارة وهزيمة باتجاه الصناعة والى حيّ المثنى والجسر الخامس والى مار توما، وبدونا وكأننا نعود بخُفي حنين!... وما ان بلغنا الزقاق العريض، وإذا بالمطران جرجس على الموبايل يعلمني بانّه عند راهبات التقدمة في حيّ الحدباء... فكانت استدارة أخرى أكثر عنفا إلى هناك دون ان نعلم ماذا جرى؟ -وعلمنا من ثمّ أنّ سيّارة أقلّته، ابان المناوشات، على مقربة من جامع صابرين، وحين نزع العصابة ولم يعثر علينا في تلك المعمعة، استقلّ سيارة أجرة إلى حيّ الحدباء ليحلّ ضيفا على إخوة يسوع الفادي، وحين لم يجدهم، توجه إلى دير راهبات التقدمة اللواتي دفعن له أجرة السيارة التي حملته محرَّرًا!

وهناك كان عناق طويل وحديث أطول عن اختطافه الذي لم اتركه يطول أكثر من ثماني عشرة ساعة! -قلتها له مازحا بعد خروجي من النفق يوم ٢١/١٠... وأنت أبقيتني فيه تسعة أيام!!

ومع ذلك تمخّضت الأيّام التسعة عن ولادة وإن "قيصرية"! في تلك الليلة

الأخيرة -وقد قبلت أن آخذ حبّة فاليوم لأخلد إلى الراحة- هانت كلّ المعانيات التي عشناها في انتظار الفرج الذي بتنا نصبو إليه ونتمنى أن نلمسه! ذكرت كلمات يسوع التي وضعها يوحنّا الإنجيلي على لسانه مخاطبا التلاميذ الّذين لم يفهموا معنى قوله لهم: "بعد قليل لا ترونني، ثمّ بعد قليل تشاهدونني: "ستبكون وتنوحون، وأمّا العالم فيفرح. ستحزنون، ولكن حزنكم سينقلب فرحا". (يوحنّا ١٦: ٢٠). وما أجمله مثلا ضربه يسوع حين تحدّث عن المرأة في ساعة المخاض كيف "تحزن" وتتألم لأنّ ساعتها "حانت"، وهي بين الموت والحياة... وما أنْ وضعت الطفل، لا تعود تتذكر شدّتها، "لفرحها بأن قد ولد إنسان في العالم"! فلقد كانت الأيّام التسعة بالنسبة لنا بمثابة مخاض عسير أسفر عن فجر جديد، إذ كان لا بدّ لكلمة الله من أن تواصل جريها (٢ تسالونيقي ٣: ١) بنا ومن دوننا!... وبين غفوة وأخرى، كانت تتردد على لساني كلمات المزمور٢٣ التي أُجيدها مرتّلة:

الرّبُّ راعيَّ فلا يعوزني شيءٌ في مراعٍ خصيبةٍ يُقيلُني ومياه الراحة يوردُني
يَرُدّ نفسي ويهديني إلى سُبُل البرِّ منْ أجل أسمه (الردة: الرّب راعيّ)
إنّي ولو سلكتُ في وادي ظلالِ الموت لا أخاف سوءا لأنّك معي
عَصاكَ وعُكّازُكَ هما يُعزّيانِني (الردة: الرّب راعي)
الجودَةُ والرَّحمةُ تَتبعانِني جَميع أيّام حياتي
وسُكناي في بيتِ الرَّبِّ طولَ الأيّام (الردة: الرب راعي)

كما كان نشيد زكريا يشق طريقه عفويا إلى لساني، مادحًا وشاكرًا:

"مبارك هو الرب اله إسرائيل الذي افتقد شعبه وافتداه"

وترجّع صداه تسبحة مار أمبروسيوس واغسطينوس:

إيّاك اللهم نمدح إيّاك يا ربّ نعترف...
وهوذا فجر الأحد أخذ يلوح...

كان متى الإنجيلي قد كتب في مطلع فصل القيامة (٢٨): "لما انقضى السبت وطلع فجر اليوم الأول"! وكان لا بدّ لي من مقاربة -أرى فيها مجد القيامة يتجلّى فينا وفي كلّ الّذين يؤمنون- خرج بها القديس بولس في معرض حديثه عن الموت والحياة: "إن كنّا قد مُتنا مع المسيح فسنحيا معه أيضا، وان كنّا قد تألمنا معه فسنتمجد معه أيضا" (روما ٨: ١٧). أليس السجن رمزا للقبر واستباقا للموت؟ فأن يبقى يونان في

بطن الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ، فتلك أمثولة تشير إلى موت ابن الإنسان وقيامته. وأن يختبر القديس بطرس رقاد السجن، فتلك علامة أيضا على تشبهه بمعلمه الذي عرف رقاد القبر! هكذا شاء لوقا أن يرسم وجه بطرس على خلفية وجه يسوع، مذكّرا بآلام يسوع وموته وقيامته التي عاشها بطرس بشكل رمزي: فكما كان هناك ملاك في قيامة يسوع، هناك ملاك لدى خروج بطرس من السجن... وحين نجا بطرس، عرفته امرأة أسرعت وأعلنت نجاته قبل أن تراه، وهكذا عادت النساء من قبر يسوع يبشّرن التلاميذ بقيامته... وكما شكّ الإخوة بكلام الخادمة حين أعلنت نبأ نجاة بطرس، هكذا شكّ التلاميذ أيضا بشهادة النساء لقيامة الرّب...

وفي محاولة لتلخيص المعاناة التي عشتها طيلة تلك الأيّام، تبادرت إلى ذهني كلمات القديس بطرس الرائعة، وقد دعا المؤمنين قائلا: "كونوا دائما مستعدّين لأن تردّوا على من يطلب منكم دليل ما أنتم عليه من الرجاء" (١ بطرس ٣: ١٥). وخرجت بهذا اليقين الذي حاول بطرس أن يقاسمه قرّاءه: "...خير لكم أن تتألموا وأنتم تعملون الخير، إن شاء الله ذلك، من أن تتألّموا وأنتم تعملون الشر" (١بطرس ٣: ١٧). كما تذكّرت الطوبى التي أعطاها يسوع للمضطَهَدين من أجل البر، لما ينالهم من شتم واضطهاد وافتراء... وقد رجّع القديس بطرس صداها قائلا: "طوبى لكم إذا عيّروكم من أجل اسم المسيح، لأنّ روح المجد، روح الله، يستقرّ فيكم. لا يكوننّ فيكم من يتألم لأنّه قاتل أو سارق أو فاعل شر أو واشٍ، ولكنّه إذا تألم لأنّه مسيحي فلا يخجل بذلك، بل ليمجّد الله على هذا الاسم" (١ بطرس ٤: ١٤-١٦).

وهكذا هي الحال مع القدّيس بولس: هناك تماثل كبير بين يسوع وبولس الذي رسم لوقا ملامحه في سفر الأعمال، بصفته ذاك الرسول الذي يحقق البرنامج الذي حدده يسوع للرسالة، من اورشليم والى أقاصي الأرض. وإذا لم يمت بولس في اورشليم، فلأن عليه أن يقوم برحلة، وهو أسير، إلى روما عبر سفرة بحريّة مضطربة، في ظلمة هي رمز العبور الذي عرفه يسوع من ظلمة الموت إلى نور القيامة... وسيتعمد لوقا الصمت عن استشهاد بولس لأنّه شاء أن ينهي كتابه على كلمة الله التي تبقى تُعلَن بجرأة، على لسان شهود لا يحول الموت دون شهادتهم، ولا شيء يوقفها... ألسنا بإزاء نشيد بولس في رسالته إلى أهل روما؟

"من يفصلنا عن محبّة المسيح؟ أشدّة أم ضيق أم اضطهاد أم جوع أم عري أم خطر أم سيف؟ فقد ورد في الكتاب: "إنّنا من أجلك نعاني الموت طوال النهار ونعدّ غنما للذبح. ولكنّنا في ذلك كلّه فزنا فوزا مبينا بالذي

أحبّنا. وانّي لواثق بأنّه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة، ولا أصحاب رئاسة، ولا حاضر ولا مستقبل، ولا قوّات، ولا علو ولا عمق، ولا خليقة أخرى، بوسعها أن تفصلنا عن محبة الله التي في المسيح ربّنا" (روما ٨: ٣٥-٣٩).

واقتربت ساعة الرحيل من بيت أبي علي! وكانت الشمس قد طلعت! ورحت أستعرض رواية مرقس في فصله القصير عن القيامة: فإذا كان قد كتب بأنّ النسوة جئن "عند فجر الأحد"، إلاّ أنّه استطرد قائلا: "وقد طلعت الشمس"! وما ذلك إلاّ لأنّه أراد أن يجعل من فجر الأحد، الأول من الأسبوع، فجر خلقة جديدة، ينتقل فيها الإنسان من عالم الظلمة إلى عالم النور، لأنّ قيامة المسيح هي اعتلان النور في أرض الظلمة... وكانت قد طلعت الشمس علينا بعد ظلمة تسعة أيام، حين حلّت قيودنا وأعيدت لنا هويّتنا، بكلا للعَيْن -ولكن لم تُعَد لي هوية نقابة الصحفيين التي كانت تحمل الرقم ٨٣ ومعها اجازة السوق، فضلا عن الساعة اليدوية وصليب الذهب والمحفظة وما كان فيها، إلى جانب البكب وخزّانه المليء بالبنزين!- مع كلمة اعتذار عن بعض سوء المعاملة... وفيما كنت أجتاز الغرفة التي احتضنتنا طيلة تسعة أيّام، أحسست بأمّ علي قريبة من الباب، فوجّهت إليها كلمة شكر لما كانت تعدّه لنا من طعام... ولعلّها -بحسب قول رفيقي في النجاة- كانت أول كلمة شكر تلقّتها في حياتها على خدمة قدمتها أو طعام شهي هيّأته!

لم تكن عودتنا أكثر كرامة من يوم اختطافنا، لأننا أُعِدنا من جديد إلى صندوق السيارة، ولكن شتّان بين الرحلتين: رحلة كانت قد ذهبت بنا إلى المجهول، ورحلة تفتح أمامنا أبواب الحرّية. وفيما كان قلبنا، في الرحلة الأولى، منقبضا، منكمشا، تعصره المخاوف فتسرّع في نبضاته، كان قلبنا في الرحلة الأخيرة، متقدا فينا، يسرّع الفرح نبضاته، فيلهث بالشكر للرب الذي نظر إلى مذلّتنا ونزل فأنقذنا... انّه الخروج.. الفصح.. العبور.. القيامة.. الحياة الجديدة.. وكما كان خروج بني إسرائيل بمثابة خلقة جديدة لشعب اختبر العبودية والموت، هكذا كان خروجنا منطلقا لحياة جديدة.

وحين بلغت بنا السيّارة إلى حدّها المقرّر -وأعتقد أنّها هي ذاتها التي أقلّتنا يوم السبت المشؤوم- أعطيت لنا الخمسة آلاف من أصل العشرين ألفا المقرّرة، وطُلب منّا أن نحتسب من ١-١٠٠ ومن ثمّ نرفع العصابة ونتوجّه إلى الشارع العام. ولم نلتزم بتعليمات العدّ التصاعدي، بل استبدلناه بالصلاة الربية وبضمنها فقرة الغفران التي كان لها رنّة خاصة في ذلك اليوم، ونحن نغادر من أخطأ وأساء إلينا، وهم أحوج ما يكون إلى غفران يُقبل بهم إلى التوبة... أما نحن فكنّا بحاجة أكبر إلى منح الغفران على مثال المعلّم: يا أبتاه، اغفر لهم لأنّهم لا يدرون ما يفعلون... وتبادرت إلى ذهني كلمات

المزمور ١٢١ التي لكم رتّلتها بتمتمة بين الشفاه ومطلعها:

"رفعتُ عينيّ إلى الجبال ... من حيثُ يأتي عوني
مَعونَتي من عندِ الرّبّ ... صانعِ السّماء والأرض
لا يَدعُ رِجلَكَ تَزِل، ... لا يَنعسُ ولا ينام..
الرَّبُّ يَحفظُكَ ... الرَّبُّ سِترٌ لَكَ
لا تُؤذيكَ الشَّمسُ في النَّهار ... ولا القَمرُ في اللَّيل.
يَحفَظُكَ الرَّبُّ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ... يَحفَظُ الرَّبُّ نَفسَكَ
يَحفَظُ الرَّبُّ ذَهابَكَ وايابَكَ ... مِنَ الآن وإلى الأبَدْ.

وكانت الساعة نحو العاشرة حين وجدنا أنفسنا في سوق الغنم –وكنّا قد أوشكنا أن نصبح نحن الاثنين "مثل غنم للذبح"!

وتوجسنا في الايعاز إلى سيارة أجرة بالوقوف، ومن ثمّ اتكلنا على الله، فكان لنا سائق ارتضى بطيب الخاطر أن يذهب بنا إلى مقربة من الجامع الكبير. ومررنا في أحياء قذرة ذات بيوت مهدّمة تشبه الأطلال... وفيما كنّا نتبادل الحديث قال لنا صاحبنا: لقد مررنا الآن على سلك عبوة ناسفة! وحمدنا الرب على أنّه نجّانا وينجّينا وينجّي العراق من كلّ العبوات والمفخخات... حتى اقتربنا من حيّ اليرموك و"اليابسات" وبلغنا حيّ الثورة على الشارع العام، من حيث كانت رحلتنا قد بدأت واستغرقت تسعة أيّام غير كاملة!... وبدأت الطمأنينة تشق طريقها إلى قلوبنا حين وصلنا شارع الفاروق المؤدي إلى الجامع الكبير... فنزلنا وسرنا باتجاه "الزقاق العريض" والتقينا بجارين مسلمين تفاجآ بنا وحمدا الله على سلامتنا... أما ماري، زوجة الساعور هيثم، فلم تفعل عند باب الكراج الخلفي كما فعلت من قبل "روضة" التي تسمّعت وعرفت صوت بطرس ولم تفتح الباب من فرحها! –ولم يكن بعد قد حضر من يعانق أو يزغرد... وسرعان ما انتشر الخبر، فكان في مقدمة الوافدين لاستقبال "المعترفَين" المطران جرجس والأب عمّانوئيل الذي قاد بنجاح عملية التفاوض العسيرة. وكان مع كل وافد ووافدة عناق طويل لكم امتزج بدموع الفرح... كما كانت قبلات هوائية، عبر الموبايل، من أحبّاء وأصدقاء في الخارج، عزّ عليهم غيابهم عن المشاركة في فرحة العودة –وفي مقدّمتهم الأخت فادية!– وكأننا نحن الاثنين ذاك الابن الذي كان ميتا فعاش، وكان ضالاً فوجد! وكانت ذروة اللقاء في قدّاس المساء الذي دعا إليه ناقوس مار توما، وقد توقف عن دقّاته في الأحد السابق لا غير –وأتمنى ألاّ يتوقف البتة عن دعوة المؤمنين إلى الصلاة، والى ما شاء الله!

يا له من قدّاس في مصلّى العذراء (الأخوية) اكتضّ بمؤمنين هم أصدقاء وأحبّاء جاءوا يشكرون معنا ويحتفلون وإيّانا بقدّاس الشكر، وقد اكتسبت افخارستيا ذلك اليوم كل معانيها، بلسان مؤمنين قرأوا اصبع الله في هذه النجاة، كما كانت الجماعة المسيحيّة، بقلب واحد، قد رفعت صوتها، لدى خروج بطرس ويوحنّا من السجن:

يا سيد أنت صنعت السماء والأرض والبحر وكلّ شيء فيها
أنت قلت على لسان أبينا داؤد عبدك بوحي من الروح القدس
"لماذا ضجّت الأمم والى الباطل سعت الشعوب؟
ملوك الأرض قاموا، وعلى الرب ومسيحه تحالف الرؤساء جميعا" (...)
فانظر الآن يا رب إلى تهديداتهم
وهب لعبيدك أن يعلنوا كلمتك بكلّ جرأة... (أعمال ٤: ٢٤-٢٦، ٢٩)

وكانت كلماتنا تخرج منسابة بعفوية لتعبّر عن فرح عارم هو فرح اللقاء -وكان بوسعه أن يتحول إلى مأتم- هو فرح الخروج من بيت الحبس لبدء حياة جديدة مع مؤمنين أصبحوا "القلّة الباقية" في الموصل، وسيستلهمون من عودتنا شجاعة في صمودهم، كي نبقى نشهد كلّنا للمسيح في هذه المدينة العزيزة التي لا يمكن أن ينطفئ فيها سراج الإنجيل... انّها خبرة رائعة عشناها وعاشها معنا مؤمنون لعلّ ألمهم كان أعظم من ألمنا، وهم الذين ما انفكوا يصلّون بحرارة حتى استجاب الرب لهم... أمّا خبرتنا كمعترفَين كانا على أهبة الاستشهاد، فقد تمثّلت في ذلك السلام الداخلي الذي اجتاحنا بعد أن قبلنا أن نواجه موتنا باستسلام كامل بين يدي الرب... وحينذاك تحوّل الخوف إلى ثقة ورجاء، وكان لسان حالنا أيّوب الذي لم تتزعزع ثقته بالله بالرغم من كلّ ما أصابه: ليكن اسم الرب مباركا!

شكرا لله الذي يقودنا في موكب النصرة كلّ حين
كفقراء لا شيء لنا ونحن نغني نغني كثيرين
يقودك الرب على الدوام
إذن سنسعى عنه سفراء كأنّ الله يعظ بنا
لكي يكون ولنا اكتفاء من كل نعمة ايضا غنى
يقودك الرب على الدوام يشبع في الجدوب نفسَك
ينشّط كل عظامك تصيرُ مثل جنةٍ ريّا

الموصل ٢٠١١/٦/٢١

١٥

ها أنا أجعل كلَّ شيء جديدا

ها أنا أجعل كلّ شيء جديدا

أول ليلة بعد الخروج: الاحد ٢١/١٠/٢٠٠٧

... كانت اوخارستيا العودة مملوءة بالشكر والتسبيح، تلتها في فناء مار توما الفسيح هتافات مؤثرة من رجال ونساء، وشبّان وشابّات، وأطفال وعجّز، سواء بكلام أم بدون كلام، بدموع ساخنة أم بزغاريد صارخة، بقبلات حارة أم بمصافحة شديدة... فعبّر كل واحد وواحدة عن فرح لا يوصف وحبّ لم يكن يعتلن، وتعلّق لم يُفصح عنه فيما مضى! انّها الفرصة المؤاتية للتعبير عن المشاعر الحقيقية والإفصاح عمّا بقي طويلا مدفونا في أعماق القلب... ومثل هذا التعبير هو تعزية للكاهن الذي يعطي وقلّما يأخذ جزاء عطائه! -وهنا أذكر كم كان الأب نعمان يعاني من خشونة بعض الناس أو من لا أباليّتهم... وإبّان مرضه الخطير والقصير أدرك أنّ الشعب انتهز الفرصة للتعبير عن تقييمه وتقديره لمن كان يكيل المسافات في أرجاء الموصل ليتفقدهم ويجيب إلى تساؤلاتهم وحاجاتهم الروحية والزمنية، وعلى مدى سنين طويلة...

بعد ذلك المساء الحافل، وبعد أن أطلقنا المؤمنين بعبارة: "اذهبوا بسلام وأنتم فرحون ومسرورون -وقد اصبح فرحهم وسرورهم مضاعفين- وصلّوا لأجلنا"... انطرحنا على أسرّتنا، غير مصدّقين أعيننا أنّ زمن المحنة قد توقف، وأنّ علينا أن نعود إلى حياتنا الطبيعيّة والتزاماتنا الكهنوتيّة وواجباتنا اليوميّة... وكانت ليلة هانئة تخللتها أحلام وصحوات، لا بل كوابيس و"فزّات" عديدة، صحبتها تساؤلات تراوحت بين الحلم واليقظة: هل لا زلنا أسرى في بيت أبي علي، هلاّ نختطف من جديد؟! هل نحن حقا أحرار لنواصل إعلان كلمة الله بجرأة؟

وفي إحدى الصحوات، سرحت بي الذاكرة إلى الشهر الأخير قبيل الرسامة الكهنوتية، حين كنّا نحن السبعة (وأرقامنا تدل علينا: يعقوب شير/٧، يوسف بري/٢٠، حنّا زورا/ ٤٣، (اسحق) فرنسيس جحّولا/ ٣٣، جرجس القس موسى/ ٣٨، نعمان أوريدة/ ٤٨، بيّوس عقّاص/ ٥٧؛ ثلاثة كلدان وأربعة سريان) نستعد لطبع بطاقات الدعوة والصور التذكارية التي شئناها تكون مشتركة، ومن ثمّ منفردة... وكان عليّ -بحكم خبرة صغيرة مع المطابع كانت في بداياتها- أن أحمل المسودّات إلى مطبعة الاتحاد وأقوم بالمساومة على أسعار البطاقات وكلفة الطباعة... فكان لي من الأسعار أوطأها!

ولكنّ الطرفة كانت في قسمة التكاليف على سبعة حين تحايلت مع يوسف به ري كي نلعب "مراقبنا" يعقوب ونحمله على إجراء عملية القسمة، وحتى أجزاء الفلس!! ولكن كان لنا أيضا "كفخة" على الرأس مع لقب "شياطين" —بالتاء بدل الطاء!— من الأب ريشار الذي لم تخفَ عليه اللعبة!!

وغصت في عمق الذكريات، فوجدتني مع زملائي الثلاثة رُكّعًا عند درج مذبح كنيسة الطاهرة ووجوهنا مشعّة بالفرح الممتزج بالرهبة، ونحن نسمع المطران بنّي، بصوته الخشن، وبالسريانية، يمسك بيمين كل منّا قائلا له: "ܪܘܚܐ ܩܕܝܫܐ ܩܪܐ ܠܟ. ܠܡܗܘܐ ܩܫܝܫܐ ܒܥܕܬܐ ܩܕܝܫܬܐ: الرّوح القُدُس يَدعوكَ لِتكون قسّيسًا في بيعة الله". ونعلم ما هي مهمة القسيس بصفته "الشيخ"، وليس على مستوى العمر، وإنما على مستوى الانتداب، إذ انّ دعوة الله تتجسد من خلال صفات اكتُشِفَت ومواهب أُنمِيَت وقابليات صُقِلَت وتوجُّهات أُتُّخِذَت من أجل الخير العام... كما من خلال فجوات سُدّت ونقائص عولِجَت وغرائز أُسكِتَت ورذائل شُنَّت عليها الحرب... وكل ذلك من أجل خدمة الكنيسة... إنها دعوة سامية تتّضح ملامحها في حبّ يعاش بكليّته في اتجاهيه، نحو الله والقريب، وفي إيمان مستنير يتجلّى في الواقع اليومي، عبر نظرة إلى الله يستشفّ منها اللامنظور –كما بدا لموسى وكأنّه يعاين اللامنظور (عبرانيين ١١ :٢٧)– كما عبرَ رغبة ملحّة في عيش الإنجيل والشهادة له، ووضع كل الإمكانات والطاقات في خدمته، كما في غيرة رسوليّة متقدة تسعى إلى استخدام كل الوسائل لنشر إنجيل الخلاص، وحسّ كنسي مرهف يبحث عن المواقع التي يتجلّى فيها الروح لبنيان الكنيسة... أليس بهذه الكلمات يُرَنِّم الكاهن الجديد وهو يرتدي حلّته الكهنوتية بكلّ أجزائها: "ܠܬܫܒܘܚܬܐ ܘܠܐܝܩܪܐ ܘܗܕܪܐ ܘܪܘܪܒܘܬܐ. ܠܬܠܝܬܝܘܬܐ ܩܕܝܫܬܐ ܫܘܝܬ ܒܐܘܣܝܐ. ܠܫܝܢܐ ܘܒܢܝܢܐ ܕܥܕܬܐ ܩܕܝܫܬܐ ܕܐܠܗܐ: المجدُ والبهاءُ والعزّةُ والتعظيم للثالوث الأقدس المتَّحِد بالجوهر، من أجل سلامِ كنيسة الله المقدسة وبنيانها".

ومثلت أمامي كنيسة الطاهرة مكتضة بآباء وكهنة ومؤمنين وأصدقاء، ومن بينهم صديق العائلة أحمد الجليلي، سليل تلك العائلة الجليليّة التي حكمت الموصل لفترة –ولا يزال يشار إلى قبرها في كنيسة شمعون الصفا العريقة التي ضاعت معظم معالمها! وتذكرت خروجنا "بالتشمشت"، حاملين الإنجيل، مع الزغاريد والرش بماء الورد، إلى فناء الكنيسة "المربع" حيث تزاحم المؤمنون ليتلقّوا منّا، رُكّعا، البركة الأولى! وهكذا الحال، على مدى النهار في المعهد، لم نتوقف عن منح البركة! وسيبقى خالدا في الذهن مشهد الأب

المدير وسائر الأباء الأساتذة وهم يركعون أمامنا، كلّ بدوره، ليأخذوا بركتنا الأولى! كما ستبقى خالدة ذكرى تلك المقولة التي طالما كررها أساتذتنا: في يوم الرسامة، سيفسح ملاكك الحارس المجال لك للدخول قبله، وهو يسير وراءك!

وكان انتظار، بالشوق والغبطة، للقداس الأول الذي احتفلتُ به في كنيسة مار توما يرافقني فيه القس ميخائيل صائغ، ويقوم بالخدمة والدي الشمّاس -ولا زلت مدينا للأب خليل قوجحصارلي الذي غطّى بالتصوير الرسامة والقدّاس الأول. ووجدتني متّشحا حلّة جُلِبَت لي من لبنان بهمة المطران قندلا، ووافقا عند باب الهيكل، واعظا انطلاقًا من شعاري الكهنوتي "وتكونون لي شهودا حتى أقاصي الأرض". وكانت مائدة إفطار في فناء المدرسة التوماويّة ترأسها المطران بنّي والأب أومي وعدد من الكهنة والشمامسة والأقربين، مدّها ذويّ القادمون من بغداد -ومن الطريف جدًا أنّ تكون الصورة التي خلّدت هذا الإفطار دليلاً لي لاعادة الأقواس والرواق وواجهة الغرف السفلى في المدرسة التوماوية التي كانت قد أُزيلَت...

فيما كنت أسطّر هذه الذكريات، انتقل بي الفكر إلى اليوبيل الكهنوتي الفضّي الذي احتفلنا به نحن السريان الأربعة، عام ١٩٨٧، في كنيسة مار توما وفي دير مار بهنام... إلا اني رحت أتطلع بأمل إلى اليوبيل الكهنوتي الذهبي الذي لم تعد تفصلنا عنه سوى سنة واحدة، فنحتفل به نحن الثلاثة الباقين[١١]، فيما سبقنا اربعة إلى بيت الآب السماوي، كنّا نتمنّى أن يحتفلوا معنا في ١٠ حزيران ٢٠١٢، وفي مقدمتهم **الأب نعمان أوريدة (+١٩٩٩/١٢/١) والمطران يعقوب شير (+٢٠٠٥/١/٨) والأب يوسف به ري (+٢٠٠٣/١٢/٦) والخوري فرنسيس جحولا (+ ٢٠١٢/١/١٧)**. وفيما سيأتي كثيرا ذكر الأب نعمان، يطيب لي أن أستذكر صداقتي مع الأب به ري الذي وقفت إلى جانبه في محنته "السياسية" في السليمانية، وتفهّمت تعاطفه الكبير مع القضية الكرديّة وتوجهاتها في الحكم الذّاتي -وقد كانت لنا معه وبقيادته، زيارة للملاّ مصطفى البرزاني في مقرّه في حاج عمران في اوائل السبعينات، ومقابلة أخرى مع محمود عثمان في مقرّه في ناوبردان!- كما كانت لي زيارات عديدة له في باريس... ولن أنسَ زيارته

(١١) شاءت الظروف أن يكون أربعة منّا قد رقدوا، آخرهم الخوري فرنسيس جحولا، رئيس دير مار بهنام، وقد كُنّا نُمنّي النفس أن نحتفل وإياه باليوبيل الذهبي في دير مار بهنام بالذات يوم ٨ حزيران ٢٠١٢، ولكن المنية وافته على حين غرة. ومنذئذ كان قرارنا -أنا والمطران جرجس، في غياب المطران حنا زورا (كندا)- ان نحتفل وإياه، من علياء سمائه، باليوبيل في دير مار بهنام، ونكون بعددنا الكامل (٧): ٣ أحياء و٤ ولدوا للحياة في مجد الله.

الطويلة والأخيرة للعراق وكأنّها كانت الوداعيّة... وكنت -مع المطران جرجس والمطران فرج- في استقبال جثمانه، في ك١ ٢٠٠٣، لدى وصوله، في منتصف الليل، إلى السليمانية حيث جرى له مأتم مهيب وبحضور عدد من الشخصيّات الكردية المعروفة، وقد خُلِّد اسمه على حديقة عامة في السليمانية...

وعلى ذكر اليوبيل الكهنوتي الذهبي الّذي بتّ أترقبه بكل جوانحي، أجدني مدفوعًا إلى استعراض شامل لما عرفته من خبرات روحية ورسولية خلال سني الكهنوت، وقد عشتها بمعية إخوة في جماعة كهنة يسوع الملك الذين سيتزامن يوبيلهم الكهنوتي الذهبي مع اليوبيل الذهبي لنشأة الحياة المشتركة، تلك التجربة الفريدة في كنيسة العراق!

ففي أعقاب الرسامة، كانت قداديس قد توالت في كنائس وأديرة الموصل على مدى أسبوع. وقمنا نحن السريان الأربعة بزيارات شكر مشتركة إلى الأساقفة والآباء والأخوات الراهبات، وكانت لنا زيارة خاصّة إلى دير مارهنام ورئيسه **الخوري أفرام عبدال** (+١٩٦٦) الّذي ما أن لمس لدينا الرغبة في الحياة المشتركة، وإذا به تمنّى علينا العيش في الدير والمباشرة بمشروع فيه...

كان يترتب عليّ في تلك العطلة الصيفية، بعد الرسامة، أن أزور، في عينكاوة، أخي بهنام الذي تعذّر عليه حضور الرسامة. فكان استقبال حافل بعدد من السيارات عند جسر الكلك، بلغته وأنا في مقعد واحد من سيارة أجرة، ولم تخفَ عليّ آنذاك دهشة المستقبلين! وخلال ثلاثة أيام أقمت قداديس كانت للكثير من المشاركين من أبناء عينكاوة المرّة الأولى يحضرون فيها قدّاسا سريانيّا! ومن ثمّ غادرنا سوية بالقطار من أربيل إلى بغداد حيث نزلنا في محطة كركوك ذات السكة المترية!

وفي بغداد وخلال العطلة الصيفية، قضيت قرابة ثلاثة أشهر بين الأهل والأقرباء، كنت خلالها أنزل كلّ يوم من دارنا في المشتل إلى كنيسة سيدة النجاة -وكانت آنذاك قاعةً قبل تشييد الكنيسة الشهيرة في شكل سفينة- حيث أقيم القداس لوحدي ويخدمني اسطيفان الساعور الذي لم يكن يصدّق متى ينتهي هذا القدّاس الإضافي الطويل (!) ليغلق الأبواب ويذهب إلى بيته!

ما زلت أذكر اللقاء المتوتر دوما على مائدة **المطران يوحنّا بأكوس** (+١٩٨٣) الذي لم ينسَ أبدًا صفة بيلاطس التي نعته بها والدي في قضية المطران قندلا! -وكان قد قدِمَ إلى الموصل للتحقيق فيها وهو يعلم انّه بريء من التّهم الموجهة اليه! وإذا نسيت الكثير من مواقفه الساخرة، إلا أني لن أنسى تهكمه التعيس- وهو في المطرانية القديمة

بعقد النصارى وبمحضر من الكهنة- بقانون جماعة يسوع الملك، بنسخته الفرنسية، حين كان يقرأ منه فقرات ويعلّق عليها مستهزئا ساخراً!! وكان يترتب عليّ أن أتحمّل استهزاءه وسخريته، ونحن في بدء الطريق، ولم نباشر بعد بالحياة المشتركة المقررة ليوم ١٨ أيلول من تلك السنة! وقد ازددت يقينا بكلام يسوع وما يحويه من معان وأبعاد: لا يكرم نبيّ في وطنه! مثل هذا الاستهزاء لقيناه أيضا، وعلى مدى حياتنا المشتركة، لدى عدد من الأساقفة والكهنة، ولكنّه لم يقوَ على أن يثنينا عن عزمنا، ليقيننا أنّها الطريقة الفضلى للحفاظ على جذوة الكهنوت متّقدة فينا، جذوة سرعان ما تخمد وتنطفئ إذا لم تُغذّ!. وبصدد الكهنة، لا أنسى موقف المقاطعة الذي اتّخذه تجاهنا استاذنا الأب ألبير أبونا، مع كونه عضوًا في رابطة "أصدقاء يسوع الملك"! ولكنّه سرعان ما تغيّر في أعقاب رحلة له إلى أوربا، فعاد إلينا حاملا هدية المصالحة!

وفي خلال تلك العطلة في بغداد، وأنا كاهن جديد، كنت، إلى جانب انكبابي على ترجمة "لوقا إنجيلي المخلّص" (ظهر عام ١٩٦٤ في سلسلة "كلام الله")، أحاول التعرف عن كثب على العديد من الكهنة السريان والكلدان. ومنذئذ نسجت بيننا علاقات طيّبة ولاسيّما مع القدامى من معهد مار يوحنّا الحبيب من مثل الأب **(الخوري) يوسف أنطون** (+١٩٧٨) و**(الخوري) يعقوب حبّي** (+٢٠٠٠) **وأدور بيكوما** (+٢٠١٢) **وفيليب هيلايي** (+٢٠٠٢) **وجبرائيل ماري** (+٢٠٠٤) **والاب (المطران) اسطيفان كجو** (+١٩٨٧)... وتوثقت علاقتي مع الاباء اليسوعيين الأمريكان الذين كانوا يديرون كلية بغداد وجامعة الحكمة، ومع الاباء المخلصيين والاباء الكرمليين وبالأخص مع الأب **روبير** (+٢٠٠٧) والأب **ريمون** (+٢٠٠٦) اللذين كانا قد باشرا بتأسيس السنتر (مركز القديس يوسف) -وقد حضرت حفل افتتاح قاعة السينما فيه (وهي القاعة التي أصبحت من ثمّ كنيسة الكاتدرائية)، وساحة لعب التّنس والسلّة. وهو المركز الذي ضمّ فيما بعد معظم الأخويات والحركات الرسولية، وفي مقدمتها النادي الثقافي المسيحي (وكان قد بدأ نشاطه أولا في كنيسة عذراء فاطمة) وأخوية الآباء اليسوعيين والشباب الجامعي والأخوية المريمية (ليجيو ماريّه) وأخيرا الأخوية الطلابية (الشبيبة الطالبة المسيحيّة)... وفي حدائق السنتر الفسيحة، لكم أشتركت في النشاطات والفعاليات التي كانت في بدء عهدها، وكنت أراقب عن كثب ما يجري لأستلهم ما يناسب الموصل! وكانت الأحلام والمشاريع تزدحم في ذهني آنذاك، ووجدتني كأنّي مدعو إلى تغيير وجه الأرض! أو أقلّه وجه الكنيسة!!

إنها ذكريات عزيزة، أكتبها في ضوء نجاتي من الخطف، بعد ان انتفت حاجتي إلى كوابيس لأستذكر المحطات الكبرى من حياة سبق لي أن سلّمت "أمانتها" للرب، وسيكون بوسعي أن اسلّمها مجددا يوم يأتي "يومي"! وهنا لا يسعني ألاّ أستذكر يوم دفنة الأب نعمان[١٢] المهيبة في مار توما، في قبر الكهنة الخاص في الجناح الأيسر -ولطالما أشار إلى موضعه، عموديا، تحت غرفته!- حين قلت لصديقنا بكّو الّذي أصرّ أن يودّعه مثواه الأخير: بكّو، أمّا أنا، ففي الجناح المقابل تحت أقدام الجوقة! وتفاجأ الرجل بالأمر، وبعفويّة لا نظير لها ردّ: أبونا، خذها من هذا الشارب!! فذهبت مثلا!

لقد كنت ولا شكّ على قاب قوس من الموت! وما دمت قد عُدت إلى أرض الأحياء، سأبقى أعتبر ما أعطيت من سنين بمثابة منّة من لدن الرب أحياها في الشكر، مواصلا السعي، لعلّي أدرك المسيح الذي سبق أنْ أدركني (فيلبي ٣: ١٢). لذا أواصل استذكاراتي على مدى الخمسين عاما، وهي استذكارات لا أريدها "سيرة ذاتية"، وانّما خواطر في حياة نسجت سنوها وشهورها وأيّامها من أضواء وظلال، فأحاول الكشف عن محطات ينبغي التوقف عندها، كان لي فيها شركاء! واتخيّلهم الآن، وهم يقرأوني، يبتسمون، وقد يضيفون ويصحّحون، وفي مقدمتهم أولئك الذين جمعتني وإيّاهم أحداث هامّة، اختبرنا سويّة حلوها ومرّها، حتى وان قرأناها اليوم ناقصة أحيانا ومشوّهة أحيانا أخرى، وبقراءات عديدة، ولكنّها في كلّ الأحوال صادقة! ومع ذلك، سأحذر من أن أدع بعضهم يطلق ابتسامة صفراء ساخرة!

أليس التاريخ الأفضل هو التاريخ المعاش؟ أليس الأفضل أن نكتب التاريخ بعد أن نكون قد عشناه؟! أوَ ليس هكذا انبرى مؤلّفو الكتاب المقدّس في تدوين أحداث مضت عليها قرون واستنارت بخبرة مؤسِّسة أضفيت عليها خبرات القرون اللاحقة، فجاءت القصص والروايات شاهدة على شعب أعاد قراءة تاريخه في ضوء إيمانه بإله محرر ومنقذ قبل أن يكتشفه خالقا... أوَ ليس هكذا أيضا دوّن كتّاب العهد الجديد، من

---

(١٢) يعذرني قرائي إن خصصت الأب نعمان بنبذة موجزة عن حياته: ولد في حلب في ١٩٣٦/٤/١٣ وأسّسنا سوية جماعة كهنة يسوع الملك ومجلة الفكر المسيحي -وقد تسلّم إدارتها على مدى ٢٤ عامًا (١٩٧١-١٩٩٤). تعين عام ١٩٦٥ مسؤولا لكنيسة مار توما التي أشرف على صيانتها وتجديدها. كان مرشدا في الندوة الدينية للحامعيين ولإحدى فرق الشبيبة الطالبة المسيحية. تعين معاونًا ثم مرشدا للجمعية الخيرية. شارك في التعليم في مركز الدراسات الكتابية، ولسنة في معهد الآباء الكمبونيين في السودان. أطلق مشروع العطاء لمساندة المعوزين... رقد في ١٩٩٩/١٢/١ إثر مرض عضال لم يمهله طويلاً.

أناجيل وأعمال رسل ورسائل ورؤيا، خبراتهم ممتزجة بخبرات مؤمنين انطلقت كلّها من حدث القيامة المؤسّس للإيمان، فرووا ما رووا، ليس بهدف التوثيق، بل بهدف التعليم والوعظ؛ ولذا جاءت رواياتهم وكتاباتهم -ولم يرووا إلا ما فيه معنى ومغزى- ملأى بالحياة لتشهد للقائم من بين الأموات وعلى مرّ الأجيال... لقد سبق أن كتبها لوقا في مقدمته الرائعة، على غرار كتّاب زمانه الذين كانوا يصدّرون مؤلفهم بمقدمة توضح الهدف: "... رأيت أنا أيضا، وقد تقصيّتها جميعا من أصولها، أن أكتبها لك مرتّبة، يا تاوفيلس المكرّم، لتتيقّن صحة ما تلقّيت من تعليم" (لوقا ١: ٣-٤)؛ كما كتبها يوحنّا الانجيلي في الخاتمة الاولى من إنجيله: "... وانّما كتبت هذه لتؤمنوا بأنّ يسوع هو المسيح ابن الله، ولتكون لكم إذا آمنتم الحياة باسمه" (يوحنا ٢٠: ٣١).

وليسمح لي أنا أيضا أن أقولها صريحة: لما كان كثير من الأصدقاء قد عبّروا عن رغبتهم في أن أدلي بخبرة حياة قاربت الخمسين في مشوار الكهنوت -وكان الخطف في القمة منها- رأيت، وأنا على عتبة اليوبيل الذهبي، أن أكتبها "مرتبة"، وعبر محطّات كبرى، وبأسلوب أدبي لا يخلو من الدعابة، أقاسمهم إياها مما يفيض فيهم الشكر لله (٢ قورنتس ٩: ١٢).

الموصل ٢٠١١/٦/٢٣

١٦

١٨ أيلول ١٩٦٢:
بدء الحياة المشتركة

١٨ أيلول ١٩٦٢: بدء الحياة المشتركة

في ١٨ أيلول ٢٠٠٢ كنا قد احتفلنا في الموصل بالذكرى الأربعين على نشأة الحياة المشتركة في جماعة كهنة يسوع الملك، وأصدرنا فولدرا يحمل هذه العبارة "٤٠ عاما من الحضور والرسالة في كنيسة العراق: ١٩٦٢- ٢٠٠٢". وبعد صلاة خاشعة في مار توما رئسها رئيسا أساقفة الموصل على الكلدان والسريان، المطران جرجس والمطران فرج، كان عليّ أن أتوسطهما في قص الكعكة بصفتي -على حدّ تعبير المثلث الرحمة المطران فرج- رئيس رؤساء (ريش ريشوني) جماعة يسوع الملك! وكان لا بدّ لنا في هذه المناسبة أن نعود إلى البدايات، إلى اربعينيّات القرن الماضي حين كان الأب يوسف أومي قد وضع قانونا لكهنة منفردين يسعون إلى تنمية روابط الألفة والصداقة في ما بينهم من أجل رسالة كهنوتية مثمرة... واستمرّت هذه الرابطة أكثر من خمس عشرة سنة إلى أن أوقفت انطلاقتها ثورة ١٩٥٨...

لا أغالي إذا قلت بأننا، بعد ٤ سنوات فقط من توقف رابطة "أصدقاء يسوع الملك" الكهنوتية، أصبحنا وارثي روح الألفة والتضامن والأخوة الذي زرعه الأب أومي فيهم، ولكم تمنّى أن يتواصل... لذا كانت فرحته عارمة حين أطلعناه، ونحن في سنتنا الأخيرة من الدراسة، على عزمنا نحن الأربعة الأوائل (جرجس، نعمان، جاك، بيّوس) على خوض مغامرة العيش المشترك تحت سقف واحد، وبروح التعهد المتبادل، بحيث يشعر كلّ منّا أنّه مسؤول عن أخيه في مسيرته الروحيّة والرسوليّة، من أجل أمانة أكبر لكهنوتنا في كلّ أبعاده ومتطلباته. وكانت لمساعيه أذن صاغية لدى راعيي أبرشيتي الموصل الكلدانية والسريانيّة آنذاك، المطران عمّانوئيل ددي والمطران عمّانوئيل بتّي اللذين على بركتهما باشرنا الحياة المشتركة، وقد كانت وما زالت مبادرة فريدة في حياة كنيسة العراق.

"حين وضع الأربعة الأوائل أسس العيش المشترك عبر الصلاة والمائدة المشتركة والصندوق المشترك... كان جلّ همّهم أن يسعوا إلى عيش روحانية كهنوتية تستمد قوّتها من روح الإنجيل، في الاستجابة إلى متطلبات العمل الرسولي والراعوي". بهذه العبارات حدّد الفولدر، بالمناسبة، توجُّه "كهنة يسوع الملك" الّذين، بعد بحث طويل عن صيغ الشركة الكهنوتية في جمعيّات أو اتّحادات، تبنّوا قانون الأب

أومي الذي كان أساقفة العراق مطّلعين عليه، ولا سيّما لأنّه كان يحمل في أحد بنوده إمكانية قيام "حياة مشتركة" حيث يتاح ذلك؛ على أمل أنّهم سيطعمونه بخبرتهم ويضفون عليه توجهاتهم الروحيّة والرسوليّة، ولا سيّما تلك التي استمدّوها من القربى التي كانت تشدّهم إلى روحانية شارل دي فوكو في الفقر والتجرّد والشهادة...

سبق لي أن أشرت إلى أنّنا اضطررنا إلى حطّ الرّحال في الطابق العلوي من كنيسة مار توما، ولم نكن آنذاك نطمح إلى خدمة خورنة، سيّما ولم تكن الموصل بحاجة إلى مزيد من الكهنة -وتلك كانت صدفة سعيدة جعلتنا نوجه اهتمامنا إلى نشاطات خارجة عن نطاق الخورنة، كزيارة المرضى في المستشفيات وزيارة السجناء والاهتمام بالشبيبة والعمل مع الأخويات الرسوليّة... وكانت الليجيو ماريّه قد انطلقت عام ١٩٥٧من معهد ماريوحنّا الحبيب، وسرعان ما امتدت إلى خورنات الموصل ومن ثمّ إلى بغداد وسائر المدن والقرى... وشكرنا الرب من ثمّ على عنايته التي جاءت بنا إلى مار توما، إذ لولا وجودنا فيها لما استطعنا أن نقوم بما قمنا به من نشاطات ثقافيّة ورسوليّة، ولا سيّما في أعقاب تأسيس الشبيبة الطالبة المسيحيّة (J.E.C.) عام ١٩٦٤[١٣] وانطلاق "الندوة الدينيّة للجامعيين"، والتوجّه في خدمة الثقافة المسيحيّة عبر" سلسلة الفكر المسيحي" في غروب عام ١٩٦٣. وفي عام ١٩٦٤- ١٩٦٥، كان على الأب جرجس أن يقبل انتدابه للعمل في سكرتاريّة البطريركيّة السريانية، وعلى مدى سنتين، ولا زلنا مدينين للأب (المطران) أنطوان بيلوني بتصميم شعار كهنة يسوع الملك، "ليأت ملكوتك" الّذي نردده في صلاتنا: ليأت ملكوتك كاملا فينا لكي يأتي بواسطتنا في النفوس.

إلا أنّ ما يميّز التوجه الروحي لدى هذه الجماعة الفتيّة التي كانت تؤكّد دوما على الطابع اللاطائفي، هو لقاؤنا الأسبوعي الذي يدور حول التأمل في نص من الإنجيل، نحلّله ونحوب مليّا في تشعباته، بحثا عن المحاور الكبرى فيه، ونسلّط أضواءه من ثمّ على حياتنا... إلاّ أنّ هناك أسلوبا آخر يحتل مكانة القلب في اجتماعاتنا، ألا وهي "مراجعة الحياة" التي تعتمد أسلوب "انظر، أحكم، اعمل" -وهي بمثابة تأمل معكوس في الإنجيل، من الاسفل إلى الأعلى، ينطلق من واقع الحياة صعودا إلى نور الإنجيل، انطلاقا من حدث هام، سلبي أو ايجابي، يكون قد عاشه الأخوة جميعا أو بعضهم أو أحدهم، في انسجام أو تعارض مع روح الإنجيل... وهنا يبدأ

(١٣) راجع ص ٨٢.

التحليل الدقيق للحدث من كل جوانبه، بحثا عن أسبابه العميقة وعن الدوافع الدفينة التي تختفي وراء المواقف أو التصرّفات التي رافقت الحدث... وحينذاك يصبح من اليسير أن نقرأ الحدث على ضوء الإنجيل لاكتشاف مدى تجاوبنا أو عدم تجاوبنا مع متطلباته... وهكذا حين تكتمل الرؤيا الإنجيلية، وبعبارة أخرى حين تلتقي نظرتنا مع نظرة الله، يكون بوسعنا أن نتّخذ الموقف العملي الذي يفرضه علينا الحدث.

لقد كانت هذه المراجعة –ويمكنها أن تتم على صعيد فردي أو بين أخوين أو في نطاق الجماعة– مصدر ثراء روحي متبادل، وإن لم نكن نوفّق دوما في التجاوب مع ما تتطلبه من صراحة وشفافيّة واستعداد للتغيير، والقبول بأن يكشف لنا إخوتنا ما فينا من تعثّر أو تقاعس أو فتور، وعلى أكثر من صعيد...

وكان مساء يوم ١٨ أيلول موعدا لبدء الحياة المشتركة، بعد أن جهّزنا معهدنا الحبيب بالأسِرّة والطاولات والكراسي... فكان العشاء الأول مع الأب يوسف أومي، قُطع خلاله التيّار الكهربائي، وبشكل استثنائي آنذاك، تلاه سجود صامت بقينا أمناء له على مدى سنوات عديدة. وكان لنا في كلّ يوم قدّاس يقيمه كلّ بمفرده حين لم يكن القداس المشترك مسموحا به بعد! وكنا بعدُ على عتبة افتتاح المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١١ تشرين الاول ١٩٦٢)، في عهد البابا يوحنّا الثالث والعشرين (١٩٥٩–١٩٦٣). وكنّا نوزّع النهار بين المطالعة والمتابعة الشخصيّة، وبين التدريس في المعهد لمادتي الفرنسية والعربية، إلى جانب محاضرات لمادة الدين في المدارس الطائفيّة الرسميّة، فضلا عن بعض الخدمات التي كانت تطلب منّا، من رياضات وسماع اعترافات وقداديس، ليس في كنائس السريان حسب، بل في الكنائس الكلدانيّة أيضا، ولاسيّما إبان غياب المطران بنّي مع الأبوين حنّا رحماني والياس صقّال في روما لحضور جلسات الدورة الأولى للمجمع...

وما أحلاها مذكّرات طلب منّي في حينه أن أسجّلها في نطاق الاخوّة، يوما فيوما، وبالفرنسيّة، ريثما يعقبني نعمان ومن ثمّ جرجس! إنها تعكس مجريات احتفالات ونشاطات اشتركنا بها، وتصدي لزيارات قمنا بها إلى أساقفة وكهنة... ولزيارات ردّت لنا... وتبقى محفورة في الذاكرة، الزيارات المتبادلة مع جارنا الربّان (البطريرك) زكّا عيواص –وكان قد ملأ الفراغ الذي **تركه المطران غريغوريّوس بولس بهنام** (+**١٩٦٩**) بانتقاله إلى بغداد– وهو الذي عيّنته الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة مراقبا في المجمع المسكوني في جلسته الأولى. ولطالما حدّثنا في حينه عن انطباعاته الطيّبة عن البابا الشيخ وعن كرادلة بارزين من أمثال الكردينال بيا وفيليشي وفيلليبراند... وتعكس المذكّرات اليومية

أخبار مراجعة الحياة الأسبوعيّة والرياضات الشهريّة التي كنّا نمضيها في أحد الأديرة المجاورة، من مار كوركيس إلى مار ميخائيل، ومن مار بهنام إلى دير السيدة... وعلى ذكر مار كوركيس، كانت لنا لقاءات مثمرة مع **الأب بولس نويّا اليسوعي (+١٩٨٠)** الذي كانت قد أوكلت اليه مهمة تجديد الرهبنة المرمزديّة الكلدانيّة، لما كان يتصف به من روحانية عميقة وحكمة واسعة... وكنّا نستطيب الرياضة في تلك المناخات.

وكانت السنة الأولى بمثابة اختبار منحها لنا المطران بنّي الذي لم يكن على يقين من أنّنا سنستمرّ متحدين ومتماسكين! وقد حضر يوما لقاءنا الأسبوعي وسجّل في دفتر "اليوميّات" -بعد أن قرأه باهتمام بالغ- كلمة قال فيها انّه كوّن فكرة واضحة عن مسار الحياة المشتركة بما "تحمله من فرح روحي وعضد متبادل، وما يرافقها في الوقت ذاته من صعوبات"، معربا عن أنّ تعزيته تكمن في "الخير العميم الذي حملته وتحمله هذه الحياة من عمق روحي وتدرب على الرسالة، للأصدقاء أنفسهم، ولسائر الكهنة والمؤمنين، عبر نموذج للحياة الكهنوتية في الالتزام والتجرّد". وختم بأنّ هذه السنة التجريبية تسمح له أن يعلّق على المشروع أجمل الآمال، ويرى فيه عمل الله!

وعلى ذكر المطران بنّي، يحضرني دوما ردّ فعله العفوي لدى أول مائدة فطور مددناها له بعد قدّاسه الحبري في مار توما، بمناسبة عيد الدنح -وهو تقليد عريق يقيم فيه القداس الحبري راعي الابرشيّة، كما في عيد السعانين... فحين شاهد التنوع الخاص في المأكولات الذي لم نكن معتادين عليه، قال: "هذا هو الفقر الذي تتمسّكون به؟!" ونعلم جيّدا أنّه لم يقصد جرحنا أو توجيه اللّوم، بقدر ما هي طريقته في الحديث... وسكتنا آنذاك، ولكننا اعددنا له فطورا اعتياديّا في المناسبة التالية، ولم نسمع منه اي تعليق!

لقد كانت علاقتنا به، في كرّ وفر، ونحن على يقين من استقامته ونزاهته وحسن نواياه... ولكنّ الضغوط التي كان يتلقّاها "بسببنا"، اضطرته أحيانا إلى اتخاذ موقف الصرامة وممارسة الضغط باسم المسؤوليّة التي كان له بها شعور عميق حتى الوسواس! وسيظهر ذلك بنوع خاص في تعامله معنا في "الفكر المسيحي" التي سأتناولها في باب خاص.

وفي أعقاب سنة ونصف، وبالتحديد في ٦٤/١/٢٣، تقدّم الأربعة الأوائل ليبرزوا وعدهم أمام الرب، في احتفال متواضع خاشع حضره اكليروس الموصل مع الأخوات الراهبات من الرهبانيات الثلاث، وفي المقدّمة السادة الأساقفة. وسرعان ما تبنت "أخوّة

الحياة المشتركة" نمطًا آخر من العيش في نطاق الجماعة بانفتاحها، باتجاه كهنة كانت تحدوهم، وهم في مراكز عملهم الخوري، الرغبة في الانضمام إلى روح الأخوّة والتضامن والتعاضد الأخوي، بهدف الحفاظ على الروح الكهنوتيّة والأمانة على متطلّبات الرسالة الكهنوتيّة... وهكذا انضمّ إلى جماعة كهنة يسوع الملك عدد من الكهنة الكلدان والسريان، منذ أواخر عام ١٩٦٤... وكانت صلاتنا الخاصّة تذكّرنا كلّ مساء بروابطنا الأخويّة حين نتوجّه إلى يسوع الملك قائلين: ... ايها الكاهن الازلي، اقبل منّا تقدمة ذاتنا وخصّنا بخدمتك...

إنها الفرصة لأستذكر إخوة سرنا وإيّاهم، يدا بيد، على دروب الحياة الروحيّة والرسوليّة؛ وكان في مقدّمتهم الأب (المطران) **ميخائيل جميل** الذي انضمّ فور رسامته (١٩٦٤/٦/٧) إلى أخوّة الحياة المشتركة[١٤]، وسرعان ما عيّنه المطران بتّي كاهن رعيّة في كنيسة الطاهرة، وبرز وعده في ١٩٦٥/٩/٣٠[١٥]. أما أول المنتمين إلى الجماعة من دون حياة مشتركة، فهو الأب (المونسنيور) **بطرس يوسف** (رسامته في ٦٠/١٢/٢١) الذي أبرز وعده لوحده في ٦٥/١٠/٣٠؛ وسرعان ما لحق به الأب (المطران الشهيد) **فرج رحّو**[١٦]-وسيرد ذكره كثيرا أبّان مسيرتنا الطويلة.

---

(١٤) شغل الأب ميخائيل جميل محل الأب جاك اسحق الذي سافر للدراسة في روما حيث تخصص بالليتورجيا ونال شهادة الدكتوراه على رسالته في "رتبة سر التوبة"، وعاد من روما إلى ابرشية الموصل... وبعد انتقاله إلى بغداد راعيا لخورنة مريم العذراء، انتخب ورسم مطرانا في ١٩٩٧/٩/٢٦ على ابرشية اربيل، ومن ثم معاونا بطريركيا للشؤون الثقافية... وهو حاليا عميد كلية بابل ورئيس تحرير مجلة "نجم المشرق".

(١٥) انسلخ الأب ميخائيل من الحياة المشتركة عام ١٩٧٧ وغادر إلى لبنان ليعمل في أمانة سر البطريركية السريانية... وفي ١٩٨٦/١١/٩ رقي إلى الأسقفية معاونا بطريركيا، إلى أن استقر في روما معتمدًا بطريركيا في الوكالة السريانية وزائرا رسوليا للسريان في اوربا.

وكان الكتاب قيد الطبع حين فوجئنا بوفاة المطران جميل على حين غرة في روما ٢٠١٢/١٢/٣. وجرى له تشييع مهيب في مسقط رأسه قره قوش في العاشر منه.

(١٦) ولد في الموصل عام ١٩٤٢. درس في المعهد الكهنوتي البطريركي الكلداني ورسم كاهنا في ١٩٦٥/١/١٠. مارس الخدمة الكهنوتية في خورنات الموصل الكلدانية، بدءًا من مار اشعيا وإلى أم المعونة، وانتهاءً بخورنة مار بولس التي أشرف على بناء كنيستها وأطلق فيها نشاطات راعوية وشبابية واجتماعية... ولعل أبرزها إرشاد جماعة المحبّة والفرح. بعد رسامته بقليل انضم إلى جماعة كهنة يسوع الملك وأبرز وعده في ١٩٦٧/٢/٢٣. أرشد عدداً من فرق الشبيبة الطالبة المسيحية ولاسيما فرق الفرع الثانوي. انتخب مطرانا على أبرشية الموصل واقتبل الرسامة الأسقفية في ٢٠٠١/٢/١٦. مارس خلال

وتلاه الأب (المونسنيور) **لويس الديراني** (رسامة ١٩٦٤/٦/٧) والذي أبرز وعده في بيروت في ١٩٦٨/٣/١٩ -وقد انتدبت آنذاك من الجماعة لتقبل وعده، بحضور راعي الأبرشيّة **الكلدانيّة المطران (البطريرك) روفائيل بيداويد (+٢٠٠٣)** وجمع من الأصدقاء من أبناء الرعيّة في رأس النبع. وكان دور الأب البير أبونا (رسامة ١٩٥١/٦/١٧) الذي نعتزّ به مدرّسا في المعهد ومؤلّفا ومترجما لعشرات الكتب، وقد أبرز وعده في ١٩٦٩/٢/٣.

وكم يطيب لي أن أستذكر انتماء الأبوين المطرانين، **حنّا مرخو** (+١٩٩٦)[١٧] - وهو زميل ميخائيل جميل ولويس الديراني في الرسامة الكهنوتيّة عام ١٩٦٤- **وبطرس موشي**[١٨] اللذين أبرزا وعدهما في ١٩٦٩/١٢/٣.

وبعد تعثر الانتساب إلى الجماعة في السبيعينات والثمانينات، عادت الحياة إلى الإخوة بانتماء كهنة متفاوتين بالعمر، بدءا بالأب **فرنسيس شير** (رسامة ١٩٦٨/٦/٩)، حين كان كاهن رعيّة أربيل، وقد أبرز وعده لوحده في ١٩٩٢/١٠/١٨. ومن ثمّ انتماء الأبوين **حنّا ياكو وجبرائيل شمّامي** (وقد رسما سويّة في ١٩٧٣/٥/٦ وأبرزا وعدهما في ١٩٩٣/٣/٢٥)؛ وفيما ترهّب الأول في حزيران ١٩٩٩ وأصبح رئيسا للرهبانيّة الأفراميّة الجديدة في دير الشرفة بلبنان، استقرّ الثاني مؤخرا راعيا في الداوديّة بعد أن خدم طويلا في بغداد في كنيسة مار يوسف العامل في اليرموك وتعرّض لاختطاف ومضايقات...

وكان مسك الختام في الجماعة مع الاباء **عماد اقليموس** (رسامة ١٩٩٣/٧/٣) -وقد أبرز وعده في ١٩٩٦/١٢/١٨- **وحسام شعبو** (رسامة ١٩٩٨/١٢/١٨) -وقد

أسقفيته دورا حريّا في الأحداث التي عرفتها الموصل ولاسيما بعد السقوط... اختطف وظل محتجزا قرابة شهر واستشهد إبان احتجازه... وشيع جثمانه في ٢٠٠٨/٣/١٤ في كرمليس، ونقل من ثم إلى الموصل حيث يرقد في كنيسته التي أحبّها...

(١٧) رسم مطرانا على ابرشية اربيل في ١٩٩٤/١٢/١١، وسرعان ما خطفه الموت في ١٩٩٦/١٠/٢٢. وما زلت اذكر، وأنا في عمان، زياراتي المتكررة له في المستشفى فاقد الوعي، حين اقترحت أن يوضع سجل للزيارات افتتحته بكلمة خاطبته بها بلغة القلب، ولم أسمع منه في حينها سوى صمت القلب!

(١٨) بعد سنوات من خدمته الروحية والتعليمية في قره قوش وبغداد، استقر في الموصل نائبا أسقفيا عاما للمطران باسيليوس جرجس القس موسى، منذ عام ٢٠٠٠ وحتى انتخابه خلفا له على كرسي ابرشية الموصل، حين تمت رسامته الأسقفية في قره قوش، على يد البطريرك الأنطاكي الجديد مار يوسف الثالث يونان، يوم ٢٠١١/٤/١٦.

أبرز وعده في ٢٠٠١/٣/٧- وانتهاءً بالأبوين **صفاء حبش** (رسامة ١٩٩٩/٧/١٤) و**خالد كسكو** (رسامة ١٩٩٠/٦/٢٢) اللذين أبرزا وعدهما معا في بغداد في ٢٠٠١/١٠/١١، خلال حلقة دراسيّة أقمناها في دير الرهبان الكلدان في الدورة. وهولاء الثلاثة، بحكم رسالتهم في الخارج لم تعد لهم صلات بالجماعة، فيما يستعد عدد من الكهنة الشباب إلى الالتحاق بالجماعة بحثا عن حياة كهنوتيّة يعيشونها بمزيد من الجدّية والالتزام...

وما أجملها لقاءات أسبوعية كانت تضمّنا نحن أعضاء أخوّة الحياة المشتركة مع إخوتنا المنفردين في الموصل، كما في الرياضات الشهريّة. وكانت حلقات دراسيّة تضمّ الجميع، وهي بمثابة المحطة التي كانت تنعشنا وتثبّت قناعاتنا وتبلور توجهاتنا الروحيّة والرسوليّة: فكانت ثلاث حلقات كبرى (١٩٦٥، ١٩٦٧، ١٩٦٩) أسهمت كثيرا في تعميق الأسس التي تقوم عليها الحياة في الجماعة، وتفعيل الأهداف والتطلّعات التي تجمعنا في مسيرتنا المشتركة، وتأصيل التزامنا الكهنوتي في كهنوت المسيح، وهو الكاهن الأوحد الذي منه ينطلق كهنوتنا -وكانت نشرة "ليأت ملكوتك" بمثابة حلقة الوصل بيننا جميعا، في الحياة المشتركة وخارجا عنها، سيّما حين كانت تصدي لمراجعة الحياة الأسبوعيّة فضلا عن أخبار كل منّا ونشاطاته وانجازاته في مراكز عملنا المختلفة... وكان قد التزمها بجديّة الأب جرجس حتى عام ٢٠٠٠.

ويؤسفني أن أستذكر سنوات "السُّبات" التي أصابت الجماعة في السبعينات، أولاً، في فترة دراستي في الخارج، وتلتها من ثم فترة الكثافة في العمل -ولاسيّما بعد أن أخذت الفكر المسيحي تستحوذ على حياتنا وتبتلع كل أوقاتنا في نهاية السبعينات وعلى مدى الثمانينات، وسأخصّها باستذكار إن لم أقل باستذكارات! ولكن، وبالرغم مما أصاب الحياة في الجماعة من تعثّر وبرود، فقد حدثت في أول التسعينات "يقظة" تلاها تصميم لإنعاش الحياة في الجماعة، بدءا بإعادة صياغة القانون وتطويره ومدّه بخبرة الحياة المشتركة... وهكذا خُصِّصَت حلقة عام ١٩٩١ لوضع خطّة لصياغة جديدة "تكون أقل تشريعا في بنيتها الإنشائية وأعمق الزاميّة وروحانيّة في محتواها". وفي أعقاب سنتين من العمل الحثيث، أُقِرَّت صيغة جديدة "لقانون حياة" خلال حلقة دراسيّة في أيلول ١٩٩٣ خرجت بـ١٠٧ بنود موزعة على سبعة فصول. ولعلّ أجمل ما يتّسم به القانون هو كونه طموحا يسعى كهنة يسوع الملك إلى عيشه، عبر الارتباط الوثيق بعضهم ببعض من أجل الأمانة لدعوتهم المسيحيّة والكهنوتيّة، في تعاون وثيق مع سائر

إخوتهم في الرسالة الواحدة، وضمن أبرشيّاتهم وخورناتهم... ذلك أنّ روحانيّة كهنة يسوع الملك ليست سوى روحانيّة إنجيلية تستمدّ جذورها وحيويّتها من نبع الإنجيل الصّافي.

وما دمت بصدد استذكار مسيرة سيصبح عمرها، في أيلول ٢٠١٢ القادم، ٥٠ عاما[١٩]، مسيرة عرفت تقلّبات عدّة من حيث عدد الأعضاء وصيغة انتمائهم ومدى التزامهم أو تخلّيهم في نصف الطريق... فلا بدّ لي من أن أعكس أمنية طالما حلمنا بها طيلة أعوام: أن تنشأ أخوّات كهنوتيّة هنا وهناك حيث تسنح الظروف، وحيث يكون قيامها ممكنا ومستحبّا. ولئن راوحت أخوّة الحياة المشتركة في مكانها حتى عام ١٩٩٩، إلا أنّ أخوّة نشأت في بغداد عام ١٩٩٤ تألفت من ثلاثة إخوة في مراكز عمل مختلفة، وهم الآباء بطرس موشي وفرنسيس شير وجبرائيل شمامي-وقد انضّم إليهم الأب **سرمد باليوس** لفترة من الزمن (أبرز وعده في ٢٠٠٤/٣/٤)- كانوا يجتمعون بانتظام بمعدّل مرّتين في الشهر... ومنذئذ كان لنا في كلّ عام لقاءان عامّان، يتخذ أحدهما (في الخريف) صيغة حلقة دراسيّة ننكبّ فيها على دراسة جادة على صعيد اللاّهوت أو الكتاب المقدّس- يرافقنا فيها أحد الآباء الّذين نعتزّ بهم كثيرا من الأب روبير الكرملي إلى الأبوين لوسيان كوب ومنصور فان فوسيل المخلّصيين- فيما يتخذ اللقاء الثاني (في الربيع) شكل رياضة روحيّة نعود فيها إلى ذواتنا في مراجعة حياة حول مدى تجاوبنا مع متطلّبات دعوتنا الكهنوتيّة -ولكم طُرحت قضايا وأحداث لها صلة برسالتنا وعلاقاتنا مع أساقفتنا وسائر إخوتنا الكهنة، ولاسيّما حين تتعكّر هذه العلاقات وتصبح عائقا بوجه نشاطاتنا الروحيّة والثقافيّة والاجتماعيّة...

ولا بدّ لي أن أخصّ بالذكر الاخوّة التي نشأت من رغبة علمانيين ملتزمين كانوا قد عملوا معنا يدا بيد في نشاطات رسوليّة، سواء كانوا من قدامى الشبيبة الطالبة المسيحيّة والاخويّة المريميّة، أم من خرّيجي دورة الدراسات الكتابيّة واللاّهوتيّة... وشاءوا أن يتبنّوا روحانيّة جماعة يسوع الملك في حياتهم ورسالتهم، بروح الأخوّة والتعهد المتبادل، لعيش الإنجيل والشهادة له في المجتمع... وهكذا نشأت عام ١٩٩٧ نواة أولى في الموصل لجناح علماني باسم "أصدقاء يسوع الملك"، كما نشأت عام ٢٠٠٠ في بغداد نواة ثانية، وأصبحنا بإزاء اخوّتين! وفيما أبرز ١٦ عضوا من اخوّة الموصل وعدهم في ٢٠٠١/٣/٧، في أعقاب ثلاث سنوات من الخبرة، أبرز عدد من اخوّة بغداد وعدهم

---

(١٩) كان الكتاب في لمساته الاخيرة حين عقد كهنة يسوع الملك، بمناسبة الذكرى الخمسين، حلقة دراسية في قره قوش حول الرسالة الى العبرانيين، بمرافقة الاب منصور المخلصي أبرز خلالها الوعد الابوان **يوسف خالد** (بغداد) **ويونان حنو** (قره قوش) في ٢٠١٢/١٢/٢٠.

في ٤/٣/ ٢٠٠٤. وكان للاخوّتين العلمانيّتين، مع اخوّتي كهنة يسوع الملك، لقاءات متواترة بفرصة الحلقات الدراسيّة واللقاءات الروحيّة العامّة.

وإذا كانت وفاة الأب نعمان اوريدة عام ١٩٩٩ –وهو الثاني في الرقاد على رجاء القيامة بعد المطران حنّا مرخو، وقبل أن يلحق بهما الشهيد المطران فرج رحّو– قد باغتت أخوّة الحياة المشتركة وأفقدتها أحد مؤسّسيها البارزين، إلا أنّ انتخاب الاب جرجس لرئاسة أبرشيّة الموصل للسريان الكاثوليك ورسامته في ١٩٩٩/١٢/٩ جعلاني أستفيق على "وحدانيّتي" وعزلتي المريرة، وأصبحت بحكم الواقع، شئت أم أبيت، مسؤولا عامّا! وكان عليّ من ثم أن أنشّط لقاءات الاخوّة على صعيد كهنة يسوع الملك والاصدقاء، عبر لقاءات دوريّة، ظللنا امينين لها على مدى السنوات الثلاث التي سبقت سقوط النظام عام ٢٠٠٣. وللتاريخ أقول بأنّ مسؤولية المسؤول العام تنقّلت من أعضاء أخوّة الحياة المشتركة والى أحد الإخوة المنفردين، الأب البير أبونا، وعادت من ثم إلى أعضاء الحياة المشتركة، حتى رست عليّ "أنا السقط" إذ لم يعد غيري في الحياة المشتركة! ولكم أشعر بالألم حين أحس أنّ خبرة الحياة المشتركة بين كهنة، كانت مبادرة رائعة في كنيسة العراق، وأنّها توقّفت بحكم الظروف، ويا ليتها تعود، بصيغة أخرى وأسلوب جديد ودماء جديدة... ولكم أطلقت هذه الأمنية، مع تضرّع عميق: ألا تختفي هذه التجربة الرائدة من كنيسة العراق!

وكان عزاؤنا في الجماعة، في مطلع الألف الثالث، أن على رأسها مطرانين هما رئيسا أساقفة الطائفتين في الموصل! ولم يكن لنا ذلك موضوع افتخار واستكبار، ولا غنيمة لجني امتيازات أو فوائد ما... وانّما إحساسا بأنّ الجماعة، من دون أن تسعى إلى استقلال أو إلى تجاوز للقوانين والصلاحيّات، متأصلة في قلب الكنيسة وتعمل على بنيانها وإشعاعها، عبر حياة نعيشها بسخاء وأمانة في خدمة الجزء الموكل إلينا من القطيع، سواء من موقع الراعي لخورنته أم من موقع الراعي لأبرشيته... وهكذا اتّسمت لقاءاتنا، يتقدمنا إليها المطرانان جرجس وفرج، بعين البساطة وعين العفويّة، بالرغم من الافتراء الذي لحق بنا بسببهما، وكأنّنا المدلّلون ولم نكن قط مدلّلين! ولكنّي لم ولن أنسى ما كان أول شهيد في الجماعة يردده في كل سانحة: "ماذا لو لم أكن في جماعة كهنة يسوع الملك؟"! قالها فرج رحّو، كاهنا وأسقفا، وهو يعني ما يقول: إنّ وجوده في الجماعة منحه زخما روحيّا ورسوليّا طبع حياته بطابع الفقر والتجرّد والسخاء والغيرة، ومن ثم الشهادة بالدم... ولِمَ لا أقولها صريحةً: أليست تلك علامة ان يكون لنا معترِفان وشهيد يذكّروننا دوما بالشهادة لربنا التي لا

يحقّ لنا أن نخجل من تأديتها. فالمعترف هو من شهد للإيمان وجاهر به وبلغ حدّ الشهادة بالدم وأفلت منها! والشهيد هو من شهد للإيمان وأعطى دمه فداءً لهذه الشهادة! وهنا تحضرني كلمات الطوباوي شارل دي فوكو الذي كان قد كتب في صبيحة مقتله في تمانراسيت بالجزائر، في الأول من كانون الأول ١٩١٦: "ان ملاشاتنا هي الواسطة المثلى التي بها نستطيع ان نتحد بالمسيح ونعمل خيراً للنفوس".

وربّ شهداء، يستشهدون كلّ يوم في بلداننا، وهم يتلقّون الضغوطات والتهديدات من أجل اسم يسوع. ولكم لدينا من هولاء الشهود، والشهداء قبل الأوان، الذين يترتب عليهم، كلّ يوم، أن يردّوا على من يطلب منهم دليل على ما هم عليه من الرجاء (١ بطرس ٣: ١٥). وهنا تحضرني حادثة مقتل الاباء السكوتيين السبعة عام ١٩٩٦ في تبحرين بالجزائر، وقد استشهدوا معا وفي يوم واحد على يد ارهابيين متزمتين استكثروا على رجال الله هؤلاء حضورهم على الارض الجزائرية شهوداً للمحبة والتآخي والتضامن... ومن المؤثر حقا هو أنهم كانوا قد تلقوا تهديدات لم تثنهم عن عزمهم في البقاء خفراء الصلاة من اجل الاخوّة المسيحية الاسلامية، بيقين ان شهادتهم تصبح اكثر فاعلية إن هي اقترنت بشهادة الدم! ذلك خيار جريء قاموا به في اجتماع لهم، قبيل استشهادهم، لاتخاذ قرار حاسم بين المغادرة أو البقاء! وكان قرارهم بالبقاء حازماً وبالاجماع! والاجمل هو ان رئيسهم سبق ان كتب وصيته قبيل مقتله بايام قليلة -وكنت قد قرأتها في حينه بالدموع- غفر فيها لقاتله المحتمل فعلته "غير المسؤولة" ومعبرا له عن حبه المقترن بالرحمة والشفقة، ومؤكدا له ولكل اصدقائه المسلمين في تبحرين والجزائر ان الموت لن يفصله عنهم! ولا اغالي او اكابر إذا قلت باني بمثل هذه المشاعر بقيت وسأبقى في الموصل شاهداً -ويا ليت يعطى لي ان اكون شهيداً! قلتها لوالدة الاب وسيم في يوم مأتمه في بغداد: هنيئا لكل انك اصبحت الآن أم شهيد!!

دير مار اشعيا-لبنان ٢٢/٧/٢٠١١

الدخول الى معهد مار يوحنا الحبيب - ١٩٥١

زي قسم الصغار في المعهد

في عمر الثانية عشرة

المرحلة المتوسطة: الاب اومي وعن يمينه الاب فوايوم
مؤسس اخوة يسوع الصغار لدى مروره بالموصل

مع الاكليريكي جرجيس ابراهيم
(أ. قطيمي)

مع زملاء في تمثيلية على مسرح المعهد

حين استبدل الزي ١٩٥٦

في احدى السفرات بعد تغيير الزي

في معهد الكبار - ١٩٥٧

الاكليريكيون الموصليون يتوسطهم المطران جرجس قندلا - ١٩٥٦

لدى التوشح بالسوتانة / السنة الاولى من الفلسفة - ١٩٥٧

مع الاهل في زيارة القدس
١٩٥٧

بعد غداء على مائدة
اساتذة المعهد الكتابي
الاثري في القدس -
خميس الفصح ١٩٥٧

اساتذة وتلامذة معهد مار يوحنا الحبيب يتوسطهم الاب يوسف اومي — ١٩٥٨
عدد من الاباء الدومنكيين ومعهم كهنة: البير ابونا، الياس صقال، جبرائيل جرخي، اسطيفان زكريا

ثمانية قارئين على يد البطريرك بولس شيخو — ١٩٥٩
(جاك، اسحق، حنا، بيوس، يوسف، نعمان، يعقوب، جرجيس)

في سفرة الى عقرة - ١٩٦٠

في حج الى الأراضي المقدسة - ١٩٦١

رسائلياً يتوسط والديه - ١٩٦١

قبالة المدينة المقدسة: جرجس، جاك، قيصر، بيوس - ١٩٦١

في قسم اللاهوت / ١٩٥٩-١٩٦٢

قبيل الرسامة الكهنوتية: ١٠ حزيران ١٩٦٢
الواقفون: حنا زورا، يعقوب شير، أ. اومي، يوسف به ري
الجالسون: نعمان اوريدة، فرنسيس جحولا، جرجس القس موسى، بيوس عقاص

امام مذبح كنيسة
الطاهرة قبيل
الرسامة الكهنوتية
١٠ حزيران ١٩٦٢
بيوس، نعمان،
جرجس، فرنسيس

الرسامة الكهنوتية
على يد المطران عمانوئيل بني
١٠ حزيران ١٩٦٢

الكهنة الجدد بكامل قيافتهم (يتوسطهم الابوان اومي وريشارد)

القداس الاول في مار توما يخدمه الوالد

بعد الرسامة مع افراد العائلة في فناء المعهد

بدء الحياة المشتركة — ١٨ ايلول ١٩٦٢
جرجس، بيوس، نعمان، جاك

في حج ثان الى القدس — اللاطرون ١٩٦٤

مع المساعدات الدوليات (A.F.I.) — رام الله

مشاركة في حفل السعانين مع حجاج فرنسيين

في دير الاباء الدومنيكيين/ العباسية — مصر ١٩٦٤

مع الاب عفيف عسيران — بيروت ١٩٦٤

جماعة كهنة يسوع الملك
يتوسطهم الاب يوسف اومي
مار توما ١٩٦٤
من اليمين: بطرس يوسف، جرجس القس موسى، جاك اسحق،ميخائيل جميل، بيوس عفاص، نعمان اوريدة

كهنة يسوع الملك في حلقة دراسية - ١٩٦٩
الصف الامامي: فرج رحو، جرجس القس موسى، بيوس عفاص
الواقفون: حنا مرخو، نعمان اوريدة، ميخائيل جميل، الاب اومي، بطرس يوسف، بطرس موشي، البير ابونا

بعد تأسيس الشبيبة الطالبة المسيحية — ١٩٦٥
اعضاء فرقة العلوم الاولى في اول قسم
فوريللوس بهنام، (-)، سالم اسعد، صباح، أ. عبد
السلام حلوة، أ. جرجس القس موسى، أ. فرج رحو،
مازن يوسف، ابلحد شكوانا، جورج توما

اعضاء ومرشدو الشبيبة الطالبة المسيحية - ١٩٦٧

في قداس ضمن سفرة لاعضاء الشبيبة الطالبة المسيحية

في حفل القسم وتقليد الشارة من قبل المسؤول العام ابلحد شكوانا- ١٩٧٠

في اول مؤتمر للشبيبة الطالبة المسيحية – مع ضيوف من الاخوية المريمية - ١٩٧١

في حفل قسم مع المسؤول العام د. مازن المختار - ١٩٧٢

فرقة المسؤولين (مازن المختار، سعاد اسحق، فاتن عفاص)
يتوسطهم المرشد الدولي مع المرشد العام والاب مكرم فزاح

ابان الدراسة
في بلجيكا
(١٩٧٣-١٩٧٦)

في رحاب
اوربا - ١٩٨٧

في احضان كنيسة مار توما ... وبمبادرة كهنة يسوع الملك:
الفكر المسيحي، سلسلة (١٩٦٤-١٩٧٠) ومجلة (١٩٧١-١٩٩٤)

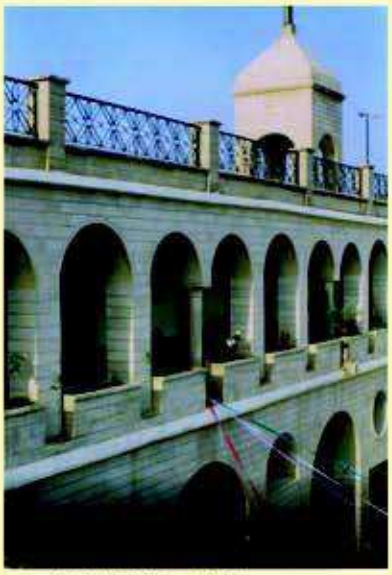

بعد حملة الاعمار (١٩٨٤-١٩٨٧)

مهرجان ومعارض بمناسبة اليوبيل الفضي (١٩٦٤-١٩٨٩)
في الموصل وبغداد — حزيران / تموز ١٩٨٩

حلقة الكتاب والمحررين لتقييم المجلة — ايلول ١٩٨٩

وكان للفكر المسيحي جناح في متحف مار توما

بعد انطلاقة دورة اعمال الرسل (١٩٨٧) وكانت النواة لمركز الدراسات الكتابية على المستوى الاكاديمي وعلى مستوى النشر

في رحلة الفرسان الثلاثة الى لبنان
بعد حرب الخليج الاولى - ١٩٩٤

بعد صياغة جديدة للقانون - ١٩٩٣
بطرس موشي، فرج رحو، حنا ياكو، بيوس عفاص
جبرائيل شمامي، حنا مرخو، جرجس القس موسى، فرنسيس شير، نعمان اوريدة

حين عرفت جماعة كهنة يسوع الملك انطلاقة جديدة عبر صياغة لقانون حياة الجماعة - ١٩٩٣

في افتتاح اول سوق خيرية بعد الحرب - ١٩٩١

حين استدعت ظروف الحصار اطلاق اسواق بيت لحم واسواق عماوس...

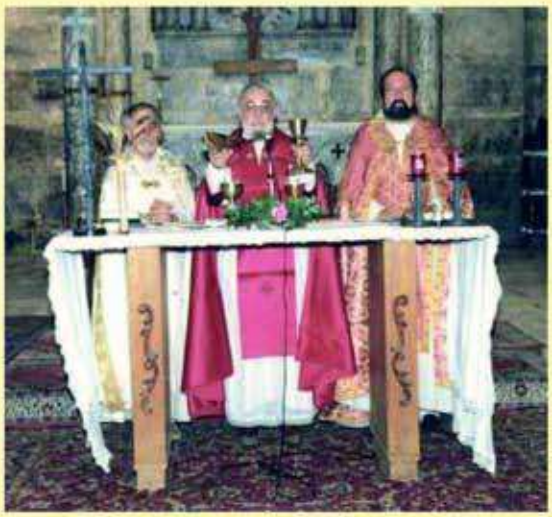

في قداس أول تخرج في مركز الدراسات الكتابية
الدورة الاولى: ١٩٩١-١٩٩٥

في الاحتفال بمناسبة افتتاح ساحة السيارات / ١٥ كانون الاول ١٩٩٥

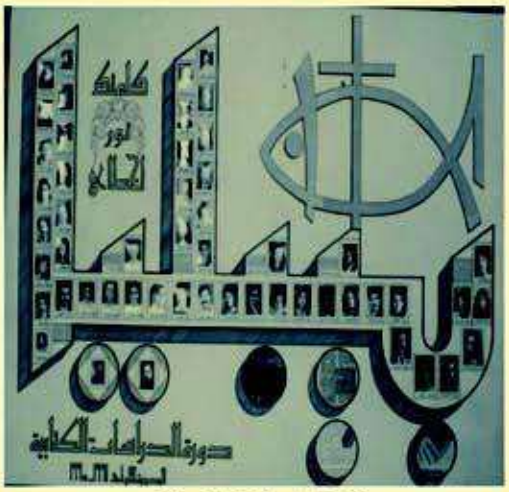

تحت شعار: كلمتك نور لخاي

في افتتاح متحف مار توما ١٣ ايلول ١٩٩٦

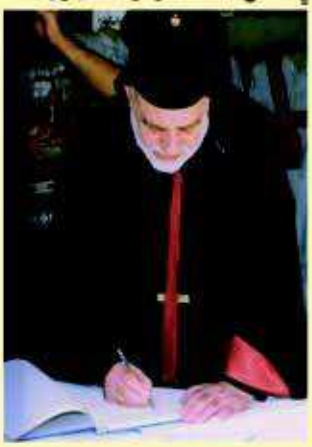

لجنة المتحف وقد لملمت ما كان مبعثراً ...
وكانت البدايات متواضعة، وما زال التوسع
قائماً في اجنحة المتحف

لدى الاعتكاف في سنة سبتية في دير مار اشعيا (لبنان) - ١٩٩٧

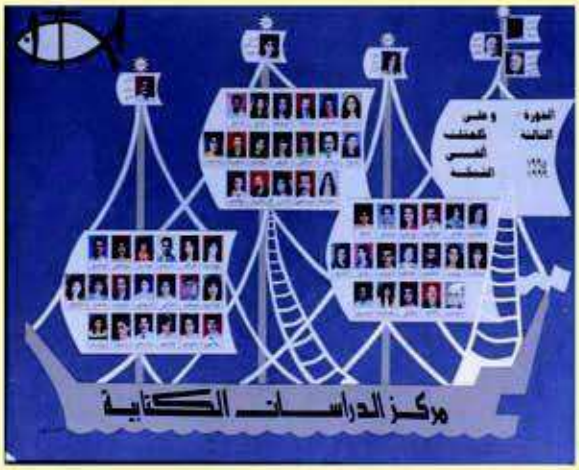

في تخرج الدورة الثالثة (١٩٩٥-١٩٩٩)

في اللقاء الروحي بمرافقة الاب روبير الكرملي - ١٩٩٨

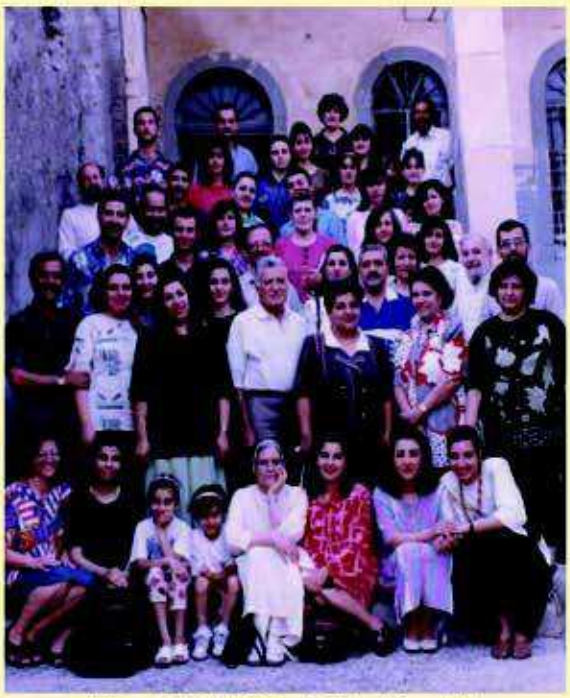

اعضاء دورة الدراسات المعمقة في زيارة القوش - ١٩٩٨

في زيارة البطريرك موسى داود للمتحف - ١٩٩٨

في حفل التناول الاول — مار توما ١٩٩٩

حين شارك اعضاء من م.د.ك. في المؤتمر الكتابي السادس
لبنان ١٩٩٩

لجنة الخدمة لدى استقبال المطران باسيليوس جرجس
القس موسى / كانون الاول ١٩٩٩

شمامسة مار توما في استقبال راعي الابرشية الجديد

الموسم الثقافي ٢٠٠٠: "مع قراءة مجددة

جوقة مار توما في استقبال راعي الابرشية الجديد

حين تم رصف الفناء - ٢٠٠٠

وكان "اليوم الروحي"
بمناسبة الصوم، قد
اصبح تقليدا
دير مار بهنام
٢٠٠٢

بمناسبة الذكرى الاربعين
لبدء الحياة المشتركة
مار توما - ٢٠٠٢

مع اصدقاء يسوع الملك (اخوة بغداد) - ٢٠٠٢

اعضاء الدورة السادسة في مركز الدراسات الكتابية (٢٠٠١-٢٠٠٧)

كهنة يسوع الملك في حلقة دراسية
بمرافقة الاب منصور المخلصي
كوماني - ٢٠٠٢

مسؤولو الرابطات لدى تسلم الاب ايوب شهوان
مسؤولية المنسق خلفا
للاب بولس الفغالي - ٢٠٠٣

كهنة واصدقاء يسوع الملك
(اخوة الموصل)
في لقاء روحي - ٢٠٠٢

قداس بالطقس الكلداني في ختام
المؤتمر الكتابي الثامن - ٢٠٠٣

حين اشترك خريجون في المؤتمر الكتابي الثامن - ٢٠٠٣

مقابلة المؤتمرين في نورسات - ٢٠٠٣

حين بدأت اعمال الصيانة والتجديد في مبنى التوماوية - ٢٠٠٢

وحين تكللت بواجهة الكنيسة والمتحف - ٢٠٠٤

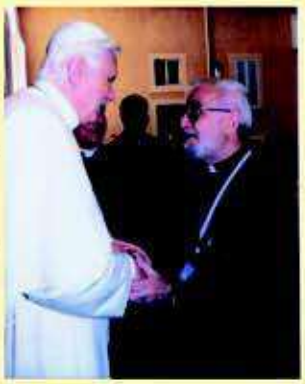

مع البابا بعد مؤتمر كتابي في روما بمناسبة الذكرى الاربعين لوثيقة "الوحي الالهي" - ٢٠٠٥

في تخرج الدورة السابعة (٢٠٠١-٢٠٠٧)

في تخرج الدورة الثامنة (٢٠٠٥-٢٠٠٩)

مسؤولو الرابطات في اقليم الشرق الاوسط يتوسطهم الامين العام للرابطة الكتابية العالمية - ٢٠٠٧

حين حصلت الفكر المسيحي على المدالية الذهبية من
الاتحاد الكاثوليكي الدولي للصحافة (U.C.I.P) - ٢٠٠٧

في تخرج الدورة التاسعة - ٢٠١١

"كلمة الله تواصل جريها"
شعار اليوبيل الفضي
لمركز الدراسات الكتابية
١٩٨٧-٢٠١٢

١٥٠ عاماً على تشييد كنيسة مار توما بواجهة مجددة
(١٨٦٣-٢٠١٢)

١٧

خمسون عاما في مار توما!

خمسون عاما في مار توما!

لم يكن يخيّل إلينا يوما أن نصبح كهنة رعايا، وتمنّينا أن نبقى تحت التصرّف للقيام بنشاطات لا يقوى كهنة الرعايا التفرّغ لها، من مثل زيارة المرضى في المستشفيات والسجناء، ولاسيّما في الرسالة مع الشباب عبر حركات العمل الرسولي... فضلا عن نشاط ثقافي كانت ملامحه ترتسم في الأفق...

لقد كانت خدمتنا في السنوات الأولى تقتصر على خدمات هنا وهناك لتأمين قداديس أو إلقاء مواعظ في أخويات تقويّة أو تجمعات شبابية أو حتى في جمعيّات رهبانية... ولعلّ أبرز ما تميّزت به سنتي الكهنوتيّة الأولى هو حين انتدبت إلى تأمين الخدمة لسريان زاخو في أعقاب وفاة كاهنهم **الخوري منصور فارس** (+١٩٦٢)، حين طلب المطران بنّي، أولا، من الأب جرجس، تأمين الخدمة في أعياد الميلاد، ومن ثمّ جاء دوري لتأمين فترة الصوم الكبير. لقد كانت حقّا خبرة رائعة مارست خلالها خدمتي الكهنوتيّة من قداديس واعترافات ومواعظ ورياضة درب الصليب... واحتفلت هناك بأول عماذ لي!

وما أحلاها ذكريات لا تمحى عن مؤمنين كانوا جياعا إلى كلمة الحياة... وسرعان ما ربطتني بهم أواصر صداقة متينة، وأخصّ بالذكر أفراد أسرة أبي حنان، وكيل البيعة، قضينا وإيّاهم أمسيات لا تنسى، وأنا الكاهن الشاب الذي يدعوني كبارهم وصغارهم، نساؤهم وبناتهم، صبيانهم وأطفالهم: أبونا! وهي أجمل صفة للكاهن، إن هو أدرك ما تفرضه عليه من التزام! ذلك أن الله وحده هو الأب، وبهذا المعنى قالها يسوع: لا تدعوا أحدًا أبًا لكم في الأرض، لانّ لكم أبًا واحدا، هو الآب السماوي (متى ٢٣: ٩)! فمعنى ذلك أن على الكاهن أن يتّصف بسمات الأبوّة من حب وحنان واهتمام ورأفة وبذل وسخاء ونكران ذات وتسامح وغفران... إنها صفات يطالبون بها الكاهن، ولا عجب أحيانا إذا ما كانت انتظاراتهم منه على شبه انتظاراتهم من الله بالذات!

ولا زلت اذكر كيف كانت كنيستنا في زاخو في جمع الصوم وآحاده من عام ١٩٦٣ تمتلئ بالمصلّين ولاسيّما بالمصليّات، ولسبب يبدو اليوم غريبا جدّا! ذلك أن مطران زاخو للكلدان، **توما رئيس** (+١٩٥٦) ، وكان قد قدم من اميركا محمّلا بعقدة ملابس النساء والفتيات -ولم يكن هو وحده! وراح يشنّ حملة على الفساتين القصيرة —

ولم تكن في الواقع قصيرة البتة!- ذهبت به إلى استخدام الحرمان من حقّهن في الاعتراف وتناول القربان... وسرعان ما الحق به حرمانا طال الخياطات أنفسهن!! وفوجئت لدى سماعي اعترافات عدد من تلك اللّواتي كنّ يقررن بأنّهنّ "محرومات،" وبالجرم المشهود، ولم يسعني آنذاك أن امنعهنّ من التقدم من التناول في كنيستنا، كما لا زلت أذكر كيف استدعاني ليدعوني إلى التعاون معه في ذلك الأمر! واذكر اني اجبته بأنْ ليس لي من اسقفي أمر بهذا الصدد!

وفي أول أسبوع آلام بعد رسامتي، انتدبت لقضائه في كركوك لمساعدة الأب **يوسف تتر (+١٩٨٣)** في الاحتفالات وتأمين مواعظ النهيرة والرياضة الفصحيّة والجمعة العظيمة والعيد. لقد كانت "جمعتي العظيمة" الأولى -وكم كنّا نهابها، سيما حين كان يحتكرها في كاتدرائية مسكنتة **القس (المطران) اسطيفان بابكا (+٢٠٠٧)** وفي كاتدرائية الطاهرة للسريان القس (الخوري) حنّا رحماني! ولكم كانت دهشة هذا الأخير كبيرة حين علم أنّي سألقي عظة الجمعة العظيمة لعام ١٩٦٤ في حلب! كما لا زلت أذكر قول الأصدقاء في كركوك الّذين لم يخفوا دهشتهم وأنا ارتقي درجات مذبح الكنيسة القديمة في زاوية مفتوحة على جناحي الرجال والنساء عام ١٩٦٣: هل نحن بإزاء لعبة "جرّب حظّك"؟ هل أرسله المطران ليختبر كفاءته عندنا؟ إلا أنّ صلاة أمّي التي أصرّت على القدوم من بغداد لتشاهد ابنها يلقي أول عظة جمعة عظيمة، سندتني آنذاك في محاوفي وتهيّبي...

وعلى ذكر الموعظة، لن أنسى أنّي في أول جمعة عظيمة في مار توما عام ١٩٦٥، كنت قد افتتحتها بالقول: لم نأتِ اليوم لنبكي على يسوع، بل لنتأمل في آلامه في ضوء قيامته... واذا كان هذا دافعنا، فلنخرج على الفور... ولدى الخروج من الاحتفال، قال لي اسحق عيسكو معجبا، وبنبرة مازحة: كنت أود أن أردّ عليك: يا الله، نحن خارجون!

وكان تعييني كاهنا مساعدا للخوري ميخائيل صائغ في كنيسة مار توما عام ١٩٦٤ مفاجأة! ذلك أنّ المطران بقّي كان قد سحب القس بهنام نهّاب ليخدم في سنجار، وطلب أن أحلّ محلّه... وبعد تردد قبلت -وبموافقة إخوتي في الجماعة- ولكن ليس بطيب الخاطر! ومن ثم أدركت وادركنا كم أنّها كانت فرصة لنطبّق فيها ما كنّا نحلم القيام به من تجديد في الطقوس والاحتفالات والممارسات... ولعل أصعب ما عانيت منه بصفة كاهن رعية حين كان عليّ أن أستلم حسنات واجورا لقاء الخدمات الروحية، إذ كانت معيشة الكاهن آنذاك تقوم على ما تدرّه عليه الخدمات من مال بمناسبة عماذ أو زواج أو دفن... ولاسيّما العيديّة، تجبى في عيدي الميلاد والقيامة، شريطة أن نوفّق إلى

زيارة أبناء الجماعة خلال أربعة أو خمسة أيّام، بمعدّل ٥٠ زيارة في اليوم، ومعظمها سيرا على الأقدام! ولكم تألّمت وخجلت وأنا أتسلم مبلغا لقاء خدمتي أو قداسي، وبالأخص العيديّة التي كانت تزلق في اليد أو الجيب لقاء صلاة سريانيّة نرتلها بسرعة وتنتهي بكلمة "بيتو هونو وعوموراو" التي لكم ظنّها المؤمنون أنها كلمة شكر مسبق منّا: "بيت العامر"!! بينما كانت دعاء إلى إحلال السلام على هذا البيت و"ساكنيه". وفيما كنت احمل "غلّة" العيد إلى الصندوق المشترك -وكانت دعما هامّا له، في غياب موارد أخرى للعيش- سنكون في مقدمة الذين سعوا إلى إبطال العيدية.

وعلى ذكر المادّة التي لصقت بالخدم الكهنوتيّة، اذكر للطرفة، في بدء تعييني في مار توما، أنّ امرأة أرسلت ابنها الصغير ليقول لي انّ لأمّه شغلا معي: وللحال قمت وارتديت ملابسي وذهبت معه إلى الدار لأتفاجأ بأنّ لها حسنة قدّاس تتعطّف بها عليّ! ويا لخجلي وتوتري معا آنذاك! وللطرفة أيضا أذكر اني كنت يوما والخوري ميخائيل نتحدّث -وكان قد حوّل مكتبه إلى الغرفة المقابلة لجناح سكنانا، يقضي فيه، بعد قداسه، فترة للمراجعات ويعود إلى بيته، ومن ثمّ يرجع لصلاة الرمش والزيارات- وإذا بناقوس كنيسة مار توما للسريان الارثوذكس المجاورة يطلق دقّات الحزن منبئا بدفنة، واذا به يفاجئني: انظر، كيف أنّ ناقوسهم يقرع بين يوم وآخر.. فيا لسوء حظنا! وخيل لي آنذاك أنّه كان على باب الله ينتظر الرزق!!

وعلى ذكر الخوري صائغ الذي حين شاهد أبناء الجماعة، في أوائل الستّينات، يهجرون الموصل إلى بغداد، كان يقول انّه سيكون آخر من يترك! ولكنّه سرعان ما لحق بهم عام ١٩٦٥ ليحلّ محلّه الأب نعمان. ومنذئذ أصبحنا نحن الاثنين كاهني رعيّة مار توما لنعمل يدا بيد في تطوير هذه الكنيسة التي احتظنتنا، وكان من حقّها علينا أن نجزل لها العطاء، وعلى أكثر من صعيد! -وهنا يطيب لي أن ارجّع صدى ما اعتبره أبناء الرعيّة، وحتى الكبار منهم، تقليدا ثابتا، لأنّهم فتحوا أعينهم على كهنة يعيشون معًا في الطابق العلوي، "وكلّ شيء مشترك بينهم"! وهكذا تكون صورة جديدة للكاهن قد رُسِمَت.

وهنا مثلت أمامي قرابة الخمسين عاما التي عشتها مع إخوة في الحياة المشتركة في أحضان مار توما التي شهدت من النشاطات والفعاليّات أشكالا. وأخذت أتساءل: كيف اروي خمسين عاما من العمل والخدمة والشهادة؟ وللحال قفز أمامي ما كتبته منذ البداية، بوحي من "دليل شربتتييه" عن ذينك الزوجين في عشيّة اليوبيل الذهبي لزواجهما، كيف استطاعا في أمسية واحدة أن يستذكرا المحطّات الكبرى من حياة برمّتها، نُسِجَت من أفراح وآلام... ووجدتني الآن في حالة مماثلة، وأنا أتوقف عند

المحطّات الكبرى لا بل عند الخبرات الكبرى من حياة حيكت من آلاف الأحداث، بحلوها ومرّها، استجمعها وأعيد تفسيرها واكتشف ما ينطوي عليها من معان... إنها بالتالي حياة مفسّرة في ضوء حدث النجاة من الاختطاف الذي مكّنني من أن أعيد قراءتها في ضوء هذا الجزء المضاف على حياتي! -ولا أتمناه يطول كثيرا، من دون صحّة، فلا اضطر إلى اللجوء إلى دير يسوع الملك للكهنة العجّز في لبنان![٢٠].

وأول ما برز أمامي في بدء عملي الخوري اني اغتنمت وجود مدرسة أمّ الربيعين للبنات في مبنى المدرسة التوماويّة كي أبادر إلى إشاعة خدمة مشتركة للقدّاس، في وقت لم يكن فيه القداس سوى شبه مونولوج. وعبر أوراق على الآلة الطابعة، كثّرتها بجهاز الرونيو -وكان المطران بنّي قد اشتراه لأكثّر للابرشية كتاب الرتب الطقسية الذي ما زال متداولا حتى اليوم. وسرعان ما امتدّ استخدامها إلى القداديس بالرغم من استياء الشمامسة، استياء سيزداد عنفا حين سأبادر إلى تأسيس جوقة[٢١] مار توما عام ١٩٨٢، بمعية الأخت فادية التي واكبت، قرابة ٤٠ عاماً، مسيرة كهنة يسوع الملك ودعمت أعمالهم ونشاطاتهم المختلفة.

وعلى ذكر الشمامسة، كانت لي ذكرى طيّبة عن شمّاس توماوي (المرحوم وديع عنائي) كان في كل خميس فصح يقصدني للاعتراف الفصحي قائلا: أريد أن نتذاكر! وهدفه أن نعالج سويّة مواقف من حياته... أوليس هذا هو الاعتراف في معناه التوبوي العميق؟ أوَ ليس الاعتراف بالتالي اشبه بمراجعة حياة تحدد فيها المواقف من اجل تغيير جذري يدل على التوبة؟ وما دمت بصدد الاستذكار، فلا أنسى أنّي تسلّمت، بعد مغادرة الخوري ميخائيل صائغ، إرشاد أخوية قلب يسوع التي لم أشأ أن أطفئ سراجها،

---

(٢٠) قمت، قبل أيام قلائل، وأنا في لبنان، بزيارة للاب موريس سلامة، من كهنة الروم الكاثوليك، في دير يسوع الملك -وقد انتقل مؤقتًا إلى دير راهبات الصّليب في برمانا. وترقى صداقتي معه إلى أيام دراسته في معهد القدّيسة حنّة في القدس إبان زيارتي الاولى لها عام ١٩٥٧... فبالرغم من عناية راهبات الصليب للطوباوي يعقوب الكبوشي (+١٩٥٤ واعلن طوباويا عام ٢٠٠٨) وبزملائه الكهنة العجز، لم أشأ أن أرى نفسي يومًا بينهم!

(٢١) كان للجوقة دور كبير في إحياء القداديس، وقداس المساء بنوع خاص -وكان قد ألغي- وقداديس الأعياد الكبرى، وقد مرت بها عشرات الفتيات اللواتي كن يؤلفن فريقا روحيا تدعم مسيرته المحاضرات التربوية والرياضات الروحية... بقيادة عازفين ملتزمين، بدءًا بهاني نيسان وانتهاء بأفرام قبلو... ولعل أكثرهم حبا وتعلقا غاندي اسطيفان الذي ما زال، مع زوجته ندى عباصة، يؤمّنان خدمة الجوقة في هولندا!

وقد كان لها تأريخ مجيد على يد مؤسّسها القس (المطران) جرجس قندلا في وضع صلوات فرضها وأناشيده الرائعة -وقلّما أفلتت امرأة أو فتاة من احتضان الأخوية لها! وتعود إلى عدد منهنّ بدايات الجوقة في الثلاثينات... كما تسلّمت أخوية الصليب للشباب وكان أعضاؤها قد تبددوا في أعقاب أحداث الموصل في أواخر الخمسينات، فيما كان لها ولنشاطاتها -والمسرحية منها بنوع خاص- أثر بالغ في حياة أعضائها القدامى. إلا أنّ ما يثلج الصدر في هذا الاستذكار أنّي لملمت كل ما كان قد حفظ من سجلاّت ووثائق تخصّ الأخويات الثلاث: الحبل بلا دنس، قلب يسوع، الصليب، وحفظتها في فيترين خاص في متحف مار توما، يحكي بدايات تأسيسها وعصرها الذهبي مع أسماء أعضائها على مدى قرابة مئة عام!

وفيما أستذكر بفرح وافتخار التطوّر الذي عرفته الكنيسة الجامعة في اثر المجمع المسكوني وبوحيه، وقد كان لتوجهاته أثر بالغ في حياة كنائسنا التي مسّها التجديد الّذي أطلقه، عبر إدخال الموعظة في قداديس الأحد والإعداد الجيّد للزواج، والكلمة التوجيهيّة قبل منح سرّي العماذ والتثبيت... أذكر ما كانت تحمله إلى المؤمنين زيارتنا المشتركة - وقد ذهبت بالتقليد الذي كان بموجبه لكل أسرة كاهنها الخاص!- وما كان يدور فيها من أحاديث روحيّة وثقافيّة في زمن كثرت فيه التساؤلات والانتقادات بشأن الكنيسة وخدّامها... إلا أنّي ما زلت أشعر بالتقصير تجاه الواجبات الراعويّة، ولاسيّما منذ ان ازدادت مسؤوليّاتي في "الفكر المسيحي"... ولكن أوَ ليست خدمةً راعويّة ثقافيّة رسالة "الفكر المسيحي"؟! وسيبقى الأب نعمان يسدّ الفراغ الذي كنت اتركه في الخورنة، ولاسيّما إبان الدراسة في الخارج -وان كان الأب جرجس قد حلّ محلّي كاهنا للرعية طيلة السنوات الأربع من الغياب- وسنضطر نحن الاثنين، بموافقة راعي الابرشية، في الثمانينات والتسعينات، للتفرّغ للمجلّة ولاسيّما بعد انتقال طباعتها إلى بغداد عام ١٩٧٧....

"هل تعلم أنّنا لم نضع حجرة واحدة في صرح مار توما؟"! مقولة لن أنساها، كنت قد اطلقتها بوجه الأب نعمان في أوائل الثمانينات! وما انفككنا نرددها حتى تمخّضت عن ورشة عمل كبرى باشر بها الأب نعمان ذاته بين الأعوام ١٩٨٤-١٩٨٧، وتلك هي طريقته في العمل بعد سكوت طويل! وبدأت حملة الصيانة الكبرى في ترميم مبنى الأخوية الذي يرقى إلى عام ١٨٩٣ ليصبح جاهزا لاستقبال القداديس فيه إبان بدء العمل في الكنيسة الكبرى. فكانت صيانة جادّة، بدأت من بعدها صيانة شاملة من السطوح والسقوف وحتّى رفع الاصباغ المكثّفة من على مساحات كبيرة من

الفرش الموصلّي، تكلّلت بإنارة فنّية... وامتد العمل على ثلاث سنين كان يتوقّف في فترة العيدين ويُستأنف من بعدها... وهكذا استعادت الكنيسة رونقها الماضي وكأنّها عادت كما خرجت عام ١٨٦٣ من يد بنّائيها العظام...

وتزامن يوبيلنا الكهنوتي الفضّي عام ١٩٨٧ مع نهاية أعمال الصيّانة الكبرى، فاستقبلت الكنيسة المجددة اليوبيل في أجواء خاشعة بقدّاس شكر أقمناه نحن الثلاثة برفقة زميلنا القس (الخوري) فرنسيس جحّولا رئيس دير مار بهنام، على مذبحها الرائع، بعد أن أجريت عليه تعديلات هامة مكنتنا من ان نحتفل بالقداس قبالة الشعب. وهكذا نكون قد وفينا لكنيسة مار توما جزءًا مما لها علينا من دين... وسأفيها أنا بالذات، ومنذ ١٩٩٥ وحتى عام ٢٠٠٤ بانجازات معماريّة هامة بدأت بساحة وقوف السيّارات على يد المهندسة منى عبدالاحد -وكانت أصلا دورا اقتنتها الكنيسة على مدى ٣٠ عاما، وبدأ العمل بهدمها عام ١٩٩٩ لتفسح المجال لساحة سيّارات أنجزت عام ١٩٩٥ في غياب الأب نعمان الذي انتدب للتدريس في السودان لدى الاباء الكمبونيين. وتلاها رصف الفناء بالحلاّن -بعد أن توقّف الدفن في قبوره عام ٢٠٠٠- ومن ثم انطلقت صيانة كبرى شملت المدرسة التوماويّة، لتحتضن برمّتها متحف مار توما فيصبح أحد معالم العمارة الموصليّة العريقة، من الإيوان وإلى السرداب، مرورا بالغرفة المدببة الواسعة في شكل المهد... وتكللت الاعمال بواجهة رائعة للكنيسة والمتحف من المرمر والحلاّن، وبفن معماري رفيع وضع خرائطها واشرف على تنفيذها المهندسان هدى الدهين وريّان خليل.

ولكم طرحت على ذاتي، وأنا في خضم هذه الأعمال العمرانية الهامة هذا السؤال، ولعلّ من دون وعي: ما الفائدة؟ ولمن يا ترى؟ وإلى متى نبني والنّاس يهجرون؟! أسئلة من شأنها أن تعرّضني إلى دوار وتنزل بمعنويّاتي إلى الحضيض، في اعقاب سقوط النظام عام ٢٠٠٣، وبالأخص في هذه السنوات الأخيرة التي شهدت هجمة شرسة ضد الوجود المسيحي في الموصل! إلا أنّ مثل هذه الأسئلة لا يطرحها ، والحمد لله، الناس الّذين يؤمنون بعناية الله وتدبيره... ولعلّ أقصى ما يطرحونه من تساؤلات: إلى متى ايها الآب ترتضي بأن يخفت اسم ابنك من الموصل؟ أو ينزل صليبه من على قباب كنائسها؟ ولا يبقى من يسبّحك ويمجدك في كنائس ارتفعت فيها، لسنين عديدة، الصلوات والتسابيح؟

ويعود اليّ التفاؤل ويجتاحني الرجاء بأنّ كنيسة شيّدت في ظروف صعبة وإبّان الاحتلال العثماني، وبوسائل بدائيّة، وبفن معماري وضعوا فيه قلبهم قبل كفاءاتهم

وطاقاتهم... ستبقى تشهد لوجود مسيحي متجذّر في تربة هذه المدينة العريقة التي صمدت وستصمد بوجه كل الاعتداءات! وتصح هنا كلمات بولس وهو يتحدّث عن كنيسة قورنتس: "أنا غرست، وأبلّس سقى، ولكنّ الله أنمى... نحن عاملون معا في عمل الله، وأنتم حقل الله وبنيان الله" (١قورنتس ٣: ٦-٩). وهكذا رحت أتطلّع بالشوق والفرح إلى يوم الاحتفال بمرور ١٥٠ عاما على تشييد كنيسة يسعدني أن أكون قد واكبت ثلث مسيرتها -في خدمتها- في مدينة عرفت مآسي كبرى في السنين الأخيرة، ولسان حالي يقول بفم إيليا: "إني غرت غيرة للربّ اله القوّات... قتلوا أنبياءك وبقيت أنا وحدي، وقد طلبوا نفسي ليأخذوها"! (١ ملوك ١٩: ١٠). وهنا يتخذ الإيمان والرجاء كل أبعادهما، وقد سبق لبولس أن تأمّل في مقاصد الله وأحكامه فخلص إلى القول: "ما ابعد غور غنى الله وحكمته وعلمه! ما أعسر إدراك أحكامه وتبيّن طرقه! فمن الذي عرف فكر الرب أو من الذي كان له مشيرا؟" (روما ١١: ٣٣- ٣٤).

... لم يَخْلُ الحجر دون البشر! فإلى جانب أعمال البناء، كانت هناك مبادرة في أوائل التسعينات إلى تشكيل لجنة الخدمة لتنشيط الحياة الليتورجيّة والثقافيّة والاجتماعيّة[٢٢]، فكان لها، في الاحتفالات الكنسيّة، دور بارز في التنظيم والتنسيق... وكان اهتمام خاص بالمكتبة -نواتها من كتب الندوة الدينيّة للجامعيين والشبيبة الطالبة المسيحيّة- حين راحت اللجنة الثقافيّة تسعى إلى اقتناء كتب جديدة، فيما كان مركز الدراسات الكتابيّة يمدها بالكتب بشكل مكثف... وقد برزت مكانتها إبّان الموسم الثقافي الذي اقيم عام ٢٠٠٠؛ كما سعت اللجنة الاجتماعيّة إلى إقامة حفلات وسفرات مميّزة لأبناء الخورنة... إلى جانب نشاطات بادرت بها لجنة الخدمة على مدى سنوات، وفي المقدمة صندوق صوم التضامن واليوم الروحي -وكان يتضمّن برنامجا يتصدّره "طريق الآلام" نسلكه كل عام بوحي من رواية

(٢٢) تميّزت كنيسة مار توما، غداة حرب الخليج الأولى، بإقامة سوق خيرية ذات وزن، جرى افتتاحها في احتفال كنسي كبير في ١٠-١٢ أيّار ١٩٩١... ساهم العديد من الأسر بتقديم تشكيلة كبيرة من الأواني وأدوات المطبخ والألبسة بأنواعها والمواد الغذائيّة والمنزليّة الخ... تجنّدت لجنة كبيرة في جمعها، وبيعت من ثم بأسعار مناسبة لفائدة ذوي الدخل المحدود... ومنذئذ انطلقت عملية توزيع واسعة من المساعدات الماديّة والعينيّة. وهنا لا يسعني ألاّ أذكر الأيّام الأربعة التي تلت السوق، ومن الساعة التاسعة وحتى الواحدة، حين كان طابور طويل من المحتاجين في انتظار دورهم، من غرفتي والى الباب الخارجي، وكان عليّ أن استفسر عن وضع كل طارق من مسيحيين ومسلمين وأعطي لكل منهم ما تيسّر... وحدث لي في ختام يوم سمعت فيه من المآسي أشكالا، أن أجهشت بالبكاء كالطفل، إذ وجدتني عاجزا عن سد كلّ الثغرات التي فتحتها الحرب البشعة، وغير قادر على معالجة الأمراض التي أفرزتها!

الآلام بحسب احد الإنجيليين...

لم يكن التوجه نحو مساندة الفقراء والمحتاجين أمرا فرضته ظروف الحرب وما تسببت به من انهيارات في وضع أسر برمّتها من جرّاء البطالة أو الهبوط في قيمة النقد وارتفاع أسعار المواد الغذائيّة... حسب، وإنما فرصة للرجوع إلى عمق الكتاب المقدّس وأصالة توجُّهاته نحو القريب المشخص بنوع خاص في اليتيم والأرملة والمريض والغريب... ليشمل كل إنسان بحاجة مادية أو روحية، وفوق ذلك أولئك الّذين كانوا بأمس الحاجة إلى الحبّ والتعاطف والتضامن... وبقناعة تامّة من أنّنا حين نُعطي المحتاج، فإنّما نَردّ له ما يحقّ له، بحسب قول القديس غريغوريّوس النزينزي. ولكم اتّخذت نصوص الكتاب المقدّس بصدد حبّ القريب، ولاسيّما اليتيم والأرملة والنزيل، أبعادا فرضت نفسها علينا...

ولعلّ أكثر ما استوقفني ولا زال -حتى أنّي لم أملّ من تكراره- هو نص أشعيا الذي يضع على لسان الله أقوالا تمزّنا في الصميم، وكان يدور حول الاصوام التي يقوم بها الإنسان لإرضاء الله!

"ما بالنا صمنا وأنت لم ترَ
وعذّبنا أنفسنا وأنت لم تعلم؟...
في يوم صومكم تجدون مرامكم
وتعاملون بقسوة جميع عمّالكم
إنكم للخصومة والمشاجرة تصومون
ولتضربوا بلكمة الشر (...)
أليس الصوم الّذي فضّلته هو هذا:
حل قيود الشر وفك ربط النير
وإطلاق المسحوقين أحرارا
وتحطيم كل نير؟
أليس هو أن تكسر للجائع خبزك
وان تدخل البائسين المطرودين بيتك
واذا رأيت العريان أن تكسوه
وأن لا تتوارى عن لحمك؟" (اشعيا ٥٨: ٣-٧)

ويرجّع الإنجيل الصدى على لسان ابن الإنسان:

جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني
كنت غريبا فآويتموني، وعريانا فكسوتموني
ومريضا فعدتموني، وسجينا فجئتم إليّ... (متى ٢٥: ٣٥-٣٦)

ومنذئذ، وعلى مدى أعوام، أطلقت سوق بيت لحم قبيل عيد الميلاد وسوق عمّاوس قبيل عيد القيامة، كان الهدف منها جمع أكبر عدد من الملابس –وقد امتدت إلى الأحذية[٢٣]– بأشكالها وأحجامها، جديدة كانت أم مستعملة، وكانت لجنة كبيرة من النساء والشابّات، بإشراف الأخت فادية، يعملن أيّاما في تنظيفها وإصلاحها وكويها وتسعيرها وعرضها لتباع أولا لذوي الدخل المحدود –وفي مقدمتهم الموظفون الّذين لم يكن راتبهم يتجاوز ٣٠٠٠ دينارا!– ويخصص ريعها بالتالي لمساعدة الفقراء والمعوزين الّذين كانت لهم أيضا حصّتهم من هذه الملابس. وكم كان العمل لذيذا في لجنة هذه الأسواق حيث كان يسكن أعضاءها تعاطف عميق مع المتعففين، لا بل حب وتضامن...

وجاءت أخيرا ما يسمّى بحرب الخليج الثانية حين كانت الولايات المتحدة قد ابتكرت حادثة ١١ أيلول ٢٠٠١ لتبرر شن حرب ضد الإرهاب، فكان العراق لقمتها السائغة... وكان سقوط النظام عام ٢٠٠٣ منطلقا لفوضى تسببت في كلّ الويلات والمآسي التي شهدها العراق وما زال يشهدها... ومنذئذ تعطّلت الكثير من النشاطات الكنسيّة بسبب الوضع الأمني...

دير مار أشعيا –لبنان ٢٠١١/٧/٢٥

(٢٣) من الطريف أنّي كنت يوما أشارك في صبغ الأحذية، واستُدعيت لمكالمة تلفونية، وحين عدت إلى مكاني واصلت صبغ حذاء علمت من ثمّ أنّه كان لواحدة من اللجنة!! ولا زلت اذكر كيف كنت واحداهن نحمل الاحذية في الاحضان لنعرضها بشكل فني وعلى مدرّجات في الرواق المقابل لواجهة الكنيسة...

١٨

قصّتي مع الفكر المسيحي!

قصتي مع الفكر المسيحي!

كانت "الفكر المسيحي" قد بدأت عام ١٩٦٤ "سلسلة" صغيرة بحلقة سنويّة من عشرة أعداد، لا يزيد عدد صفحات العدد الواحد ١٦ صفحة من الحجم الصغير (١٢×١٦ سم). كان العدد الأول قد ظهر، وبشكل مقصود، في كانون الأول ١٩٦٣ ولم يكن يحمل تاريخا ولا اسم مصدّريه "كهنة يسوع الملك"! فلقد كنّا نطرق باباً لم نكن نعلم آنذاك ما يختفي وراءه، لذا اطلقناه كي يروّج في أعياد الميلاد!

وأول ما أقوله هو أنّ "الفكر المسيحي" كانت ثمرة حياتنا المشتركة، نحن الّذين كنّا نتلمّس الطريق إلى مؤمنين لم يعد في متناولهم -بعد أن انطفأت آخر المجلاّت المسيحيّة، عام ١٩٥٦- وسيلة اتصال ثقافيّة تتوجّه إليهم... لقد كنّا نحسّ، بمرارة، بالفراغ في هذا المجال الحيوي... ولكن أنّى لنا أن نسدّه ونحن كهنة شباب لا خبرة لنا في قطاع الكتابة والنشر!

لقد كنت أنا شخصيّا اعرف سلسلة "أمسيات الأحد" التي تصدر عن الآباء البولسيين في لبنان، وسبق لي أن أسهمت فيها بعددين، كما كنت من محبّي مجلّة المسرّة وأحد دعاتها... وكان من الطبيعي أن تتوجه أنظاري إلى ما يشبه "الأمسيات" حجما ومضمونا. وفي أعقاب اجتماعات عديدة، على هامش اجتماعنا الأسبوعي، قرّ الرأي على المباشرة بكتابة الأعداد الأولى من "سلسلة" لم يكن اسمها قد فرض نفسه بعد - وبعد ترددات كثيرة، استقرّ على "الفكر المسيحي" باقتراح من الأب خليل قوجحصارلي الذي كان أول من فاتحناه بالمشروع.

كان علينا أن نختار المواضيع ونوزّعها من ثمّ في ما بيننا، ريثما نتوجّه إلى كتّاب آخرين للمشاركة معنا. فكانت: الكنيسة عبر القارات، ليكونوا واحدا، بول ناكاي، أولادنا... كان ذلك في صيف ١٩٦٣ حين جعلنا من طاولة الجنّاز طاولة للكتابة، في مبنى "الأخوية"، بحثا عن البرودة النسبيّة، مقارنة مع غرفنا في الطابق العلوي حيث لم تكن هناك لا مروحة سقفيّة، ولا تكييف باولى حجة! وكانت اليد قصيرة عن تأمين أبسط المستلزمات، إذ لم تكن لنا حريّة في التصرف في كنيسة نحن ضيوف عليها!

والأجمل، هو أنّي في صيف ١٩٦٣، حملت هذه المسودّات لأبدأ بشبه حملة[٢٤] لأعرّف بالمشروع الجديد وبالحلقة الأولى منه بعشرة أعداد... ولكننا لم نكن نعلم كيف ندفع تكاليف الطباعة لأبي شكر صاحب المطبعة العصريّة -وهي عشرون دينارا لكلّ عدد، باستثناء كلفة الورق!- وطلبنا آنذاك من المطران بنّي أن يسلّف لنا المبلغ ريثما نتسلّم بدلات الاشتراك السنوي، وكنّا قد حدّدناه: ٢٠٠ فلس!

وعلى قدر ما كنّا نقترب من موعد صدور العدد الأول، كنّا نرفع من كمية النسخ التي نقرر طبعها، فمن ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ وإلى ٢٠٠٠، وجازفنا قبيل طبع العدد الأول ورفعنا الرقم إلى ٢٥٠٠! وحين لقي العددان الأولان رواجا شديدا، أقدمنا على طبع ٢٧٥٠ من العدد الثالث! إلا أنّ صورة غلاف العدد الأول أغضب بعض الكهنة وعددا من الغيارى على سلامة الأخلاق! لأنّ الفتاة التي كانت تشير إلى الكرة الارضيّة -والموضوع هو "الكنيسة عبر القارّات"- كانت مرتدية فسطانا من دون أكمام! وسوف تكون معظم المناوشات والانتقادات من قبيل هذا الاعتراض على صورة أو نبأ لا يروق للّذين ليس لهم تصوّر لما هي عليه الأداة الثقافيّة أو الاعلاميّة، وكيف يجب عليها أن تكون... ولنا في هذا المضمار حديث طويل ذو شجون.

ومضت "سلسلة الفكر المسيحي" تظهر بانتظام: عشرة أعداد لكل حلقة، شارك في كتابتها مجموعة من الكتّاب، من كهنة وعلمانيين (أنظر كشّاف الفكر المسيحي للأعوام ١٩٧١- ١٩٨٠/ أيلول ١٩٨١). وكان ينبغي حينذاك أن نُخضع كل عدد لرقابة وزارة الثقافة -وتلك طريقة دلّنا عليها مشكورا الاستاذ لطفي الخوري[٢٥]،

---

(٢٤) في حملتي الإعلامية في بغداد، لا أزال أذكر التحاوب الذي لقيه المشروع لدى راهبات التقدمة ورئيستهنّ العامّة الأم مير اسميري في ديرهنّ في الباب الشرقي، كما لدى الآباء اليسوعيين في كليّة بغداد (الصليخ) حين استخفّ الأب باورس بالسعر قائلا: يعني ١٠ كولا!! وسرعان ما دفعت الرئيسة مسبقا ٤٠ دينارا عن ٢٠٠ اشتراك، واعتقد أنّ اليسوعيين أيضا دفعوا مسبقا ثمن ١٠٠ اشتراك... وهكذا أصبح لدينا ما يُمكّننا من طباعة ثلاثة أعداد!! والأروع هو أنّي بدأت، في حدائق "السنتر" (مركز القدّيس يوسف)، حملة إعلامية ما بين الشباب والشابّات في مختلف الكلّيات والمصارف والمؤسسات الحكوميّة، فضلا عن مدارس الراهبات، وسجّلت أسماء عدد من الّذين أقمتهم "وكلاء"، وعلى رأسهم وكيل عام في شخص خالد لورنس -وسيعقبه في المهمّة لبيب حزراوي وكليمان حونستن ونبيل يوسف- وقد تحمّس لهذا المشروع الثقافي الجديد، في غياب أيّة وسيلة ثقافيّة إعلامية في كنيسة العراق.

(٢٥) اذكر أننا تجاوزنا حدودنا يوما مع العدد الذي تناول "إنجيل برنابا" بقلم الأب ميخائيل جميل، حين أشّر الأستاذ لطفي على فقرات كاملة كان علينا أن نحذفها، فلم يكن لنا سوى خيارين: إما نتنازل عن نشره أو ننشره كما هو، وكان خيارنا هو الثاني! ولكنّي أذكر كيف جئت إلى الوزارة وأنا حامل نسخة

رئيس دائرة الرقابة في الوزارة آنذاك، وكأنّ الأعداد "كتيّبات" مستقلة نضع لها ترقيما! وبقينا على هذه الحال على مدى الحلقات الثلاث الأولى (١٩٦٤- ١٩٦٦).

لم تكن هناك مشكلة تذكر مع الوزارة، إلى يوم أطلعني الأستاذ لطفي أنّ الطريقة التي سرنا عليها حتى الآن لم تعد مقبولة لدى الوزارة، ويتوجّب علينا تقديم طلب بالامتياز، حتى وان واصلت "السلسلة" مسيرتها على هذه الشاكلة... انّه منعطف جديد، كان علينا فيه أن نتهيّأ للحصول على امتياز من الوزارة مع صاحب امتياز ورئيس تحرير... وكان يتوجب على صاحب الامتياز أن يكون عضوا في غرفة التجارة. ولم نجد آنذاك غير صديقنا القديم سعيد بلّو، أحد تلامذة مار يوحنّا الحبيب القدامى... ولا زلت أذكر أنّي قابلت وكيل الوزارة الأستاذ شاذل طاقة حين تعثّرت الأمور، ومن ثمّ الوزير ذاته السيد مالك دوهان الحسن -وكانت المقابلة آنذاك يسيرة، حين كان يكفي أن أتقدّم من السكرتيرة بحقيبة دبلوماسيّة استعرتها في حينه للمناسبة (!)، ولم تطل المقابلة التي تمخّضت عن موافقة الوزير بمنح "الفكر المسيحي" امتيازاً بتاريخ ١٩٦٨/٥/١٨ بصفتها "مجلّة دينية شهريّة تصدر في الموصل".

لم يفهم قرّاؤنا ما حدث حين لم يتأخر كثيرا ظهور العدد السادس من الحلقة الرابعة حاملا الرقم ١/٤٦ وفي الغلاف الداخلي هذه الديباجة: السنة الأولى- رقم ١!! "وبقيت السلسلة" تواصل ظهورها، بعنوان "الفكر المسيحي"، دون عبارة "سلسلة"، كونها، في عرف الوزارة، مجلة مسيحيّة شهريّة. وحين بلغنا الرقم ٥١ (الأول من الحلقة السادسة لعام ١٩٦٩) أصدر حزب البعث في ك٢ ١٩٦٩ -بعد ثورة ١٧ تمّوز ١٩٦٨- قانون الصحافة الجديد الذي قضى بإلغاء كافة امتيازات الصحف والمجلاّت... وكان علينا أن نتقدّم بطلب إلى وزارة الإعلام، وسرعان ما رفض الطلب! فكانت محاولات كثيرة من هنا وهناك لاستحصال الامتياز، توقفت خلالها "الفكر المسيحي" قرابة عشرة أشهر... ولا زلت أذكر مقابلتي برفقة السيد سلام جميل لمدير الصحافة آنذاك الأستاذ حسن العلوي حين قلنا له أنّ الحزب لم يعلن بعد علمانية الدولة!!

وأخيرا، وبعد كرّ وفر، قررت الوزارة منح امتياز لمجلّة مسيحيّة على أن يكون

مطبوعة من العدد -قبل توزيعه- لأسأل صديقنا ماذا سيترتب علينا إذا أطلقنا العدد كما هو؟! فلم يكن منه سوى ابتسامة كان فيها اللوم والإعجاب معا، وقال: عملتها؟ فلا تخشَ الآن، إلا إذا كان هناك اعتراض من جهة ما، وحينذاك تضطر الوزارة أن تطالبكم بالنسخة الموقّعة والمختومة...

لصاحب امتيازها موقع كنسي، فلم يكن مني سوى أن أقدّم على الفور اسم المطران عمّانوئيل بنّي، وعدت إلى الموصل احمل البشرى! وصدر القرار بمنح الامتياز في ١٩٦٩/١١/٢٥. فما كان منّا سوى أن نواصل الإصدار، بدءا بالرقم ٥٢ (الثاني في الحلقة السادسة لعام ١٩٧٠) ريثما نبلغ الرقم ٦٠، فنحوّل "الفكر المسيحي"[٢٦] إلى مجلّة شهريّة جامعة، في بدء العام ١٩٧١ (٣٢ ص من الحجم الكبير ١٧×٢٤ سم). وستذهب باطراد النمو، سنة بعد سنة، لتبلغ ٤٨ ص –وسيتضاعف محتواها بفضل التنضيد التصويري الذي ترجع بداياته إلى عام ١٩٨١، إلى أن اعتمد كلّيا عام ١٩٨٣، مما أتاح لها أن تفسح مكانا أوسع للصور.

وكانت الفكر المسيحي قد ابتلعت أكثر من نصف حياتي الكهنوتية (١٩٦٤-١٩٩٤)!- كما ابتلعت أكثر من نصف حياة الأبوين جرجس ونعمان، الأول في التحرير والثّاني في الإدارة. إنه مشوار رائع قضيته معها وفي خدمتها، حين كانت لأجيال من القرّاء نورا وغذاء، وبالأخص رجاء لكنيسة أردنا ملاحمها تتسم بنفحة المجمع المسكوني..."لقد كانت بحق صوتا نبويّا، وان تعرّضت لحملات هوجاء لم تقوَ على أن تثنيها عن خطّها الفكري واولويّاتها الإعلامية"!- كتبتها في ١٩ تموز ٢٠١١ تذييلا للكتاب –الهديّة الذي أخذت دار بيبليا تعدّه لمناسبة اليوبيل الكهنوتي الذهبي، وهو يجمع بين دفّتيه كل إسهاماتي في المجلّة، وعلى مدى ثلاثين عاما- وتابعت: "يكفيها فخرا وعزاء أنّها واكبت جيل الستينات، متحاوبة مع تطلّعاته في عالم أكثر عدلا وأكثر إنسانية، وفي كنيسة متجددة أبدا، تصغي لصوت الروح وتشهد لقيم الحب والحقّ والحريّة والسلام، ولا تخشى أن تقول كلمتها النبويّة في قلب الصراعات والتحوّلات التي شهدها العالم، وعلى أكثر من صعيد...".

---

(٢٦) هنا لا بد لي أن أروي موقفاً كان لي مع البطريرك بولس الثاني شيخو يعكس بداية الصدامء تجاه الفكر المسيحي، وقد ظل يتصاعد على مدى سنين! فحين كانت "الفكر المسيحي" على عتبة العام ١٩٧١، كان عليّ أن اقوم بزيارة شكر للبطريرك شيخو لحضوره مأتم والدتي الراقدة عام١٩٧٠، واستحسنت آنذاك أن أطلب رأيه في الفكر المسيحي وهي على عتبة مرحلة جديدة... وسرعان ما اغتاظ بشدة، متّهما إيّاها بالانحراف وإفساد أخلاق الشباب... وتركني ومضى حانقا!
وكانت والدتي قد أصيبت بمرض السرطان في العظام، واستُدعيت إلى بغداد قبيل وفاتها، وسافرت للحال وفي ظني أنها قد فارقت الحياة... إلاّ أن "صحوة الموت" مكّنتني من أن أراها وأتمتع بنظراتها الوالدية وأقضي ليلة عند سريرها... وسأبقى أذكر باعتزاز حين تلقيت في اليوم التالي نبأ رقادها كيف هرعت إليها وكشفت عن وجهها الملائكي فأغرقته بدموع وتنهدات طفولية...

ولما كانت مسيرتي مع الفكر المسيحي[٢٧] طويلة وشاقّة، عذبة وثريّة، امتزجت فيها الظلال بالأضواء... كان لا بدّ لي هنا أن أتوقف عند بعض المحطّات الكبرى، تاركا فجوات سيملأها ولا شك العارفون بالفكر المسيحي، وبينهم كثيرون رأوا فيها جوابا على تساؤلاتهم وتجاوبا مع تطلّعاتهم وأمانيهم في كنيسة عراقيّة حلموا وما زالوا يحلمون بتجددها، ولها من تاريخها التليد ما يمكّنها من النهوض واللحاق بشقيقاتها كنائس الله في العالم.

مع مطلع ١٩٧٧، وتزامنا مع انتقال الطباعة إلى بغداد، اتّخذت الفكر المسيحي مسارا متميّزا في خط فكري يعطي الاولويّة للإعلام المسيحي، وهو في حدّ ذاته ثقافة وتربية، وذلك من منطلق ان المجلة مطالَبة بأن تبثّ لقرّائها ما يجري في الكنيسة من أحداث في جميع المجالات، سواء كانت لها أم عليها، وعلى الصعيد المحلّي كما على الصعيد العالمي. فكان، أولا، تحديد واضح للأهداف، لنكون نحن والقرّاء على بيّنة وعلى موجة واحدة من التفاهم! ولعلّ أبرزها: المجلّة "لا تدّعي أنّها لسان الكنيسة الرسمي، بل الناطقة باسم المسيحيين العراقيين"، وفي ذلك ما يوضّح طبيعتها ورسالتها ويحدّد هويّتها بإزاء السلطة الكنسيّة، في الاحترام المتبادل. وانّي مع هذا البعد الزمني الطويل، استطيع أن أعزو كلّ الأزمات والصراعات التي عرفتها الفكر المسيحي إلى انتظارات من جانب السلطة لم تكن في محلّها!

ومنذئذ انطلقت المجلة بأبواب ثابتة، بعضها مثير، من مثل "قضايا راهنة" و"المنبر الحر" وما فيهما من صرخات، فضلا عن الافتتاحيّة والهمسات اللتين لا تخلوان من نقد خفي، ناهيك عن "الأنباء" التي اتّخذت حيّزا كبيرا وكان لها وقعها عبر خيار أعطى الاولويّة للنبأ الذي يحمل في طيّاته نداءات تلتقي مع نداءات الإنجيل[٢٨]... ولعلّ التميز

(٢٧) في غيابي عن المجلة (١٩٧٢- ١٩٧٦) للدراسة في بلجيكا، كان الأب جرجس قد أبلى بلاء حسنا، وعلى مدى أربع سنوات، أفسح خلالها مجالا للمقالات التي كانت وما زالت تعتبر "ثوريّة" وخارجة عن المألوف... إلى جانب مجال للأقلام الشابّة في مجالات الأدب والشعر والقصّة... ولعلّ أبرز ما تميّزت به السنوات الأربع من رئاسته التحرير، إقدامه على إصدار عددين خاصّين تميّزا بتقدميّة الطروحات وعمق المعالجات، أولهما "المسيحي في مجتمعه" (١٩٧٤)، والآخر في "قضايا الجيل الجديد" (١٩٧٦) وما له من انتظارات وتطلعات... ومنذئذ لم تتوقف الأعداد الخاصّة التي تعتبر قلادة زيّنت صدر المجلّة على مدى سنين!

(٢٨) كان لبعض الانباء والتحقيقات والملفات الاعلامية مساس من طرف خفي بسياسة العراق في ظل نظام صدام حسين. وأفهم اليوم، أكثر مما مضى، لماذا كان مدير أمن نينوى -وكان يتابع المجلة عن كثب- يحتج بكياسة ولطف على طروحاتنا بشأن دول أمريكا اللاتينية تحت ظل سياسات الأمن

الأكبر كان في تكثيف "الملفّات" الإعلامية التي رسمت لوحة متكاملة عن كنائس في بلدان العالم، إلى جانب "الملفّات" الدراسيّة التي اتّصفت هي الأخرى بدسامة المضمون وعمق الطرح[٢٩]، وسيصدر كتابان يوثّقان مقالات من كانا وراء "الفكر المسيحي" طيلة ٣٠ عاما[٣٠]، بمناسبة يوبيلهما الكهنوتي الذهبي. كما سبق أن وثّقت مقالات لعدد كبير كبير من المحرّرين والكتّاب[٣١].

ويشهد الله أنّنا لم نبتغ الإثارة في كلّ ما نشرناه، وإنّما الإثارة بدت إثارة في نظر من لم تكن لهم مفاهيم واضحة عن طبيعة الصحافة وأساليب عملها، مع ما لها من قدرات وحدود معا... ألم تلقّب بـ"السلطة الرابعة"؟ ولكنّها في الواقع "سلطة" تطالَب أكثر ممّا تطالِب! وكانت الإثارة الكبرى حين أعلنت نشرة باسم "الكنيسة" كانت تصدر بأربع صفحات، عن بطريركيّة بابل الكلدانيّة، في عدد ١٩٩٧/٤/٢٨، ما نصّه: "نُعلِم أبناءنا الاعزاء أن مجلة الفكر المسيحي تتضمن أبحاثا لا تتفق مع الإيمان المسيحي"! وكنّا في حينه قد رددنا على صفحات الفكر المسيحي (عدد أيار ١٩٧٧) بهذا الجواب: "من حق الفكر المسيحي أن تطالب القيمين على النشرة المذكورة أن يكونوا أكثر صراحة ويطلعوا القراء على صفحات نشرتهم حول تلك "الأبحاث" لتكون والقرّاء على بيّنة، ولا يتّهم أحد في غير فعله"! ولم يعقب ذلك لا جواب ولا استجواب!!

وليسمح لي أن اشبّه الآن هذا التحرّش بتحرّش على الحدود بين بلدين يفرز مناوشات قد تتمخّض عن حرب لا مندوحة منها، على مثال الحرب العراقية-الإيرانية التي اضفيت عليها صفة القدسيّة، من جانب ومن آخر، استنزفت في حينه قوى البلدين

القومي التعسفية -وقد كانت لنا بمثابة متنفس لنا للإشارة إلى معاناتنا- داعيا إيانا إلى التخلي عن مثل هذه الطروحات لصالح اهتمامنا بالعراق ومنجزاته الثورية!

(٢٩) وثقها كتاب في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"، رقم ١٠، بعنوان "ملفات الفكر المسيحي" (دار بيبليا للنشر، الموصل ٢٠١١).

(٣٠) صدر في حزيران ٢٠١٢ الكتابان التوأمان: "من البيدر العتيق" للمطران جرجس القس موسى و"ثلاثون عاما مع القلم" للأب بيوس عفاص في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"، الرقم ١١ و١٢-دار بيبليا للنشر، الموصل ٢٠١٢.

(٣١) صدر "المختار من الاعداد الخاصة" في سلسلة "مختارات"، الرقم ٨- دار بيبليا للنشر، الموصل ٢٠٠٨. كما صدر كتاب خلّد كُتّاباً سبقونا إلى بيت الآب (عبد السلام حلوة، فرنسيس فان ستابن المخلّصي، خليل قوجحصارلي، نجيب قاقو، يوسف حبي) بعنوان "كتّاب رحلوا وتركوا اثراً"، سلسلة "مختارات"، الرقم ٩- دار بيبليا للنشر، الموصل ٢٠١١.

الجارين وخرجت بنتيجة: لا غالب ولا مغلوب! وهنا أوّد أن أوضح بانّ ما كتبته واكتبه بشأن السلطة، إنما هو مجرد استذكار، وليس الهدف منه البتة تصفية حسابات، وهي متروكة ليوم الحساب!!

إلاّ أنّ الحملة الكبرى على "الفكر المسيحي" كانت حين التأم مجلس أساقفة العراق في عام ١٩٧٧ -وكأنّه لا يلتئم الاّ لشؤون جانبية، تاركا القضايا الكبرى التي كانت تقتضي معالجات جادة تخصّ مستقبل المسيحيّة في هذا البلد- ليبحث في "قضيّة" الفكر المسيحي! وكأنّها القضيّة رقم ١، وخرج آنذاك السادة أساقفتنا الأجلاء، من الطوائف الكاثوليكية كافة، وكان على رأسهم البطريرك مار بولس الثاني شيخو والسفير البابوي في العراق، **المونسنيور جان روب** (+)، وخرجوا بقرار يقضي بتعيين لجنة رقابة كنسية على المجلة تخضع لها كافة المقالات قبل الطبع -ويا للمفارقة! فقد استثنتنا وزارة الإعلام من الرقابة في زمن لم يكن يمرّ مطبوع دون رقابة مشددة! وجاءتنا الرسالة عبر أمين سر المجلس **المطران (البطريرك) جان كسباريان** (+) وقد وقّعها الأساقفة كافة ومعهم المطران عمّانوئيل بنّي الذي عرفنا من ثمّ انه تعرّض لضغوط شديدة...

واجتمعنا نحن أيضا لنتدارس الوضع ونتخذ الموقف الذي تمليه علينا مهمّتنا الصحافيّة وتفرضه علينا رسالتنا الاعلاميّة في خدمة الكلمة الحرّة. وقرّ الرأي على الإجابة برسالة رصينة تضع النقاط على الحروف وتستخلص النتائج، يطيب لي أن أثبتها هنا -وهي فرصتها، وان كانت معروضة في جناح الفكر المسيحي في متحف مار توما- والرسالة مؤرّخة في ١٠ أيار ١٩٧٧ ومعنونة إلى المطران جان كسباريان.

بعد مقدمة وضعت النقاط على الحروف بشان انطلاقة "الفكر المسيحي" بمبادرة كهنة يسوع الملك، دون ان يحصلوا على اي دعم مادي من السادة الاساقفة، وانها مجلة "مسيحية" تسعى إلى تحريك المياه ووضع عجلة التجديد في كنيسة العراق وعلى مختلف الاصعدة، بوحي من المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني... وهي "لا تدّعي أنها لسان الكنيسة الرسمي، وانما الناطقة بلسان المسيحين العراقيين، امينة على اهدافها، في ان تكون صدى للرأي العام في الكنيسة، وامينة على طبيعة العمل الصحافي، في التزام لمقوماته واحترام لقرائها الذين يحق لهم ان يحصلوا على اعلام موضوعي ونزيه ينقل ما يجري في الكنيسة، لها أم عليها... وهكذا أخلصت الرسالة إلى النقاط التالية:

- اننا نتقبل كل نقد بنّاء من قرائنا وعلى راسهم السادة الاساقفة الاجلاء حول

المقالات المنشورة، على ان يتم في جو من الحوار. ونحن، إذ نحرص على ان نكون على صلة وثيقة بالسادة الاساقفة، نأمل ان يوافونا بمقالات يضمنونها وجهة نظرهم حول ما ينشر من ابحاث قد يرون فيها انها "غير مطابقة كليا مع التعليم القويم في الكنيسة" كما جاء في النقطة الثالثة من رسالتكم. ونود ان نلفت انتباهكم إلى اننا لم نتلقَّ اي مقال أو أي تصحيح خطي طلب منا ان ننشره ولم ننشره، وناسف أن نؤاخذ جزافنا على هذه النقطة.

– ساءنا ان يتخذ السادة الاساقفة في الاجتماع الذي عقدوه قرارا غيابيا بشان المجلة دون أن نُستدعى إلى نقاش معهم حول المآخذ التي لهم على المجلة. ان قرارا كهذا لا يتفق مع حق الانسان في ابداء وجهة نظره والدفاع عنها، فذلك من الاعراف المعمول بها في العالم اجمع، وكان ينبغي أن يعمل به السادة الاجلاء اذا كانوا من الموقنين بحق كل انسان في حرية الرأي وحرية التعبير عن الرأي والدفاع عنه.

– نرفض بكل اخلاص وصراحة القرار المتخذ من قبل السادة الاساقفة بتعيين لجنة تشرف على المجلة، ونعتبر هذا القرار انتهاكا لحرية الصحافة وحدا من حرية التعبير، فضلا عن كونه يناقض الاجراء الذي اتخذه الكرسي الرسولي برفع الرقابة عن الكتب ووسائل الابلاغ، والمعمول به في معظم المجلات المسيحية التي لا تخضع لاية رقابة كنسية. كما نعتبره انتقاصا من كرامتنا. وعليه نعتبر انفسنا غير ملزمين البتة بهذا القرار.

ومن الطريف اني حين حملت الرسالة لاطلع المطران بني على مضمونها، قرأها مبتسما، وكانت ردّة فعله قهقهته المعهودة، رافقتها عبارة: ماذا سيحلّ بهم؟! فأردفت: سيادتكم من ضمنهم!! واتفقنا أن يحملها هو إلى أمين السرّ الذي سيترتب عليه هو الآخر، إما تكثيرها وتوزيعها على الموقّعين بأجمعهم، أو دعوتهم إلى اجتماع خاص يقرأ فيه الردّ! ولم أعد أعلم ما جرى؟ ولا أي خيار تمّ؟ والاهم أنّ الموضوع برمته أغلق...

واستمرّت الفكر المسيحي في الجري! وهنا تحضرني مقاربة مع خاتمة لوقا لسفر أعمال الرسل بشأن القديس بولس الذي مكث سنتين في انتظار محاكمة، أمام القيصر، لم تتم، كان خلالها: "... يعلن ملكوت الله ويعلّم بكلّ جرأة ما يختص بالرب يسوع المسيح، لا يمنعه أحد "! (أعمال الرسل ٢٨: ٣١). وكانت، بعد ذلك اليوم، محاولة منّا لتحسين العلاقات مع البطريركيّة الكلدانيّة: كنّا نعدّ العدد الخاص عن كنيسة العراق لعام ١٩٨٦، وتوجّهت إلى المطران (البطريرك) عمّانوئيل دلّي بطلب تثبيت إحصائية للأبرشية

البطريركيّة في بغداد، وإدراج الأرقام وفق ما يحددها هو... ولم يسفر اللقاء عن استجابة، بل أسفر بالعكس عن توتّر وارتفاع في الأصوات زاد في الطين بلّة![٣٢]

والحديث بشأن الفكر المسيحي في مسيرتها الطويلة، لا يوجز ببضع صفحات... لذا سأعود إليه لدى استذكار اليوبيل الفضّي (١٩٨٩) وما رافقه من مهرجان لا يُنسى، لأخلص إلى عملية التسليم والتسلّم (١٩٩٤)...

دير مار اشعيا-لبنان ٢٠١١/٧/٢٦

(٣٢) تحسنت العلاقات في أعقاب زيارة قمت بها لسيادته لتهنئته بالسلامة بعد عملية جراحية في القلب، ممّا حفّزني على طلب طالما تمنّيناه: أن يكون للمجلّة مقابلة مع غبطة البطريرك أو مع سيادته بصفته المعاون البطريركي... وكانت استجابة منه لم أصدّق أنها تتحقق! وفي انتظار الاجابة على الاسئلة، انقلبت الحال إلى تهرّب ومراوغة، كان الدافع إليهما التّخلّص من "ورطة" اقتضى تجنبها... وكان ينبغي انتظار جلوس البطريرك روفائيل الأول بيداويذ على كرسيّ بابل، عام ١٩٨٩، لكي تحظى المجلة بمقابلة تلطف بها غبطته (راجع ف. م. حزيران/ تموز ١٩٨٩).

١٩

في الستينات: شاب بين شباب

في الستينات: شاب بين شباب

"هـا.. جئتم؟"! هكـذا استقبلت في مـار تومـا، في عصـر يـوم من ايلـول ١٩٦٧، ستة شباب جامعيين كان في نيتي أن ابثّ فيهم روح العمل الرسولي في نطاق حركة شبابية رسولية كنت قد تعرّفت على احدى فرقها في حلب[٣٣] ابان اسبوع الالام من عـام ١٩٦٤ -وكـان ذهـابي الى حلـب تلبيـة لطلـب **المطـران (البطريرك) انطون حايك** (+٢٠٠٧) من المطران بني ان يوفد احد كهنة يسوع الملك لالقاء موعظة الجمعة العظيمة في كاتدرائيته!

وما ان اكتمل عددهم، وقد تجمّعوا في غرفة اجتماعاتنا، واذا بي اقف بهم، متأبطا كتبي، وبضمنها دليل الشبيبة، لأقول لهم: "هـا.. جئتم؟" -ولكـم سيتندر بهذا السؤال اولئك الشباب انفسهم، وعلى مدى سنوات طويلة، وقد جئتهم آنذاك بطبخة جاهزة! وشرعت على الفور اتحدّث اليهم عن رسالة العلمانيين التي كان المجمع المسكوني يتدارسها انذاك في جلساته... لأصل بهم الى بيت القصيد: انتم مدعوون لتكونوا رسلا إلى اخوتكم الطلبة في جامعة الموصل -وكانت هي الاخرى في اول الطريق؛ وكان المسيحيون فيها يشكلون نسبة تفوق خمسة اضعاف نسبتنا في الموصل والعراق!

انها الشبيبة الطالبة المسيحية (J.E.C.)-ويرقى تاسيسها في الموصل إلى يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٤-[٣٤] التي سنضطر، منعا للخلط، وتجنباً للمشاكل، الى ان نسميها "الاخوية الطلابية المسيحية"! فلقد شقّت طريقها الى طلبة جامعيين

---

(٣٣) كانت اقامتي القصيرة في حلب فرصة خيرة لا تنسى، تعرفت خلالها على نشاطات تميزت بها حلب، ومن زمن بعيد، ولا سيما على مستوى العلاقات بين الطوائف المختلفة... وما زلت اذكر النشاطات التي كان يحتضنها النادي الكاثوليكي، وفي المقدمة حركات العمل الرسولي المختص كالشبيبة العاملة المسيحية والشبيبة الطالبة المسيحية -وقد حملت معي "دليلها". كما اذكر اني رافقت فريق الكشافة في رحلة الى تدمر، كانت هي الاخرى رحلة لن تمحى ذكراها، تعرفت من خلالها على روح الكشافة واساليب عملها....

(٣٤) راجع الحاشية ص ٨٢.

تسكنهم طاقات كبرى يودّون أن يوظفوها في عمل جاد، خدمة لسائر زملائهم. وكان الستة الاوائل (ابلحد، قوريللوس، حبيب،جورج توما، جورج وديع، انطونيوس) باجمعهم من كلية العلوم، اولى كليات المجموعة الثقافية بعد الطبية، وكان عليهم أن يكتشفوا طرق العمل الرسولي ويعتمدوا اسلوبا في الرسالة يقوم على الكلمات الثلاث: انظر، احكم، اعمل، يستخدمونها في تأملهم بالانجيل ومقاسمته، كما في مراجعة الحياة انطلاقا من احداث واقعية تجري في المحيط الجامعي، سواء في حرم الجامعة ام في الاقسام الداخلية...

وعادوا الى اجتماع ثان وثالث الى ان استقر بنا المطاف الى اجتماعات نظامية، سرعان ما برز فيهم ابلحد مسؤولا -وكنت اعدّ واياه الاجتماع، وهو يسير به، لأبقى انا في موقع المرشد. وهكذا، على مدى سنة اولى، كانت ملامح "الشبيبة" ترتسم، بحيث تمكّنت، في السنة التالية، من انشاء فرقة اخرى للعلوم من بنات العلوم، ريثما يتم في السنة الثالثة دمج الفرقتين وتوزيع اعضائها على فرقتين مختلطتين!! وكان اول نشاط قامت به الشبيبة هو دعم مشروع "الندوة الدينية للجامعيين" في العام ذاته حين تكثفت الجهود لدعوة الطلبة الجامعيين من كل الكليات الى لقاءات ثقافية اسبوعية، كانت فرقة الشبيبة الاولى تعمل فيها كالخميرة في العجين! وهنا يحضرني مشهد اصبح اليوم من النافل ذكره، وهو حين رحنا نبذل الجهود لكي تستقبل الندوة عددا من الفتيات الجامعيات -وكن يعددن على الاصابع! كانت اتصالات بهن لاقناعهن بالدخول الى الندوة- ولطالما سميته، بدافع المزح، "يوم الدخلة"! فحين اكتمل عددهن، ولم يكنّ سوى خمس فتيات بقيادة فريال توزي، أفرغت مكانا لهن في صالون مار توما ونزلت الى الفناء لاتقدّمهن الى الصالون حيث جلسن ولم يرفعن رؤوسهن، كما لم ينبسن ببنت شفة طيلة ساعتين!

انها ذكريات البدايات التي سجلت منعطفا في حياة كنيسة الموصل في منتصف الستينات حين احتضنت الندوة اكثر من ٧٥% من الطلبة المسيحيين، وسرعان ما لم يعد صالون مار توما يستوعبهم، فقرّ الرأي على توزيعهم على ندوتين: الخميس، بارشادي، لطلبة المرحلتين الثالثة والرابعة، والجمعة لطلبة المرحلتين الاولى والثانية بارشاد الاب نعمان ؛ فيما انطلقت في الوقت ذاته ندوة

لطلبة الطبية والصيدلة مع الاب خليل قوجحصارلي، تبعتها بعد ذلك بسنة او اكثر ندوة الايمان للطلبة الناطقين بالسريانية. واقولها اليوم: لقد كانت بداية المدّ القومي وبروز الخصوصيات القومية والطائفية، مع الاب بطرس يوسف ومن ثم مع **الاب يوسف حبي (+٢٠٠٠)**.

وفيما كانت الندوة الجامعية تواصل مسيرتها، كانت الشبيبة تتوسع سنة بعد سنة ليكون لها فرع جامعي بثماني فرق في مختلف الكليات، بما فيها كلية البنات والزراعة والغابات في الحمام العليل... وفرع ثانوي لفرقتين في ثانويتين للبنات وفرقة في ثانوية للبنين. وكان يزداد عدد المرشدين ليتسلم كل منهم فرقة او اثنتين، بدءا بالاب فرج -وقد كان قد تعرف على الاخوية الطلابية في بغداد بارشاد الاب روبير- والاب نعمان، **والاب عبد السلام حلوة (+١٩٨٣)**، في سنة تواجده في الموصل -وكان هو ذاته من قدامى الشبيبة في بغداد- والاب جرجس والاب البير، وسرعان ما اقتضت الضرورة باقامة فرقة المسؤولين (المسؤول العام ومسؤول الفرع الجامعي ومسؤول الفرع الثانوي مع المرشد العام)، عبر اجتماعات دورية لمسؤولي الفرق من جهة، وللمرشدين من جهة اخرى... وكانت هناك لقاءات شهرية عامة، فضلا عن نشاطات ثقافية واجتماعية عامة، من حفلة تعارف[٣٥] وسفرة او سفرتين في السنة. ولابد ان اشير الى مجلة اصدرتها الشبيبة، وباقلام الشباب ومساهماتهم... وكانت تطبع على الالة الكاتبة مع التخطيطات والرسوم وتكثّر بالرونيو بدأ بها المرحوم حبيب حنينا وواصله ضياء توزي.

وهنا يحضرني عتاب توجه به المطران بني الى هذه الحركة الشبابية الجديدة على كنائس الموصل بالقول: كل مرة آتي الى مار توما اراها ملأى بالشباب!! وما عتابه هذا إلا لأنه كان قد تلقى رسالة مغفلة يتهجم صاحبها على هذه التجمعات ويشهّر بها... وهي ولا شك بقلم معقد -لا اشاء أن اشهّر به- لم يحتمل اهتمام الكنيسة بالشباب ولم تكن له القدرة أن يستوعب مسؤولية الكاهن في رعاية الشبان والشابات وتوجيه طاقاتهم الحيوية الى ما فيه نموّهم المتوازن

(٣٥) على ذكر حفل التعارف، كانت حفلة مقررة في خريف ١٩٧١ تزامنت مع وفاة والدتي... فلدى عودتي من بغداد، بعد مراسيم العزاء، جاء منظمو الحفلة ليقترحوا الغاء الحفلة! وحين رفضت بحزم، تشجعوا فطلبوا مني الحضور، ونزلت عند طلبهم!

وتقدمهم في العلم والايمان. ولكم كان سيادته[٣٦] -رحمه الله- يتأثر بما يقال! ففيما تكون له احيانا الشجاعة على الرد في حينه، سرعان ما يعود فيصبّ ملامته علينا، متناسيا كل الخير الذي كانت تحققه تلك النشاطات، وفي مقدمتها الشبيبة التي كانت لها رياضات روحية دورية وقداديس خاصة شهرية، وكان لمعظم اعضائها مرشدون شخصيون يلتقون بهم باستمرار في أمر تقدمهم الانساني والروحي...

وهنا لا بد لي ان اقول واصرّح: كان لنا هولاء الشباب بمثابة قدوة ولا اعظم! فلقد كانوا يحملون الينا، من حيث لا يدرون، اكثر مما كنّا نحن نحمل اليهم! ولكم خجلت من نفسي بازاء نفوس شفّافة كان لها اصغاء عميق لنداءات الروح! وكان لبعضهم او بعضهن احساس مرهف بمكانة الانجيل في حياتهم، وسعي حثيث الى عيشه والشهادة له. ولئن كنا نحن المرشدين احيانا مربّين لهولاء الشبان والشابات على صعيد النمّو الانساني[٣٧] وصقل الشخصية واستقامة العلاقات... فلقد كان لنا في الوقت ذاته همّ في انماء حياة روحية عميقة لديهم ما زالت آثارها حتى اليوم مغروسة في اعماقهم، حتى انهم ورّثوها لابنائهم وبناتهم!

---

(٣٦) ما دمت في ذكر المطران بتي، لا انسى اني قصدته يوما لاحيطه علما برياضة مقفلة يقوم بها عدد من شباب الاخوية لمدة ثلاثة ايام -وتلك مبادرة كانت نادرة آنذاك- فكان سؤاله، مع ابتسامة تخفي شيئا من السخرية، عن عددهم ومن سيرافقهم؟ وجاء احتجاجه أكبر حين علم بأن مرشدين يرافقان ستة او سبعة اشخاص؟! ومع ذلك، فقد جرت الرياضة في "اجواء ملاكيّة" كما صرّح بذلك احدهم!

(٣٧) لا اخفي اني كنت اعجب احيانا من تساؤلاتهم بشأن الجنس والزواج مما يوحي بتوعية جنسية ناقصة جدا أو معدومة... وما زلت أذكر أن فتاة شكت مرشداً نصحها بقراءة كتيب للفتاة بعنوان "من يجيبني؟"! كما لن انسى اخرى سألتني اذا ما كان الزواج خطيئة؟! في حين تجرأت أخرى وسألت: وانت اليس لديك مشكلة؟ وحينذاك اتخذ الارشاد وجه صداقة روحية عميقة بيننا. وسيبقى طيّ الكتمان ما آلت اليه مساعيّ الحثيثة في حفظ احداهن من الانزلاق وراء حبّ في غير مكانه... ولكنها كانت وما زالت ماثلة امامي، ولم يعد لي سوى الصلاة من اجلها.

وعلى ذكر المشاكل التي كانت تتعرض لها فتياتنا في الجامعة، فلست اكشف سرّا اذا قلت بأن الكثير من جهود الشبيبة الطالبة المسيحيّة كانت قد انصبّت لمعالجة تلك القضايا، تخف خطورتها حين يتم تكثيف الجهود منذ بدء الازمة. وبقدر ما كانت تلك الهجمة على فتياتنا مكثّفة، كانت ايضا جهودنا مكثّفة في التوعية، ولاسيما من خلال الصداقة التي كانت بنات الشبيبة يعقدنها مع اللواتي كانت علامات الاستفهام تحوم حولهنّ. فمن اجل ذلك كان التركيز من جانب الاعضاء الى احتضان طلبة وطالبات المرحلة الاولى ودعوتهم للحال الى الالتحاق بالندوة الجامعية -ولكم حلّت مشاكل قبل ان تصل الى مسامع الاهل!

وبعين الاهتمام والشعور بالمسؤولية، كان الاعضاء يسعون الى تطعيم المحيط الطلابي بقيم الانجيل، بدءا بشهادتهم المسيحية، في الالتزام بالدوام والجّد في الدراسة والنزاهة في الامتحانات، بعيدا عن الغش... فلكم سعى الاعضاء الى محاربة الغش والى معالجة كثير من المشاكل الطلابية... ولطالما طُرِحَت أحداث في "مراجعة الحياة" حين كان الاعضاء ينكبّون على حدث جرى او يُحتَمَل أن يجري، فيحللون اسبابه العميقة ويحيطون بكل جوانبه وانعكاساته، بلوغا الى مرحلة الحكم حيث يسلّطون اضواء الانجيل وفق مبدأ: "لو كان المسيح هنا، كيف كان سيتصرّف؟" ومن ثمّ ينطلق العمل وفقا لما تكون المناقشة قدخرجت به من قرار. ولا زلت اعجب حتى اليوم بمسؤولي ومسؤولات الفرق في تنشيط تلك المراجعة وفسح المجال لمشاركة الجميع في النقاش والخروج بنتائج عملية...

وكان الانتماء الى الشبيبة يخضع لمواصفات وشروط، قبل ان يصبح بوسع العضو ان يمارس رسالته بشكل فاعل. فبعد فترة من الاختبار في حلقة خارجية، يقرر دخول العضو وانتسابه الى احدى الفرق بحسب الكليات. وتمضي سنة على الاقل قبل ان يسمح له باداء القسم والحصول على الشارة. وتجري حفلة القسم في اطار قداس برعاية الاساقفة، وفي ختامه يتقبل المسؤول العام مجاهرة العضو بقسمه عبر هذه العبارة الرائعة: "امام المسيح قائدي وامام العذراء أمي وامامكم جميعا أيها الاخوة، اتعهد بملء حريّتي أن احمل شارتي بكل شرف واباء". وجرى اول قسم لمجموعة اولى من فرقتي العلوم والهندسة بحضور الاب روبير الكرملي الذي كان من جانبه قد اطلق في بغداد الشبيبة باسم الاخوية الطلابية... وبدا آنذاك وكأن على شبيبة الموصل[٣٨] أن تكون تابعة للمركز!

وجاء حكم البعث عام ١٩٦٨ والشبيبة في أوج نشاطها! وسرعان ما

(٣٨) لن أنسى ان المثلث الرحمة المطران عمانوئيل ددي كان قد القى عظة في احدى حفلات القسم كان مطلعها: شباب الكنيسة.. كنيسة الشباب -وقد استخدمته عنوانا لاحدى افتتاحياتي في الفكر المسيحي! وكلما افكر في الشبيبة التي تركت اثرا عميقا في قلبي، تتراقص في مخيلتي اسماء كل اولئك الشبان والشابات الذين مروا بها على مدى ثماني سنوات، وقد يربو عددهم الكلي على المئتين! واخشى ان اذكر اسماء، لئلا انسى احدهم او احداهن! وكلهم اعزاء، قضينا سوية اجمل الاوقات واقدسها وانشطها... واتوقع كم سيملأون من الفراغات لدى قراءتهم هذه المذاكرات! والجميع لهم خبرات وذكريات لا تنسى.

اكتشف الحزب ان الشبيبة كانت قد استقطبت نخبة من الشباب المسيحي (قرابة ١٠٠ شاب وشابة)، فضلا عن حوالي ٧٠٠ طالب وطالبة كانوا في ظل الندوات الجامعية المختلفة. وبدت الكنيسة وكأنها تنافس الحزب في استقطاب الشباب! وهكذا راح البعث يسعى الى تفتيت هذه التجمعات من خلال عناصر تسربت اليها بهدف عرقلة مسيرتها... وسينجح في مسعاه ولاسيما بعد ان اعلن صدام ان لا نشاط خارج البعث! ومع ذلك استطاعت الشبيبة ان تعقد مؤتمرها الاول عام ١٩٧١، وتنجز انشاء وطبع "الدليل" الذي هو المرجع الاساس لعمل الشبيبة ورسالتها. لقد كان المؤتمر الذي عقد تحت شعار "وعلى كلمتك القي الشبكة" اشبه بتظاهرة ايمانية انكب فيها المؤتمر، وعلى مدى ثلاثة ايام، على اسس الشبيبة وطرق عملها عبر محاور للدراسة والمناقشة... وخلدت جدارية تحمل صور الاعضاء، بحسب الفرق، في شكل الحروف الثلاثة الاولى من اسم الشبيبة الفرنسي J.E.C.، تعلوها صور المرشدين في شكل شعار الشبيبة.

من بعد المؤتمر، كان لا بد لنا ان نتسلح بمزيد من اليقظة والحيطة والحذر... فكان حذر اكبر في انتقاء الاعضاء وقبولهم بين صفوف الشبيبة ... الا ان جهودا من الجانب الاخر، كانت تبذل للحدّ من نشاطها واشعاعها... وقبيل عام من مغادرتي العراق للدراسة في خريف ١٩٧٢، كان الاب جرجس قد تسلّم مسؤولية المرشد العام. ولن انسى اجتماع الوداع الاخير، تاركا قلبي لدى كلّ مجاهد ومجاهدة. ولم اجد لكلمة الوداع آنذاك اجمل من خطاب القديس بولس لشيوخ افسس، وقد استدعاهم الى ميليطش ليفتح قلبه قائلا: **"تعلمون كيف كانت معاملتي لكم طوال المدة التي قضيتها... فقد عملت للرب بكل تواضع، اذرف الدموع واعاني المحن التي اصابتني بها مكايد اليهود. وما قصّرت في شئ يفيدكم، بل كنت اعظكم واعلّمكم... وها أنذا اليوم ماضٍ الى اورشليم، أسيرَ الرّوح... ولكني لا ابالي بحياتي ولا ارى لها قيمة عندي، فحسبي ان اتم شوطي واتم الخدمة التي تلقيتها من الرب يسوع، أي ان اشهد لبشارة نعمة الله (...) وانا اعلم ان سيدخل فيكم بعد رحيلي ذئاب خاطفة لا تبقي على القطيع، ويقوم من بينكم انفسكم اناس يتكلمون بالضلال ليحملوا التلاميذ على اتباعهم. فتنبهوا واذكروا اني لم اكفّ مدة ثلاث سنوات، ليل**

نهار، عن نصح كل منكم وانا اذرف الدموع. والآن استودعكم الله وكلمة نعمته وهو القادر على ان يشيد البنيان ويجعل لكم الميراث مع جميع المقدّسين..." (اعمال الرسل ٢٠: ١٨– ٣٢).

وكان غيابي عن الموصل، بعد عشر سنوات من الحياة الكهنوتية، ولا سيما غيابي عن الشبيبة، بمثابة انسلاخ عن الرسالة بعد ان توطدت علاقات بلغ بعضها الى حد كبير من الصدق والصراحة والثقة، ولا سيما مع عدد من المسترشدين والمسترشدات كنت ابذل جهودا في حل مشاكلهم وتنمية حياة الصلاة لديهم... وكنت آنذاك اعتمد في التوجيه كتابا **للاب رنيه فوايوم (+٢٠٠٣)** "صلّ لتحيا" كنت قد بدأت بترجمته لهذا الغرض، وواصلت الترجمة في بدء اقامتي في بروكسل ولم يكن ليبصر النور لولا انكباب الاب جرجس على تنقيحه ابّان بدء دراسته، هو الآخر، عام ١٩٧٧، الى ان اخرجته دار المشرق في طبعته الاولى عام ١٩٨٠. وكان لا بدّ لتلك العلاقات ان تتواصل عبر المراسلة التي كنت اخصص لها وقتا ليس بالقليل، الى ان اضطررت ان اتوقف عنها بسبب الانشغال بالدراسة، فضلا عن كلفة بريدية لم يكن يسعني آنذاك ان اسمح بها لنفسي –وكانت دراستي قد تزامنت مع تأميم النفط وسياسة شد الاحزمة مما اضطرني الى العيش بتقتير وبحدّ ادنى من الانفاق، ومع ذلك لم اقو على ترك السكاير!

وخلال غيابي، وليس بسببه، كان هناك تخطيط من قبل احد اعضاء امانة سر الحزب، سواء بدافع الصعود والارتقاء على اكتاف من كانوا على دينه، أم بدوافع سياسية بعيدة انطلت علينا –ولم يكن الحزب قادرا آنذاك ان يشق طريقه بسهولة الى الشباب المسيحي! وكان ما كان: فقبل نهاية السنة الدراسية ١٩٧٢–١٩٧٣، جرت اعتقالات بين صفوف شباب الشبيبة من مسؤولين واعضاء، ومن بيوتهم! وكانت تلك خطوة دنيئة بهدف وقف نشاط لم يكن يحلو لحزب كان يريد ان يستحوذ على كل الانشطة كي تدور في فلكه، وهو على يقين من ان الشبيبة ليست تنظيما سياسيا وليس لها نوايا في التصدّي للبعث، وانما هي حركة، لها من التنظيم وطرق العمل والاسلوب ما يمكّنها من ان تكون اداة فعّالة في تطعيم المحيط الطلابي بالقيم الانسانية، في الالتزام والجد وروح الخدمة والتعاون...

"حين يقع الثور، تكثر سكاكينه"! ففيما احدثت تلك الاعتقالات صدمة كبيرة لدى أسر الاعضاء وكل مسيحيي الموصل، لم تتّسم مواقف السلطة الكنسية بالجرأة والحزم آنذاك لمساندة شباب تجنّدوا لرسالة املاها عليهم حبهم للمسيح وتعلّقهم بالكنيسة... وكان من المؤلم حقا أن تطلق احكام وانتقادات رخيصة، أو تسمع ردّات فعل فيها من الغرابة شيء كثير، كالتي فاه بها احدهم: لماذا سمحت لابنك بالانتماء الى الشبيبة؟! وفي تلك المحنة الأليمة، فيما كان الشباب يُستجوبون، داخل المعتقل، عن الشبيبة واهدافها وطرق عملها، ويعكسون للمحققين معهم نموذجا في الاخلاق والمعنويات العالية والايمان العميق -ولم يكن في حركتهم ما يدعو الى القلق على أمن الدولة!- كان الابوان جرجس وفرج يتابعان الاحداث بحكمة وشجاعة، ويحملان وجبات الطعام لمن كانوا في داخل الموقف -وبقي بعضهم فيه ثمانية ايّام!- متسلّحين بسلاح الثقة والثّبات... ولكم احتفظ بهذه الثقة بالرب والثبات في قناعاتهم اولئك الشباب الذين هم اليوم اصحاب عوائل، وفي وظائف او مواقع لها وزنها في المجتمع، ولا يزالون، حين يلتقون، يتحدّثون عن خبرة الاعتقال التي زادتهم ايمانا وتمسّكا وغيرة[٣٩].

هذه المحنة التي كنت غائبا عنها، لا اغالي اذا قلت بأنّها اقوى صدمة في حياتي، وقد حملت اخبارها اليّ شقيقاتي برناديت ونوال في رحلة لهما الى بلجيكا... ولم ادعهما تنامان في تلك الليلة وأنا اقرأ رسالة الاب جرجس بالدموع، مستفسرا عن المزيد... سامح الرب كل من كان وراء تلك الازمة التي وضعت حدّا لنشاط كنسي من وزن رفيع... وبعد عودتي من الدراسة، فيما كانت المخاوف ما زالت قائمة -وكنت قد عدت الى الموصل عام ١٩٧٤ لأتفقد الاعضاء الذين مرّوا بهذا الامتحان العسير- فوجئت يوما بزيارة قام بها إليّ أمين سر فرع نينوى ليطيب الخواطر وينحي باللائمة، بوضوح وقوة، على اولئك الذين تصرّفوا باسم الحزب من دون دراية ولا حكمة! وعلمت من ثمّ انه كان من بين الذين صفّاهم صدام

(٣٩) ما أجمل واروع اللقاء الذي تم في شتاء ٢٠١٢ حين قدمت احدى العضوات من استراليا، اليزابيت، واغتنمناها فرصة لعقد لقاء في عنكاوا، لدى الراهبات الدومنيكيات، جمع قُدامى الشبيبة الساكنين في عنكاوا، وهم ابلحد شكوانا وروئيل شمعون وجمال يوسف وغلة ويص وفدوى ذكران وصائب كنو واحلام كنو، وغياب اوميد، فكانت عودة إلى الجذور مع الذكريات، حلوها ومرها، اعقبته امسية في ناد، وكأن اربعين عاما لم تمضِ على حركة رسولية ما زالت تلهم أعضاءها القدامى!

حسين في ما بعد!

وتبقى تعزيتي الوحيدة: ان خزانة في الجناح الكنسي من متحف مار توما خلّدت ذكرى شباب وشابات لعبوا دورا مميّزا في الرسالة في المحيط الطلاّبي، من منتصف الستينات وحتى اوائل السبعينات! وتشهد صورهم، في اجتماعاتهم ولقاءاتهم العامة وسفراتهم، بأجواء ألفة وصداقة وبراءة قلّما تتوفر... فضلا عن عمل رسولي اتّصف بالالتزام والفاعلية.

دير مار اشعيا-لبنان ٢٠١١/٧/٢٧

٢٠

سنوات الغربة

(١٩٧٢-١٩٧٦)

سنوات الغربة [١٩٧٢-١٩٧٦]

كنّا في اخوّة الحياة المشتركة نتداول في ضرورة التوقّف عن حياة الرسالة لفترة من الزمن تكون بمثابة "تجديد" (recyclage) على صعيد المعرفة والخبرة ومتابعة الدراسة. وقرّ الرأي أن اكون أول من اقرع هذا الباب وادخل في هذه الخبرة الجديدة، بهدف التخصص في الصحافة، ليكون عملنا في "الفكر المسيحي" اكثر ثراء واشعاعا... وكنت كمن يسير نحو المجهول، إذ لم يسبق لي أن سافرت الى اوربا واجهل الكثير عن شروط الدراسة ومقوماتها... ولم يكن لي غير **الاب فرنسيس فان ستابن البلجيكي الفلامندي** (+**١٩٩١**) ليدلّني على الطريق. وكان اقتراحه ان اسجّل في معهد لومين فيتيه (Lumen vitae) للاباء اليسوعيين في بروكسل، لسنة او سنتين في دراسة التثقيف المسيحي واللاهوت الراعوي، ومعها اتابع دراسة في "مدرسة الصحفيين"... وحين وصلت بروكسل بلغت الى محل سكناي في دار تابع لكنيسة سان جيل في قلب بروكسل، لا أنسى ايّ انقباض أصابني واية كآبة استولت عليّ! لقد كان كل شيء جديدا عليّ!

وكان اول لقاء لي مع الآنسة التي كنت اراسلها، واذا بها مكرّسة عجوز استكثرت عليها علبة "منّ السّما" -وكنت امزح، قبل مغادرتي العراق، انّي لن اعطيها ايّاها اذا لم تكن شابة!- وحسنا فعلت، اذ اصبحت من ثمّ عشائي على مدى اكثر من شهر بمعدل قطعة مع صمونة طويلة! وسرعان ما احسست انّ المئة دينار فقط التي سُمِحَ لي بحملها، في اعقاب تأميم النفط عام ١٩٧١، لن تصل بي بعيدا! —وما اعظم دهشتي حين علمت أن تسجيلي في مدرسة الصحفيين كان ينبغي أن يتم مسبقا، وقد فات الاوان! ولم يبقَ لي سوى ان اداوم في معهد لومين فيتيه الذي لم يكن هدفي الاول! ووجدتني بازاء دروس رائعة لاساتذة كبار من امثال فرانسوا هوتار واينياس بيرتن وكومبلان وكوتيبريز مُلهم لاهوت التحرير... في مادة التعليم وطرقه واساليبه، فضلا عن دروس في اللاهوت الكريستولوجي ولاهوت التحرير وعلوم الاجتماع والسيكولوجيا والانثروبولوجيا الخ... ولا اغالي اذا قلت باني كثيرا ما حسبتني "اطرش بالزفّة" في مواضيع لم نكن قد الفناها، ولا سبق أن طرقناها... وكثيرا ما كنت احسد نفسي وانا اتحدّث بالفرنسية بازاء زملاء كانوا في بداية مشوارهم مع اللغة، وقد جاءوا من بلدان افريقيا واميركا اللاتينية، جعلوني اتعرّف على حضارات عديدة، وان بقيت طويلا لا

اشخّصُ بعدُ موقع تلك البلدان على الخارطة، من بوروندي وزائير وتشاد وغينيا... الى بيرو وغواتيمالا والسلفادور وشيلي...

كنت كل يوم اقيس المسافة من سان جيل الى شارع واشنطن حيث المعهد لاتابع فيه الدروس حتى العصر، وأعود سيرا على الاقدام، توفيرا في اجرة الباص. ولن انسى، لدى اول سبت سعانين، وانا بعيد عن احوائه وتراتيله، لم يكن متّي سوى ان انشد تراتيله بصوت عال، بالرغم من دهشة المارة واستغرابهم! وكانت تلك طريقتي في التعبير عن ضيقتي! وبقيت غير مستقر في الدراسة طالما لم يتحقق الهدف في دراسة الصحافة... وفيما كنت اسأل هنا وهناك علمت من صديق من شيلي ان في جامعة لوفان فرعا لوسائل الاتصال، ولكنّي لا اعرف اين هي لوفان وكيف ابلغ اليها؟ ومَن اقابل؟ وفي أي كلية او معهد؟ واخيرا قررت ان اكتب الى الجامعة (!) وجاءني جواب يدلّني الى اين والى من اتوجّه! وعزمت على التوجه الى لوفان —ولم اكن اعرف انها مدينة صغيرة جميلة تأسست فيها جامعة لوفان الكاثوليكية في القرن الخامس عشر! وتخرّج فيها الالوف من الأعلام والشخصيات الدينية والمدنية، حتى انها تُفاخر أن الشهادات التي تمنحها تفوق في مستواها وقيمتها الشهادات التي تمنحها روما!! وتفاخر بمقولة ان الاول في روما هو الاخير في لوفان (doctorus romanus asinus louvanium)! ووصلت محطة لوفان وحسبت ان الجامعة مقابلي! وكان عليّ أن ابحث واسأل، وقلما احصل على جواب من أناس لا يرغبون التحدّث بالفرنسية —وكنت أجهل أن في بلجيكا مشكلة قوميّة قديمة بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالفلامنكية، حتى اننا كنّا نشبّههم بالعرب والاكراد عندنا! وبلغت إلى كلية العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وقابلت استاذا بدا لطيفا ومتفهما، ولكنه ورّطني حين زجّني في محاولة فاشلة اصلا: لقد اقترح عليّ ان ادرس لوحدي ستّ مواد، من بينها الاحصاء والاقتصاد السياسي، فضلا عن علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والانتربولوجيا، واقدّم امتحانا بها في آخر صيف ١٩٧٣، مع المكملين، واكون قد ربحت سنتين من الدراسة ويكون بوسعي من ثمّ ان اسجّل على الليسانس في قسم وسائل الاتصال!

وما اشدّ دهشتي حين اصبحتُ بازاء ملازم او كتب في ست مواد غريبة عنّي، لا اكاد افقه منها شيئا! وشكوت حالي الى اخوات يسوع الصغيرات —ولا زلت اذكر باعتزاز الاخت الصغيرة هيلدا التي احتضنتني وحاولت مساعدتي ولا سيما حين بحثت لي عن استاذ واستاذة، ليعلّمني هو الاحصاء وتعلمني هي الاقتصاد!! الاّ انها كانت

محاولة فاشلة منذ البداية، وكان ينبغي ألاّ أُنصَحَ بها أصلا! ومع التزامي بالدراسة في معهد لومين فيتيه، كان لا بُدّ أن تذهب سدى جهود استاذيّ اللذين اقتطعا من وقتهما كثيرا، اذ لم تكن لي أية خلفية في مادتين لم يسبق لي ان طرقتهما!

وكان في نهاية السنة الدراسية، وبعد ان قدّمت في معهد لومين فيتيه دراسة في الفكر المسيحي من وجهة نظر راعوية، للحصول على الدبلوم، انكببت طيلة الصيف على تلك المواد الست الى ان زَهَقَتْ روحي! وجاء وقت الامتحان، ودفعت ما كان ينبغي علي ان ادفعه لأُقبَل في الامتحان، ووجدتني مع طلبة اخفقوا في امتحان نهاية السنة لعلّهم ينجحون في الدور الثاني... وكان عليّ انا الغريب المتغرّب عن هذه المواد ان انجح في امتحان لم افهم لا اسئلته ولا كيفية الاجابة عليها!! وكان اخفاقي محققا ومحتما! وحين ابلغتُ المطران عمانوئيل بني بالنتيجة، راح يذيع الخبر لكل مَن يسأل عنّي: اخفق في الامتحان! ولم يكن يدري انّه كان ينبغي عليّ ان أُخفِق لأني لم اكن مُستعداً لأخوض مثل هذا الامتحان! -وسيستفيد الاب جرجس فيما بعد من خبرتي المشؤومة ليُعفي من هذه المواد! وترتب عليّ ان اتابع هذه المواد، مع مواد أخرى، على مدى سنة دراسية كاملة، وبالكاد اجتزتها بنجاح، وبهذا الاجراء أكون بالتالي، مع ذلك، قد اختزلت سنة! وكنت قد حوّلت سكناي الى لوفان في غرفة استأجرتها في سمنير ليون الثالث عشر. وحينذاك اصبح بوسعي، ان اسمح لنفسي، في صيف ١٩٧٤، برحلة، مع شليمون خوشابا احد قدامى الشبيبة الذي كان يدرس في هولندا، الى فرنسا وسويسرا، كان فيها كثير من الضحك والسعادة بعد سنتين من الانقباض وشبه الكآبة!

والآن فيما انا اكتب هذه الخواطر، سألت نفسي: ماذا ينتفع قارئي من اخبار دراستي والمعانيات التي رافقتها؟ ولكن سرعان ما ادركت اني اعكس قناعة للذين هاجروا والذين ما زالت الهجرة تدغدغهم! فالحياة خارجا عن الوطن وذوي القربة لا يعدّ تغرّبا بل اغترابا وضياعا... وسيبقى العراقي، مهما اتسَمَت حياته في الغربة بسمات الامان والاستقرار، بعيدا عن فوضى بلغت اوجها في عراق ما بعد السقوط، عبر اعمال العنف والتهديد والخطف والقتل والتهجير... سيبقى غريبا، وهيهات له ان يشعر أنه في محيطه الطبيعي حيث كان يتنفس بملء رئتيه، حتى وان كان هواؤها قد تلوّث! وحيث كان يستطيع ان يضحك بملء شدقيه، حتى وان ازدادت اسباب الحزن لديه! اما في الغربة، فكل شيء حوله غريب، من اللغة، الى العادات، الى المفاهيم، الى العلاقات الاجتماعية... ناهيك عن شبه غياب المُثُل المسيحية وتدنّي الايمان وانحدار مستوى الاخلاق، ولاسيما حين يكون للاسرة ابناء وبنات في عمر المراهقة والشباب،

ولا تسأل حينذاك عن همومها وقلقها، ان لم نقل ازاء فضائح اخذت تظهر على أُسَرٍ كثيرة في كل بلد التجأ اليه العراقيون، هربا من كوابيس الارهاب... والمشكلة في كل ذلك هو ان الانسان المسيحي "توماوي" بطبيعته، فلا يصدّق الاّ بعد ان يرى ويختبر، وحينذاك لا يُجدي الندم نفعا!

واود بهذا الصدد ان اذكر خبرتين عشتهما في بدء اقامتي في بروكسل: الاولى حين فوجئنا في معهد لومين فيتيه ذات صباح بوفاة زميل كاهن شاب من النمسا وجد في البانيو ماتتا منذ ثلاثة ايام! فبحجة روح الاستقلال المبالغ به، لا الجار يعود يعلم بجاره، ويمتنع الواحد عن الاستفسار والاطمئنان عن زميل له في شقّة واحدة بحجة احترام حرّيته! وهذا ما حدث لي يوما حين اصابتني انفلونزا بقيت خلالها سجين غرفتي ثلاثة ايام من دون اكل ولا دواء!! ومنذ ذلك الحين تخيّلت نفسي أموت ولا احد يدري بي، وأُدفَن من ثم في الغربة! فقررت ألاّ أُقفِل باب غرفتي، واضع جواز سفري في مكان واضح وأسجّل تلفونات الموصل وبغداد، طالبا ان يُعاد جثماني الى العراق لأنضمّ الى آبائي وأُوارى في تراب وطني...

أما الخبرة الثانية، فهي لا تشرّفني! فلقد كانت الضيقة في السنة الاولى من تغرّبي قد اخذت منّي مأخذا وانا وحدي في دار سان جيل أعاني من العزلة بعد ان كنت في العراق، والموصل بالذات، مأخوذا باعمال والتزامات على مدى النهار، ولا سيما من خلال الاجتماعات واللقاءات في الشبيبة الطالبة المسيحية... وحدث يوما ان بلغَت بي الكآبة اقصاها حتى تسرّبت اليّ تجربة الانتحار!!! -وانا اعلم انّها تجربة الجبناء الذين لا يقوون على مواجهة صعوبات الحياة... ولَكَم اسفت من ثمّ بسبب تلك التجربة العابرة التي ما عتمت ان تحوّلت الى فعل شكر للرب الذي "يؤتي مع التجربة وسيلة الخروج منها، وبالقدرة على تحمّلها"(١ قورنتس ١٠: ١٣)

في سنتي الثانية في لوفان تحوّل سُكناي الى دير الفرنسيسكان الفلامنديين بالقرب من قسم وسائل الاتصال التابع لمعهد العلوم السياسية الاجتماعية. وكانت الدراسة في هذا القسم أكثر نفعا وأكثر جاذبية حين كان عددنا لا يزيد على العشرين طالباً وطالبة[٤٠]؛ وكانت الدروس منوّعة بين تاريخ السينما وتاريخ الصحافة واسُسِها

(٤٠) لا يسعني ألا أذكر أني كنت بينهم طالباً عراقياً وحسب، ولم تكن هويتي قد كشفت سوى لواحد من الأصدقاء. وحدث أن يوما، في موضوع البرامج التلفزيونية، أن شاء الاستاذ العبور بسرعة على البرامج الدينية في التلفزيون، بحجة خلو القاعة من الكهنة والراهبات! وجاء الجواب كشفاً عن وجودي بينهم... وفي نهاية المحاضرة تقدّمت مني إحدى الزميلات قائلة: لا أصدّق! ليس لك "راس" كاهن!

والعمل في الراديو والتلفزيون، بما في ذلك من وجهة نظرية فضلا عن جانب عملي محدود. وهذا ما حدا بي الى تكثيف جهودي في اتمام اكبر حجم من الوحدات في السنة الاولى من الليسانس ليتسنى لي في السنة الثانية أن اقوم بما يمكن ان يسمّى "معايشة" (stage) في باريس بين صحفيي مجلة I.C.I (الاعلام الكاثوليكي العالمي) نصف الشهريّة، كما بين صحفيي جريدة لاكروا اليومية. وبالفعل، فلقد حملت اليّ فائدة عُظمى الاشهر الثلاثة التي غبت فيها عن لوفان، بسماح خاص، لاقوم بممارسة وتدرّب مع الصحفيين الكاثوليك في باريس –وفي مقدمتهم ديبوا ديميه وجوزيه دي بروكر وجان بوتان وارنست ميلسان... ولا زلت اذكر المقابلة التي اجراها معي هذا الاخير لبرنامج الاحد في راديو فرانس كولتور عن العراق وكنيسته. وخلال اقامتي في باريس استطعت الاتصال بمعظم دور النشر، المسيحية وغير المسيحية، تمّ معها اتفاق في المبادلة مع الفكر المسيحي بحيث صرنا نحصل على كتب قيّمة عن طريق "الخدمة الصحفية" لقاء الاعلان عن هذه الكتب والتعريف بها في زاوية " كتب وردت"! ولعل ابرز ما جنيته من اقامتي، تعرّفي على الاب شفالييه امين سرّ الاتحاد الكاثوليكي الدولي للصحافة (U.C.I.P) الذي تعاطف مع الفكر المسيحي وطلب منّي مقالا عنها في نشرة اليوسيب، وهو الذي وجّه اليّ من ثمّ، عام ١٩٨٤، الدعوة لحضور مؤتمر الاتحاد في دبلن، وكان اول مؤتمر عالمي اشارك فيه باسم المجلة.

ولا بدّ لي ان اذكر هنا ان اقامتي في بلجيكا افسحت لي المجال للتعرف على مؤسسات كان بوسعها ان تمدّ الفكر المسيحي بدعم مادي يمكّنها من مجابهة نفقاتها المتزايدة، ويتيح لها بالتالي ان تجعل اشتراكها السنوي في حدّه الأدنى. وكانت البداية مع مؤسسة "تعاون واخوّة" البلجيكية، تلتها مؤسسة ميسيو الالمانية التي مدّت المجلة بدعم كاد يكون سنويا، وعلى مدى سنوات. كما بذلت جهدا للتعريف بكنيسة العراق وتاريخها وطقوسها وبالمجلة المسيحية الوحيدة التي تلعب دورا في حياتها. وهكذا كان لي قداديس على الطقس السرياني بالفرنسية في مناسبات اسبوع الصلاة لاجل الوحدة

وهي تعني أنها لم ترَ فيَّ أثر عقدة كما تتخيل أنها موجودة لدى رجال الدين! والأجمل أن محبة الزملاء واحترامهم لي ازداد بعد ان عرفوا هويتي الكهنوتية. وهنا وجبَ عليّ أن اذكر كيف أنهم، في نهاية السنة الدراسية، طلبوا من استاذ مادة الأخلاق في الجامعة أن يسمح لي بأن اقدّم لهم محاضرات فيها –وكانت مادة مُلزمة قبل نهاية الدراسة في جامعة لوفان، كونها جامعة كاثوليكية عريقة– ولم يكن لهم ما تمنوا! ولكني فرحت آنذاك بمبادرتهم الرائعة، ليقينهم ان باستطاعتي أن أقدّم لهم وجهًا للمسيحية والكنيسة، كثيراً ما تشوّه في المجتمع الغربي في نهاية الستينات والسبعينات...

ومناسبات اخرى؛ كما فَسحتُ مجالاً صغيراً لخدمة السريان الاتراك من كاثوليك وارثوذكس، والتَزَمتُ قدّاسهم الشّهري فترة من الزمن...

وفي نطاق التنفس الذي عاد اليّ في السنتين الاخيرتين من الدراسة في لوفان، ولاسيما بعد أن وافقت الجامعة على منحة دراسية دسمة – فيما كانت المنحة في السنتين الاوليين من مؤسسة "ايوتو" (K.I.N عون الى الكنيسة في ضائقة) التي كانت بالكاد تسدّ اجور الدراسة مع اجور الاقامة والمعيشة، بحيث كنت، على غرار المستأجرين الفقراء اضطرّ الى تأجيل دفع الايجار في اوانه! وهكذا استطعت في بدء عطلة صيف ١٩٧٥ ان ازور روما حيث حللت ضيفا على المثلث الرحمة **المطران اغناطيوس منصوراتي** (+١٩٨٢) وكان دليلي السياحي في روما الربان يوحنا (المطران يوحنا ابراهيم للسريان الارثوذكس/ حلب)- وكنّا قد عملنا سوية في الموصل في نهاية الستينات في اعداد ملازم التعليم المسيحي للصفوف الابتدائية والتي تحوّلت من ثمّ الى كتب منهجية. وما اطيبها مفارقة ان يكون ارثوذكسي يتابع دراسته في روما، دليلي الى معالمها وكنائسها ومتاحفها!! كما كانت تلك العطلة فرصة لزيارة بعض ابرز مدن ايطاليا من بولونيا الى ميلانو، مرورا بفلورنسا وتلّة الاوبيانو، حيث كانت بدايات **كيارا لوبيش** (+ ٢٠٠٨) مع الفوكولاري، برفقة الاب ميخائيل جميل الذي جاء الى روما بصفته مديرا لمعهد مار يوحنا بعد ان تعرض لازمة ادارة –ولكم كان يطيب لي، حين كنت ارافقه وهو يقدم نفسه "عميدا" للمعهد، ان اعود فاقدم نفسي بصفتي "خادما" له!

وكان لي في ربيع ١٩٧٥، في فترة اسبوع الالام وعيد الفصح، عودة ثانية الى العراق، في أعقاب محنة الشبيبة الطالبة- لحضور حفلتي زفاف شقيقتيّ برناديت ونوال، وفي غضون اسبوع واحد، وكلتاهما مع قرينيهما، لبيب وجلال، كانا قد عملا بنشاط كبير في بغداد على صعيد الاخوية المريمية والاخوية الطلابية. الاّ ان الرحلة[٤١] الكبرى

(٤١) شَدَدْتُ الرحال من لوفان الى باريس والى الجنوب باتجاه مرسيليا، ومنها ركبت البحر باتجاه تونس حيث نزلت ضيفا على مطرانها اللاتيني في كاتدرائيته على الشارع الرئيسي في العاصمة –ولكم شاهدتها ابان الانتفاضة الاخيرة حين كانت الهتافات تتعالى من حناجر المتظاهرين: الشعب يريد...! واستطعت زيارة القيروان وعددا من المدن...، ومن ثمّ غادرت بالخافلة الى الجزائر على طول الساحل؛ ولدى وصولي الجزائر العاصمة، توجهت في البحث عن سالم اسعد في احد الاحياء الذي كان الخوف مخيّما عليه بسبب الاعتداءات والسرقات. وفيما كنّا نزور معالم العاصمة الجزائرية، كانت المحادثات في مقهى العراقيين لا تنفك تدور حول التبادل بين الفرنك الفرنسي والدينار الجزائري، كي يتسنى لصديقي شراء سيارة نجوب بها جنوب فرنسا باتجاه اسبانيا...

في صيف ١٩٧٥، وهي العطلة الاخيرة، ما قبل العودة النهائية الى العراق، فكان قد تمّ لها تخطيط مُحكَم عبر المراسلة مع الصديق سالم اسعد الذي كان آنذاك في الجزائر لمهمة التعليم بالعربية لمادة الرياضيات.

وفي لقاء في الجزائر العاصمة مع اخوات يسوع الصغيرات ، استعلمت عن طريق للوصول الى تمانراسيت حيث كان حلم قديم يراودني لدى قراءة حياة شارل دي فوكو وكتاباته، مع كتب في روحانية الاخوّة للمؤسّسين: الاب رنيه فوايوم، **والاخت مادلين (+١٩٨٩)**. وركبت الحافلة –ولعلّي كنت العربي الوحيد بين اقوام من العرب والبربر والطوارق– لاقطع ٧٠٠ كم في الصحراء الافريقية باتجاه عين صالح، وهي آخر نقطة من الطريق المعبَّد[٤٢].

وفي الصحراء ادركت ما معنى الواحة في قلب صحراء على مدِّ النظر تتموج رمالها لترسم لوحات تجريدية ولا اجمل... والاجمل آثار الخطوات في تلك الرمال باتجاه المجهول، توحي بالبحث عن الله من آثار خطواته في الطبيعة والتاريخ... ولكم تصبح الواحة مكان الاستراحة الوحيد بعد مسيرة طويلة في الجوع والعطش... وتتراود الى الذهن المزامير التي تتحدث عن الجوع الذي لا يُسَد إلاّ بكلمة الله، وعن العطش الذي لا يرويه إلاّ مَن هو ينبوع الحياة، وفي المقدّمة المزمور ٤٢: كما يَشتاقُ الأيلُ إلى مَجاري المياه...

كما يشْتاقُ الأيَلُ إلى مَجاري المِياه كذلِكَ تَشْتاقُ نَفْسي إلَيكَ يا أَلله. ظَمِئَت نَفْسي إلى الله، إلى الإلهِ الحَيّ متى آتي وأَحضُرُ أَمامَ الله؟ قد كانَ لي دَمْعي خُبزًا نَهارًا ولَيلاً إذ قيلَ لي طولَ يَومي: "أَينَ

(٤٢) كان ينبغي ان استقلّ احدى حافلات الشحن الذاهبة باتجاه تشاد لأقطع على متنها ١٣٠٠ كم اخرى قبل الوصول إلى تمانراسيت! وسرعان ما ازداد عدد السوّاح الفرنسيين من الشباب في عين صالح، وقد بقيتُ فيها ثلاثة ايام، لم اوفّق –كما لم يوفّق السواح الاخرون– في اقناع سائقي الحافلات بنقلنا وايّاهم باتجاه الجنوب، اذ كانت اوامر قد صدرت اليهم بالامتناع عن اخذ الاجانب لما في ذلك من مخاطر في الصحراء!

وخطرت لي اخيرا فكرة التوجّه الى شرطة البلدة الضائعة في الرمال لاقدّم نفسي عربيا عراقيا لا بدّ لي من التوجه الى تمانراسيت! وسرعان ما تمت الاستجابة، وطُلب الى احد السواق بأن يقلّني على متن حافلته... وكانت تلك مغامرة حقًا! فكنّا نحن الثلاثة (انا والسائق ومعاونه) نشقّ الطريق الصحراوي لساعتين وثلاث قبيل المغيب، فنتوقف حتى فجر اليوم التالي -وما الذّ عشاء "الكوسكوس" مع قطع من لحم مجفف معلّق في عارضة الحافلة! وتبدأ الرحلة من جديد من الفجر وحتى حدود الساعة العاشرة حين كان علينا ان نجد واحة نخيّم في ظلّ شجيراتها حتى العصر... وهكذا على مدى ثلاثة ايام!

إلهُك؟" أذكر هذا فأفيضُ نَفْسي عليَّ: إنّي أعبُرُ مع الجُمْهورِ وأقصِدُ بِهِم بَيتَ الله بِصَوتِ تَهْليلٍ وحَمْدِ المُعَيِّدين. لِماذا تَكتَئِبينَ يا نَفْسي وعلَيَّ تنوحين؟ إرتَجي اللهَ فإنّي سأعودُ أَحمَدُه وهو خَلاصُ وَجْهي وإلهي. تَكتَئِبُ نفسي فِيَّ فلِذلِكَ أَذْكُرُكَ: مِن أَرضِ الأُردُنَ وجِبالِ حَرْمون مِن جَبَلِ مِصْعار. غَمْرٌ يُنادي غَمْرًا على صَوتِ شَلاّلاتِكَ جَميعُ مِياهِكَ وأَمواجِكَ قد جازَت عليَّ. في النَّهارِ يأمُرُ الرَّبُّ رَحمَتَه وفي اللَّيلِ نَشيدُه عِنْدي صَلاةٌ لإلهِ حَياتي. أَقولُ للهِ صَخرَتي: "لِمَاذا نَسيتَني ولمَاذا أَسيرُ بالحِدادِ مِن مُضايَقَةِ العَدُوّ؟" عِندَ تَرَضُّضِ عِظامي عيرَني مُضايِقِيَّ بِقَولِهم ليَ النَّهارَ كلَه: "أَينَ إلهُكَ؟" لِماذا تكتَئِبينَ يا نَفْسي وعَلَيَّ تنوحين؟ إرتَجي اللّهَ فإنّي سأعودُ أَحمَدُه وهو خَلاصُ وَجْهي وإلهي.

وبلغت ثمانراسيت وأُعطيتُ غرفة، أو بالاحرى "قلاّية"، عند "اخوات قلب يسوع الصغيرات" حيث قمت برياضة ما زلت احمل ذكراها عميقا، بين مُصلّى الاخ شارل حيث كان يقضي الساعات الطوال امام القربان، وبين معبد الاخوات الصغيرات. كانت امنيتي ان اصل الى الاسكريم، في جبال الهوكار حيث يقوم منسك للاخ شارل على سطح تلك الجبال الجرداء التي تتخذ الوانا في الشروق تختلف عنها في الغروب، ويتجلّى فيها مجد الله! انّ التجلي على الجبل، حين جاء الصوت السماوي ليعلن يسوع ابنا حبيبا يجب الاصغاء اليه، فيذكّر بما قاله موسى وهو على جبل نابو يتطلّع الى ارض الميعاد ولا يدخلها: "سيقيم لك الربُّ الهُكَ نبيّاً مثلي من وسطك، من اخوتِكَ، فله تسمعون" (تثنية الاشتراع ١٨: ١٥).

ولن انسى اني قضيتُ في ذلك الجبل "يوم صحراء"، أي يوم خروج عن العالم للدخول في صحراء يشعر فيها الانسان بحاجة الى الله وحده، وحيث يكون بوسعي حينذاك ان اجد الله واجدني في حضرته، اعزل، عاريا وهو وحده يسدّ الجوع ويروي العطش، اذ ان كلمته هي غذاء وشراب، نور وحياة، فرح وسعادة... انّها خُبرة رائعة تعاش في التجرد التام وفي جهد الايمان والامعان في الصلاة حيث تتوقف الحواس لتترك المجال لصوت الله يُسمَعُ في الصّمت وحيث تتمرّس العينان المغمضتان على رؤية ما لا يرى!

وهناك لكم صَدَحَ صوتي بالمزمور ١٢١ بصوتٍ مُنشدٍ لُبناني أظنه الأب منصور لبكي:

رَفَعتُ عَينَيَّ إلى الجِبالِ ... مِنْ حَيثُ يَأتي عَوني.
مَعونَتي مِنْ عِندِ الرَّبّ ... صَانِعِ السَّماء والأرض.
لا يَدعُ رِجلَكَ تَزِل ... لا يَنعَسُ لا يَنامُ.
الرَّبُّ يَحفظُكَ ... الرَّبُّ سِترٌ لَكَ
لا تُؤذيكَ الشَّمسُ في النَّهارِ ... ولا القَمرُ في اللَّيلِ.
يَحفَظُكَ الرَّبُّ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ... يَحفَظُ الرَّبُّ نَفسَكَ
يَحفَظُ الرَّبُّ ذَهابَكَ وايابَكَ ... مِنَ الآن وإلى الأبَدْ.

وفيما انا ادبّج هذه الكلمات، خشيت ان يحسبني أحدٌ رجل صلاة! في الوقت الذي جاهدت كثيرا وما زلت اجاهد كثيرا لاضع ذاتي على طريق الصلاة، وقلّما افلحت! الا اني، وانطلاقا من كتاب "صلّ لتحيا" للاب فوايوم، اؤمن ان لا احد يخرج من الصلاة بشعور الارتياح... ولن يرتضي احد قط بصلاته... لا بل ان عدم الرضى هذا هو علامة الصلاة الحقّة، وهو الطريق الى الصلاة المجرّدة، صلاة الاستسلام. ويكفيه ان يثابر ويصمد –وتلك ابرز مواصفات الصلاة... وليسمح لي القرّاء ان ادع الاب فوايوم يتحدث في كتابه "صلّ لتحيا" الذي استغرق ظهوره بالعربية حوالي عشر سنوات!

"ان تعليم الانجيل حول الصلاة يتلخّص في نقطتين اساسيتين هما، اولا: وعد بان الله سوف يأتي لملاقاتنا متى يشاء وكيف يشاء، وهذا هو دور الله، وهو دور اساسي، لانّه بالنسبة الينا بمثابة الأمل باكتمال صلاتنا فيه، وهذا الامل لا يمكن ان يخيّب. وثانيا: دعوة ملحّة الى المثابرة مهما يكن، وبالرغم من كل المظاهر المعاكِسة، وهذا دورنا. فما حاجتنا الى المزيد؟

لكي نتعلم ان نصلّي، حسبنا أن نصلّي، ونصلّي كثيرا، ونعرف كيف نعيد الكرّة، من دون انقطاع ولا ملل، حتى وإن لم نسمع جوابا، ولم نحصل على نتيجة ظاهرة. لقد شدد يسوع على المثابرة لانه كان يعلم بصعوبة ذلك علينا، من جرّاء نزعتنا الى التغيير والى الجديد في كل شيء".

وكان عليّ ان اعود من الجزائر العاصمة الى اكس ان بروفانس في جنوب فرنسا حيث كنّا وزميلي سالم على موعد عند اخوات يسوع الصغيرات! ومن هناك بدأنا نحن

الاثنين رحلة ولا اجمل الى اسبانيا بحيث اخذنا نحس بتحركنا على الخارطة، كما كان يطيب له أن يقول! بدءا ببرشلونة ومعالمها ومدريد ومتحفها البرادو الشهير... وكان لا بدّ لنا أن نسمح لانفسنا بمشاهدة مصارعة الثيران وبأرخص بطاقة، في اعلى اعالي الملعب، حيث كنّا نرى الثورَ حملاً!! ومن ثمّ اتخذنا صوب الجنوب للبلوغ الى مدن اسبانيا العربية: من طليطلة حيث عاش الفنان إل كريكو، الى قرطبة وجامعها الشهير، واشبيلية وكاتدرائيتها الرائعة، وغرناطة وقصر الحمراء الذي لا نظير له في الدنيا، وحتى مالاقا حيث كان علينا أن نختبر ضربة الشمس والبحر... وكنا نقضي الأيام بشظف العيش مفترشين الارض، ولم نعرف فندقا ولا مطعما الا في المغرب! وعبرنا بسيارتنا على متن باخرة الى المغرب العربي لزيارة الرباط وفاس ومكناس... استودعنا أحدنا الآخر في طنجة على ساحل الابيض المتوسط ليعود كل منّا الى عمله والتزاماته...

*

بعد عملٍ مضنٍ في الاطروحة، مع سهر الليالي، انتهت السنة الاخيرة من الدراسة بتقديم الاطروحة -وكنا ثلاثة فقط قدمناها مع نهاية السنة- وكانت باشراف الاب كبرييل رنكليه الذي أصبح فيما بعد نائب رئيس الجامعة. ولن انسى فضل الزميلة الاخت سلفيان بويّون في ضبط فرنسية الاطروحة التي كانت بعنوان: "الفكر المسيحي، تحليل المضمون (١٩٦٤- ١٩٧٥)". وعدت بها الى العراق، في رحلة طويلة بالسيارة، مع الوالد -وكان قد جاء ليحضر حفل تخرج لم يعد من تقاليد لوفان!- عبر المانيا والنمسا وهنغاريا ويوغوسلافيا وبلغاريا واليونان فتركيا وسوريا والى بغداد! ومنها عدت لابدأ من جديد خدمة الكلمة عبر الفكر المسيحي التي سعيت الى اضفاء خبرة جديدة عليها!

وفي كل من المدن التي مررنا بها عبر هذه البلدان حاولنا ان نتعرف على ابرز المعالم السياحية فيها: كيف يمكن ان يغيب عن الذاكرة شموخ كاتدرائية كولونيا؟ او انسى فرانكفورت التي وصلت الى قلبها من خلال ما ارشدني اليه صديق كندي كنت قد التقيته في مايوركا -تلك الجزيرة الرائعة في البحر المتوسط على شواطئ اسبانيا التي سمحت لنفسي التسجيل في رحلة اليها بعد انتهائي من كتابة الاطروحة، ولمدة ثمانية ايام وبمبلغ يعتبر زهيدا- ومعه، وبسيارته، زرنا ابرز ما في فرانكفورت[٤٣]!

(٤٣) هنا لا يسعني ألاّ اذكر كيف شاء اخي المرحوم حكمت -وقد رافقني في رحلة العودة حتى منتصف المانيا، بسيارة الفولفو التي كنت قد اعددت ثمنها طيلة سنتين لاعود بها مع كتبي وامتعتي الى العراق-

وعبر الطريق الرومنسي المزروع بالقرى الجميلة، وواجهات بيوتها الملأى بالزهور... كانت لنا وقفة قبل ميونيخ في معسكر داخاو الشهير، ذاك المعتقل النازي الذي قضى فيه الوف من السجناء حرقا في الافران الجهنمية! وكيف انسى النمسا وقد قطعتها من شمالها الى جنوبها مرورا بفيينا وكاتدرائيتها الرائعة وقصر شيرون ونهر الدانوب... ومن النمسا الى هنغاريا حتى توقفنا في بودابست، من ثم الى يوغسلافيا حين كانت بلدانها الستة موحدة في ظل تيتو ابان الحكم الشيوعي، بدءا بزغرب حيث اقمت القداس، برهبة، في كاتدرائيتها ومنها الى الساحل الادرياتيكي، مرورا بسبلت وديبروفنيك وصولا الى سكوبي عاصمة مقدونية. وكان علينا ان نحوم حول البانيا لنصل الى تسالونيقي فأثينا وقورنتس...

ولعلّ اجمل ما في هذه الرحلة عبورنا مع سيارتنا بحر ايجه نحو استانبول وعبورنا جسر البوسفور الى تركيا الشرقية حيث كانت وقفات عند كنيسة احيا صوفيا وسائر معالم استانبول الاثرية والسياحية... وكان علينا اخيرا ان نقطع تركيا مرورا بالعاصمة انقرة حين راح الخوف يخيّم علينا بسبب قطّاع الطرق الذين يعترضون السيّاح، لنصل الى انطاكيا حيث زرنا اول كنيسة على اسم الرسول بطرس في قلب الجبل... وكان قد بقي لنا ان نجتاز سوريا وبادية الشام لنصل الى بغداد... بعد ان نكون قد قطعنا حوالي ٧٠٠٠ كم تعمدناها طويلة كي يتسنى لنا زيارة بلدان لم يسبق لنا ان زرناها.

دير القيامة/ شبروح-لبنان ٢٠١١/٧/٣٠

ان "نتخلص" من هذا الصديق، وفي ظنه انه يفعل معنا ما يفعل لغاية في نفسه! فكان بيننا شجار بسببه، وقد كان اخي نموذجاً لمن لا يعتقد قط ان هناك صداقة بدون اهداف انتفاعية!

٢١

الفكر المسيحي في يوبيلها الفضّي

الفكر المسيحي في بوبيلها الفضّي

كنت قد توقفت عن الحديث عن الفكر المسيحي التي كانت تواصل الجري بإقدام! وبالفعل انه جريٌ، واي جري؟! فمنذ نيسان ١٩٧٧، كنّا قد اضطررنا الى نقل الطباعة الى بغداد، متنقلين بين مطابع شفيق وسلمى والسندباد والمشرق وثويني والرشيد واليرموك، الى ان استقرّ بنا المطاف في مطبعة الاديب (١٩٩٠-١٩٩٤). وكنّا قد اعتمدنا الطباعة بالاوفسيت منذ عام ١٩٧٨ وما كانت تتطلبه هذه الطباعة الفنيّة من مراحل شاقة عديدة... وعلى مدى هذه السنوات، سواء في غياب الاب جرجس (١٩٧٧-١٩٨٠) للدراسة، أم بعد عودته، كان علينا نحن الاثنين ان نطبق النهار بالليل لننجز العدد، بما في ذلك من تنقيح المقالات وضبط لغتها وانشائها احيانا، فيتسنى لنا أن نرسل المسودات للتنضيد، ومن ثمّ التصحيح واعداد الماكيت... وكثيرا ما كانت الاقامة في بغداد تستغرق اسبوعين او اكثر لنعود بالعدد الجديد -بعد توزيع حصة بغداد باسماء المشتركين الموزّعين على عدد من الوكلاء، وبمغلفات يكون الاب نعمان قد اعدّها مسبقا- محمّلا على البيكب الأزرق الذي اصبح، منذ عام ١٩٨٢، يعمل على خط بغداد! ويطول بي الحديث ان شئت أن ادخل في التفاصيل... بل يكفي ان اقول انها كانت مهمّة شبه تعجيزية، بالكادر الذي كنّا وبالطاقات التي كانت لنا، ومع الامكانات التقنية المحدودة انذاك... ومع ذلك استمرت "الفكر المسيحي" في الظهور بانتظام، بمعدل عشرة اعداد في السنة، وباعداد خاصة تكاد تكون سنوية، يغطي كل منها شهرين. وكان كابوس يخيم علينا نحن الاثنين حين تأتي "نوبتنا" في متابعة العدد في بغداد، بعد ان تكون "ماكيت" قد وزّعت المقالات على الصفحات، وفتحت "نوافذ" للصور، وكل ذالك عبر عملية قص ولصق على الورق وليس على شاشة الكومبيوتر! وكان على الانسة شكرية من ثم أن تقوم بالتنفيذ الورقي لنسلّم المواد إلى المطبعة للتصوير والمونتاج والطباعة والتصحيف...وهكذا يستغرق كل عدد اكثر من شهر قبل ان يصل الى القارئ! وسيبقى اسم الاب نعمان ملتصقا بادارة الاشتراكات في كل انحاء العراق والخارج، حين كان عليه ان يعد المغلفات باسماء المشتركين، وفق قوائم بالوكلاء، وكل ذلك بصبرٍ وجلَد، ولا سيما في تعامله مع الرزم، والبريدية منها بنوع خاص!

وبالرغم من كل المعانيات وما يعترض العمل من تأخير، بسبب او بآخر، كان فرح كبير يغمرنا لدى كل مولود جديد. ذلك ان صدور العدد هو اشبه بمخاض يسفر عن ولادة، في انتظار ردود الفعل لدى مشتركين ارتفع عددهم سنة بعد سنة حتى بلغ ٧٥٠٠ لدى تسليم المجلة عام ١٩٩٥! وهم يمثلون قرابة ٤٠٠٠٠ قارئ! وهذا الرقم بالذات، بقدر ما كان يعزّينا، بقدر ذلك كان يضعنا بازاء مسؤولية جسيمة، اذ يحق للقراء أن ينتظروا من مجلّتهم سعة آفاق وبُعدَ نظر وعُمقَ توجّه، ناهيك عن الغذاء الروحي والايماني، لا سيما حين يكونون قد اختاروها لخطّها الفكري وتوجهاتها النبوية ومواقفها الحرّة والجريئة... فليس بالهيّن أن ترفع مجلة صوتها، في زمن صدّام، لتشجب انظمة القمع والاستبداد في امريكا اللاتينية؛ او ان تهمس من بين السطور رفضها لكل حرب اية كانت، حتى تلك التي تُضفى عليها صفة "القدسية"؛ او تطالب من طرف خفي بحقوق الطلبة المسيحيين في الحصول على ثقافة دينية مهما كانت نسبتهم في المدارس؛ وليس من دون سابق قصد أن ترسم المجلة في ملفاتها وجه كنائس عانت من الاضطهاد والقهر بسبب مواقفها الجريئة دفاعا عن حقوق الاقليات الاثنية او عن الفلاحين والعمال التي تُهضَم حقوقهم وتُهان كرامتهم... والاكثر من ذلك، فبهدف واضح، تطرقت المجلة الى وضع بلدان لا تختلف سياساتها عن سياساتنا، وفي مقدمتها زائير موبوتو، ورومانيا تشاوشيسكو، ودول الجنرالات في السلفادور وشيلي ونيكاراغوا في الثمانينات... انها ريبورتاجات عكست وضع كنائس لزمت الصمت بسابق اصرار، سواء بدافع الحرص على امتيازاتها ام بدافع المهادنة مع سلطة لا ترحم! الى جانب ريبورتاجات اخرى عكست تحديات كنائس اكثر جرأة ازاء سياسات استبدادية، انتهجت القمع وسيلة للحكم –ولا يسعني هنا ألاّ أذكّر بالملف الذي كتبتُه عن رومانيا في عهد تشاوشيسكو، وكان كل شيء فيه يلمّح الى العراق في زمن صدام حسين، ولم تخفَ المقاربة آنذاك على احد!

وهكذا هي الحال مع المقالات التي تناولت العراق، وقد حرصت المجلة على استقلالها ازاء السلطة دون ان تنحرف في تيار التبعية او المداهنة، بل طغى على طروحاتها ومعالجاتها الطابع الوطني... فمن اجل هذا كله، مَنَحَ الاتحاد الكاثوليكي الدولي للصحافة (U.C.I.P) الفكر المسيحي المدالية الذهبية عام ٢٠٠٧، وتسلّمناها، نحن رئيسي التحرير، في شيربروك (كندا) في غضون انعقاد المؤتمر الثاني عشر للاتحاد. وقد جاء في ديباجة المدالية ما نصّه: "للدفاع المثالي عن حرية الاعلام، وانماء التوعية الجماعية، والدفاع عن الحقوق الاساسية للجميع، والمبادرات الفريدة لخدمة الحقيقة، واشاعة القيم". وكنّا قد شاركنا في مؤتمرات الاتحاد، منذ دبلن (١٩٨٤) وهيبولدينغ (١٩٨٩) وفريبورغ (٢٠٠٤) وحتى شيربروك (٢٠٠٧).

ومرّت السنة تلو السنة والفكر المسيحي صامدة بوجه كل العقبات والصعوبات، من أي نوع كانت، ولا سيما ابّان الحرب العراقية الايرانية وما خلّفته من ازمات على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي والنفسي... واذا بنا نقترب من عام اليوبيل الفضّي (١٩٨٩)، وقد رحنا نعدّ له العدّة، اذ اردناه فرصة لمهرجان ثقافي وفني واجتماعي... فانبرت الافكار تتزاحم في كل ليلة لتسفر في الصباح عن خطّة عمل تُعهَد الى هذا او ذاك من الخطّاطين والرسّامين واصحاب المواهب والكفاءات... وكان في مقدمة النشاطات معرض لمسيرة المجلة على مدى ٢٥ عاما يحكي قصة البدايات عبر العديد من الجداريات التي كان لكل منها موضوع، وفي المقدمة لوحة بالمجلات المسيحية الصادرة في العراق على مدى قرن. فكان لكل باب في المجلة جداريته، ولا سيما "الملفات" الاعلامية، و"شؤون راهنة" حيث رُسمت خريطة العالم مشيرة الى كل بلد كانت له في الفكر المسيحي حصّة! وكذلك الحال مع "المقابلات" والتحقيقات... ناهيك عن جدارية صنّفت المجلة بحسب موضوعات، واخرى رسمت لوحة عن الكتّاب، واخرى عن هيئة التحرير، واخرى عن الوكلاء... كما كان للاعداد الخاصة –وكان قد ظهر منها آنذاك ١٤ عددا، قبل ظهور العدد الخاص بمناسبة اليوبيل الفضّي– جداريتها بالكلمة والصورة.

وكانت لجنة كبيرة قد تشكّلت في الموصل لتوزيع العمل وتهيئة مستلزمات الاحتفال باليوبيل. فانطلقت معارض للفن التشكيلي والاعمال اليدوية باشكالها، والخط والفوتغراف والايقونة المعاصرة (ماهر حربي)... ولم تغب عن المهرجان رسوم الاطفال! ولكم لفت الانتباه معرض الازياء الشعبية عبر دمى لحوالي ١٥ قرية... وافتتح اليوبيل بقداس احتفالي رئسه المطران عمانوئيل بني وروى في كلمته كيف تحوّلت فكرة عابرة الى مجلّة استقطبت الوف القرّاء، وكانت وما زالت موضوع نقاش بين تيّار المحافظين وتيّار المجددين! واستمرت المعارض ثلاثة ايّام مع شارات الزينة واللافطات والبوسترات والفولدرات، وفي المقدمة بوستر اليوبيل: شمعة منيرة على خلفية سوداء! وشغلت المعارض كل فسحة في مارتوما وفي دير الاباء الدومينيكيين.

وفي بغداد كانت لجنة اخرى كبيرة قد تشكّلت، شارك فيها العديد من السيدات والسادة باعمال يدوية مختلفة من السنّارة والبانتور الى النسج والسيراميك... كما شارك محترفون في الرسم والتصوير والنحت والخط... ونُقِلَ معرض المجلة الى بغداد حيث استقبلته قاعة بكاملها وعبر عارضات برّزته بشكل افضل. واحتضن اليوبيل مركز القديس يوسف بكل قاعاته وممرّاته... وافتتح اليوبيل بقدّاس مشترك رئسه المطران بولس

دحدح والقى كلمة بليغة في الفكر المسيحي ورسالتها –وكان من المقرر ان تجري احتفالات اليوبيل في بغداد برعاية البطريرك روفائيل الاول بيداويذ الذي لم يكن قد مضى على تنصيبه سوى أيّام، لكن بدأ خفيّة لم يطب لها ان تحظى الفكر المسيحي بدعم البطريرك الكلداني، غيّبته آنذاك عن الاحتفال! الاّ انّه تلطّف وبعث برسالة تهنئة رقيقة قرئت في الاحتفال.

ومن ميزات مهرجان الفكر المسيحي في بغداد، انه اشتمل على محاضرة حول مسيرتها، وعلى مسرحية "الكرسي الهزّاز" للمخرج المرحوم د.عوني كرومي، كما على امسية موسيقيّة كانت قد احيتها الفنانة الراحلة بياتريس اوهانيسيان على قاعة الجمعية الارمنية –وكان للامسية امتداد في الموصل في اطار اليوبيل، فكانت اول امسية لها أُقيمَت في فندق نينوى اوبروي! (راجع التقرير عن هذه الاحتفالات في ف.م. العدد ٤٧ – آب/ايلول ١٩٨٩).

وتكلّلت احتفالات اليوبيل الفضي بالعدد الخاص (ت١-ت٢ ١٩٨٩) بثلاثة محاور: ١. الفكر المسيحي.. حلقة في تاريخ الصحافة، احاط بدور المجلات المسيحية العراقية، وبمسيرة الفكر المسيحي خلال ٢٥ عاما، وبالفكر المسيحي.. صناعة! وذيّل المحور بمقابلة مع روّادها الاوائل؛ ٢.الفكر المسيحي.. في ميزان التقييم والنقد، تناول فيه كتّاب بالتحليل ابوابها الثابتة والمتحركة، وابرز القضايا التي تناولتها؛ ٣. الفكر المسيحي.. في نظر كتّابها وقرّائها، عبر لقاءات مع ابرز كتّابها الدائمين، فضلا عن طاولة مستديرة ونتائج استفتاء... وذيّل بتقرير عن الحلقة الدراسية التي عُقِدَت للكتّاب والمحررين في دير ما ربهنام.

ويطيب لي ان اثبّت فقرة مما كتبته آنذاك في افتتاحيّة هذا العدد الخاصّ، تحت محور "الفكر المسيحي: مجلة ملتزمة": "من دون ان نفتح سجل المرافعة، نرى لزاما علينا ان نضع اهداف المجلة على المحك لنكون وقرّاؤنا على بيّنة، فلا نُطالَب بمهمّات ليست من صلب مهمّاتنا الصحافية، ولا نُحاسَب على تجاوزات او انحرافات ليست كذلك[٤٤]... كما لا نرضى أن تُقيّدَ حريتنا في التعبير عمّا نعتبره حقّا من حقوقنا، ونرفض الانقياد لمواقف تجعلنا نخون رسالتنا الصحافية او نخلّ بمسؤوليّاتنا الاعلامية

(٤٤) تعرّضت الفكر المسيحي من حديد لحملة معادية في بداية عهد البطريرك بيداويذ ولم تعد، لا الاسباب ولا الدوافع، خفيّة على احد! فكان لنا لقاء للتفاهم مع غبطته وعدد من الاساقفة والكهنة سرعان ما اعقبته ضغوط استفزازية خرجنا منها بسلام!

والثقافية في كنيسة العراق". وواصلت "الفكر المسيحي" جريها بعزم أكبر، في الامانة على خطّها الفكري من وحي المجمع، وعلى توجهها في خط الدفاع عن حقوق الانسان... واتّسمت طباعتها عام ١٩٩٠، بالاناقة في رعاية مطبعة الاديب، وكان لعددها الخاص في "الحركة المسكونية ٢٥ عاما على المجمع" لون خاص، تميّز بانفتاحه الواسع وجرأته في طرح الافكار المسكونية -وقد تخلله شريط سَجّلَ ابرز المحطات المسكونية لدى الكنائس المسيحية كافة.

وسرعان ما استفاق العراق مع بدء عام ١٩٩١ على هجمة شرسة شنّتها الولايات المتحدة تحت غطاء الامم المتحدة، وبتواطؤ ٣٣ دولة، بحجة دخول العراق الى الكويت، وبضوء اخضر من سفيرتها فيه! وتأثر كل شيء في اثر هذا الهجوم البربري، برّا وجوّا وبحرا، وبكل اشكال الاسلحة، وفيه دُمِّرت البُنى التحتية في البلد... وعاد العراق الى ازمنة الظلام على مدى قرابة ثلاثة اشهر... وطالت الحرب الفكر المسيحي، حين كان عددها لشهر ك٢ معدّا، لكنه لم يظهر الا في نيسان! وبفضل مجازفة كمنت في توجهي الى بغداد بالبيكب، وبنزين بسعر مرتفع لم نألفه فيما مضى! ولعلّ الفكر المسيحي كانت في مقدمة المجلاّت والصحف في الظهور بعد الحرب الشرسة... حين صدر عددها يحمل الرقم ٢٦١-٢٦٤ للاشهر ك٢- نيسان ١٩٩١. ويطيب لي هنا أن اذكّر بافتتاحيته بعنوان "وانت يا كفرناحوم، ألعلك ارتفعت الى السماء؟[٤٥]..." لم تخشَ من التحرّش بالمحتل الامريكي وفضح نواياه ومطامعه الدنيئة في بلد لم يكن "استقواؤه" عليه بطولة!

وازاء هذه "القوة القادرة على كل شيء" -ولم يعد لها مُنافس على الساحة الدولية- كيف يمكن، من بعدُ، لدولة من دول العالم الثالث أن ترفع الرأس أو تُناصب العِداء؟ فيا لوقع ذلك النداء الذي أطلقه يسوع بحق كفر ناحوم: ألعلك ارتفعت إلى

(٤٥) يطيب لي هنا أن اثبّت بعض فقرات تلك الافتتاحية: "سمعتُ، ابان الحرب، من احدى الاذاعات هذا القول: مَن يقتل شخصاً يُعدّ قاتلاً! ومَن يقتل عشرة اشخاص يُعدُّ بطلاً! ومَن يقتلُ الألوف يُعدُّ كُلّي القُدرة"! فقلتُ في سرّي: يا له من منطقٍ أخرق، طالما ينبغي للمرء: كي لا يُعدّ قاتلاً، أن يقتل الألوف ليتحوّل من منزلة البطولة إلى "القُدرة اللامُتناهية"! أليس بهذا المنطق تعاملت الولايات المتحدة وحليفاتها مع شعب العراق حين انقضّت طائراتها المقاتلة، قبيل فجر ١٧ ك٢ الماضي، على بغداد وسائر المدن العراقية؟ ولماذا الحرب بهذه القسوة؟ وهل حقاً نَفَدَت كُل وسائل الحوار؟ أَلَم تختفِ وراء قرار الحرب بالذات نزعة إلى فرض الصمت، من جانب العفريت الأكبر، على كل دولة تكسر عصا الطاعة أو تسعى إلى انتزاع سيادتها بشموخ" (...)

السماء، ستهبطين إلى الجحيم؟! ومنذئذٍ اضطرت المجلة الى الظهور بوتيرة اربعة اعداد في السنة! ولكنها واصلت جريها وان بوتيرة فصلية، بالرغم من المعوقات الكثيرة بسبب الحصار الذي فُرِضَ على العراق. وكما صمدت من قبل بوجه كل الازمات المادية، صمدت بوجهها في التسعينات أيضاً، ولن تكون للازمة المالية في تسليم المجلة اية صلة، لا من قريب ولا من بعيد!

ولا بدّ لي ان اختم مشواري مع الفكر المسيحي بهذه الشهادة:

لا انكر قط اننا نحن الثلاثة (جرجس، نعمان، بيوس) -ولكم اطلق علينا الاب مارون عطا الله الماروني الانطوني اللبناني لقب "الفرسان الثلاثة"، في اول لقاء لنا معه ومع كنيسة لبنان، عام ١٩٩١، وكان قد خرج من محنته الطويلة لندخل نحن فيها. فكانت لنا رحلة ولا اروع بين طوائف -والمارونية منها في المقدمة- لها اديرتها العريقة ورهبانياتها النشطة ومؤسساتها وجامعاتها وشخصياتها... لا انكر اننا، بعد ثلاثين عاما من العمل المتواصل في "الفكر المسيحي"، بدأنا نشعر بأن المنحنى اخذ ينزل، ولكننا لم نقبل لحظة واحدة أن ينزل بنا ونترك الامور على عواهنها... فلقد كان لنا همّ واحد: ألاّ يختفي هذا الصوت من كنيسة العراق، والاحرى بنا ان "نموت، وتحيا "الفكر المسيحي"! فمن منطلق الحرص على ديمومة الفكر المسيحي (اقرأ الافتتاحية بهذا العنوان في عدد تموز/ت١ ١٩٩٤)، وبدافع تأمين استمرارها، واستباقا لما كان يخبئه الزمن لنا وكأننا استبقنا وفاة الاب نعمان المبكرة وارتقاء الاب جرجس الى الاسقفية في العام ذاته (١٩٩٩)!- رحنا نبحث عن بديل يكون بوسعه أن يؤمّن هذه المسؤولية، ولم نجد خيرا من الآباء الدومينيكيين بصفتهم رهبانا يعيشون الشركة في الرسالة، وبينهم كثيرون أسهموا في الكتابة فيها، كما بينهم من كان يستعد، بعد الدراسة، للالتحاق باخوته في العراق...

"لم يسبق لي أن شاهدت تسليما بهذا المستوى الحضاري"! قالها رئيسهم الاقليمي حين كان لنا معه لقاء طرحنا فيه مشروع التسليم بشعور كبير بالمسؤولية وبروح عالية من السخاء والمجّانية... ودافعنا الوحيد كان أن يبقى صوت الفكر المسيحي مناديا في كنيسة كانت وما زالت بحاجة الى ان تسمع صوت الروح يناديها عاليا! كل هذا جرى في العامين السابقين لسنة تسليم الشعلة، حين بدأنا بلقاءات مكثّفة أوقفنا فيها الإخوة على اهداف المجلة الرئيسة وكيفية الامانة لها في ظروف الكنيسة والبلد الراهنة؛ كما كنّا نحيطهم علما بطبيعة الوسيلة الاعلامية وقوانينها

وطرق عملها واسلوب ادائها، وعل كافة الاصعدة، من ابواب المجلة الثابتة، والملف في المقدمة، وحتى زاوية "مع القرّاء"، مرورا بشؤون راهنة والأنباء والتحقيقات والمقابلات... وكنّا نمنّي النفس أن يلتزم اخوتنا بما يضمن للفكر المسيحي طابعها غير الفئوي، ويحافظ على خطّها الفكري الذي استقطب قرّاء كان ينبغي الحفاظ عليهم، ويبقي على توجهها النبوي الذي طالما استهوى قرّاءها وشدّهم اليها... وكل ذلك في اطار فكر كنسي منفتح ومتجدد، يستلهم المجمع المسكوني ويتطلّع الى البعيد، خدمة لقرّاء يهمهم أن تدلّهم المجلة على المواقع التي يتجسّد فيها الانجيل وتتخذ فيها الممارسة المسيحية شكل التزام جاد وواع بحياة مجتمعاتنا التي يصبو القرّاء الى ان يلمسوا فيها قيم الحب والحق والعدل والحرية والسلام...

وليسمح لي ان اثبت هنا آخر افتتاحية كتبتها بمناسبة العدد ٣٠٠ -وهو الاخير من مشواري مع الفكر المسيحي، وكنت وزملائي، والحمد لله، بأتم الصحة والعطاء- ليقف قرّائي على ما كان يخالجني آنذاك، والآن أيضاً، من تطلعات وآمال بشأن مستقبل الفكر المسيحي التي اقتربت هي الاخرى من يوبيلها الذهبي الذي اتمنّاه، معنا ام بدوننا، يكون منعطفا في اتجاه التجدد...

"ذلك هو المغزى العميق من عملية تسليم الراية" إلى الآباء الدومينيكيين العراقيين، وهي تنم عن حرص شديد على ديمومة مجلة ظلت ٣٠ عاماً في عهدة روادها الأوائل، وقد ابوا إلاّ أن يكونوا الشهود على استمرار الحياة، سواء معهم أم بغيابهم! أليست هذه العملية اشبه بزفّة؟! (...)

"فليكن انسحابنا في الوقت المناسب -وإن خُيّل للبعض أنه مبكّر- فرصة لِحَمَلَة الراية الجُدُد لكي يذهبوا بها في رحاب مسيرة نتمناها طويلة وفريدة، ظافرة وصامدة (...)

بهذا العدد تكون مجلتكم قد اكملت ٣٠ عاماً فعلياً من عمل صحافي دؤوب... وهكذا وسمت بطابعها الفريد ونهجها المتميّز -وقد اتسم بالتجدد

والروح النبويّة- كنيسة عراقية عاشت بين الستينات والتسعينات مرحلة دقيقة من تاريخها هي مرحلة التحولات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية.

وها هي، في تمام أعوامها الثلاثين، تعلن مع بدء ١٩٩٥، عن ولادة جديدة ستُسَجِّل بدء شوط جديد نتمناه يكون، في توجُّهاته الرئيسة، تواصلاً مع الشوط الذي قطعته، لا بل تجاوزا اياه باتجاه الافضل، مضموناً واخراجاً (...) وما نحن وخلفاؤنا سوى "خُدّام" الكلمة الحرّة الجريئة، ولا سيما حين ندرك اننا خدّام كلمة الله "التي لا تُقيَّد" ذلك هو فرحنا وقد اكتمل!"

واقول للتاريخ -وكان قد كتبها عام ١٩٧٧ **الأب المرحوم بطرس حداد** (+٢٠١٠) في معرض حديثه عن المجلات المسيحيّة في العراق، بمناسبة العدد الخاص عن كنيسة العراق عام ١٩٧٧: "كانت وما تزال مدار جدل بين القرّاء، أحبّها البعض وأطنبوا في مدحها واعتبروها معبّرة عن تطلّعاتهم الدينية والانسانية، وأدانها آخرون ونبذوها وقالوا أنها شطّت في تعبيرها وأفكارها. ونترك الحكم عليها للتاريخ"... أملي أن ينصف التاريخ في حكمه على سنوات الفكر المسيحي السمان في عُهدَة روادِها الأوائل، كهنة يسوع الملك، هؤلاء الذين أبى الصديق الفنان ماهر حربي -ولَكَم خَدَمَ المجلة بخطوطه ورسومه ومقالاته- إلاّ أن يجري معهم "مقابلة" نُشرت في العدد الخاص بمناسبة اليوبيل الفضي (ت١-ت٢ ١٩٨٨).

"لماذا لا تسترجعوها؟!" مقولة راحت تتكرر على مسامعنا في السنوات التي تلت تسليمنا "الفكر المسيحي"! مقولة لا تُفرحنا بقدر ما تؤلمنا... ولَكَم قلناها ان المجلة اشبه بالعروس التي يزفّها والداها وينتظران أن يعرف زوجها قدرها! فنحن لا نأسف على خطوة حضارية قمنا بها، دحضاً لمقولة "المجلات تموت مع اصحابها"، وانما قلناها ونقولها جهاراً لخلفائنا: الفكر المسيحي أمانة في عنقكم! ذلك انها ولم تبلغ ذروتها -مع ٧٥٠٠ مشترك، وهو رقم لم تحلم به مجلة مسيحية في الشرق- إلا بفضل نبرتها النبويّة وطروحاتها الجريئة في قضايا الكنيسة والمجتمع ومعالجاتها للشؤون الراهنة في كنيستنا وكنائس الله في العالم. عسى ألاّ تُخيِّب آمال قرائها بها!

دير القيامة / شيروح ٢٠١١/٨/١

٢٢

مشواري مع الدراسات الكتابية

مشواري مع الدراسات الكتابية

إذا كان اليوبيل الفضّي للفكر المسيحي عام ١٩٨٩ ذكرى لا تمحى! غير انه جاء ليوقف، مدة سنتين، نشاطا كانت بداياته قد انطلقت في خريف ١٩٨٧، تمخض عن قيام مركز الدراسات الكتابية (م.د.ك.) -ويحتفل هذا العام باليوبيل الفضي! انّه مركز الدراسات الكتابية الذي لم يكن يخيّل اليّ قط، يوم دعوت نفرا من المؤمنين إلى "دورة أعمال الرسل" انه سيصبح مركزا بشقّين: دراسة كتابية أكاديمية، إلى جانب حركة نشر واسعة عبر "دار بيبليا"! فإذا كانت " الفكر المسيحي" مولودتي البكر، فمركز الدراسات الكتابية هو مولودي الثاني!! ويطيب لي أن اعتبره، عبر توجهاته الثقافية وحركة النشر التي أطلقها، بمثابة امتداد للفكر المسيحي! فلقد تمخض هو الآخر عن دورات تسع، كل دورة منها تعتبر ولادة، إذ تمدّ الكنيسة والمجتمع بخرّيجين وخرّيجات امتلأوا من كلمة الله وجعلوا منها غذاءهم، ويودّون أن يقاسموها إخوة وأخوات لهم ويكشفون لهم ما فيها من عذوبة: ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب!

كل شيء بدأ بصرخة أطلقها احدهم: لماذا لا تحدثوننا عن أعمال الرسل؟ وما زلت اجهل ماذا كان يقصد آنذاك؟ هل كان يتوقع أن سفر أعمال الرسل سيحدثه عن كل رسل المسيح الذين نجهل الكثير من نشاطهم الرسولي ومسيرتهم في الشهادة لإنجيل المسيح...أم كان ينتظر أن يفسّر هذا السفر الذي ظاهره تاريخي، ولكنه لا يشفي الغليل، إذ يترك في الظل أخبارا كثيرة لم تدوّن: ماذا عن القديس بطرس الذي اختفت آثاره بعد خروجه من السجن؟ ماذا جرى لفيليبس، احد السبعة، بعد أن لزم مركبة الحبشي وراح يبشره بيسوع انطلاقا من آية من اشعيا في العبد المتألم؟ وبولس الذي ملأ حضوره سفر الأعمال، ولا سيما بدءا من نصفه الثاني، لماذا لم يرد خبر وفاته أو استشهاده؟ هل مات لوقا نفسه قبل أن ينجز كتابه؟

هذه الأسئلة وكثير غيرها، وعلى مستويات مختلفة، كانت تختلج في فكر ذاك الذي أطلق النداء، وهو نفسه لم يلتحق بدورة انطلقت للحال لدراسة سفر الأعمال، ومن ثمّ سميت "دورة أعمال الرسل"! دورة انطلقت بالتحديد في ١٩ ت٢ ١٩٨٧وضمّت حوالي خمسين شخصا، فيهم الشاب والشابة، والكهل والعجوز، وفيهم الاستاذ وخرّيج الجامعة، إلى جانب ربة البيت التي كانت بالكاد تحسن القراءة... وكان

فيهم من الطوائف: السرياني والكلداني والارثوذكسي -ولكم سيعاني ذاك الارثوذكسي المثقف مما كان يُطرح في الدورة من أفكار واجتهادات بدت له، لأول وهلة، وكأنها خارجة عن الإيمان، وهي في الواقع من صلب الإيمان... وإذا كان في أصل "الدورة" ذاك المحاور العنيد الذي أطلق الصرخة الأولى، إلا أن الدافع الأكبر إليها يرقى إلى الأب اسطيفان شربنتييه الذي اتخذته صديقا ودليلا منذ أن حصلت على كتابه المترجم إلى العربية عام ١٩٨٣ بعنوان "دليل إلى قراءة الكتاب المقدس". وكنت قد التهمته في حينه، ورحت امضغ طروحاته لفترة طويلة، حتى شعرت انه من الواجب عليّ أن أُشرِك في اكتشافاتي عددا من المؤمنين الذين كانوا يبحثون عن أجوبة شافية وعميقة لأسئلتهم، وهي الأخرى أسئلة جوهرية ولا يمكن أن يعطى لها جواب كيف ما كان!

وهكذا انطلقت الدورة بطلبة من كل الأعمار ارتضوا أن يقوموا بالمغامرة، برفقة لوقا كاتب سفر الأعمال، وسيدركون من ثم انه هو ذاته كاتب المؤلَّف ذي الجزئيين، الإنجيل والأعمال، ومع دليل كان هو الآخر طالبا ومعلّما!... ولكَم كان يطيب لي أن أحس بأنّي أُعلّم ما كنت أتعلمه في سرّي وخلوتي... ويطيب لي اليوم، وأنا اكتب بعد ٢٥ عاما على تلك الدورة، ان استذكر سنوات التعليم التي تواصلت مع دورات متتالية تخرّج فيها ٤٠٤ من الطلبة، على مدى الأعوام ١٩٩١-٢٠١١، ويؤسفني أن بعض "خرّيجي" دورة أعمال الرسل لم يصبحوا من بين خريجي مركز الدراسات الكتابية... قلت: يطيب لي أن استذكر سنوات التعليم وأنا "أتطور" سنة بعد سنة في أسلوب الطرح وفي عمق المعالجة، مع طلبة يشعرون أنهم يسمعون في كل مرة شيئا جديدا، حتى وان كررته عشرات المرّات! ويصح ذلك بشكل خاص في موضوع القيامة حيث أشعر في كل مرة أقدمه، اني اطرحه بشكل يبدو جديدا! أفليس هذا دليل على أن موضوع القيامة ذاته يحمل في طيّاته جدّة تُكتَشَف كلما انكبّ المؤمنون على استجلاء ما ينطوي عليها من أبعاد، وهي تلك الحقيقة الجوهرية التي تُعاش أكثر مما تُعلَن وتُفسَّر... أليست هي دعامة الإيمان التي لولاها لكانت "كرازتنا باطلة، وإيماننا باطلا"؟! أليست هي حقيقة كبرى لم يكن بوسع احد أن يعرفها أو يدركها، لولا وحي من الله يكشف عن مضمونها؟ أوَليست بالتالي حقيقة هي وحي تلقّاه الرسل في الإيمان وحاولوا من ثمّ أن يدركوا ابعاده في ضوء حياة يسوع برمتها وفي ضوء الأسفار المقدسة؟ والرسل والتلاميذ الأولون والمسيحيون الأوائل، ألَم يجدوا صعوبة كبرى في التعبير عن هذه الحقيقة، سيما وانها تخرج من نطاق الخبرة الحسية وتتجاوزها إلى خبرة إيمانية، حتى إنهم أجهدوا النفس في البحث عن صيغ للتعبير عنها دون أن تفيها دوما حقّها!

من هذا الحدث المؤسّس للإيمان المسيحي انطلقت دورة أعمال الرسل، سفر

يضعنا فصله الثاني بإزاء الروح القدس، وهو هبة القائم من بين الأموات الذي سيكشف للتلاميذ ما معنى ان الله أقام يسوع ورفعه ومجّده... ألم يضع لوقا على لسان بطرس، في خطابه يوم العنصرة، بعد حلول الروح القدس على التلاميذ، هذه الكلمات: "فلمّا رفعه الله بيمينه، نال من الآب الروح الموعود به، فأفاضه، وهذا ما تشاهدون وتسمعون"! فمن حدث القيامة انطلقت كل الدورات المتتالية التي علّمت طلاّبها أن يعيدوا قراءة حياة يسوع برمّتها، ولا سيما آلامه وموته، في ضوء قيامته، ويعيدوا في الوقت ذاته قراءة الأناجيل برمتها، بصفتها شهادات إيمان كُتِبَت في ضوء القيامة ولا تُفهَم إلا بنورها... ذلك أن يسوع الذي رسمت ملامحه هو المسيح الرب الذي كشفت القيامة عن هويته الإلهية وعن مكانته في سر الثالوث، بصفته الكلمة المتجسد الذي أولي كل سيادة وسلطان ومجد...

هكذا، إذن، انكب طلبة الدورات التسع المتتالية على موضوع القيامة، ومنه على بيئة العهد الجديد بمكوناتها المختلفة، ليخلصوا إلى تحليل مكثّف بشأن تكوين الأناجيل واكتشاف مصادرها، ويصبحوا من ثم أمام أناجيل ازائية تتشابه بقدر ما تختلف... وبالتالي يتمحور الاهتمام بأحدها، وهو مؤلّف لوقا الذي ينفرد بين الإنجيليين بصفته يتضمن جزئين، الأول –وهو الإنجيل– في كل ما عمل وعلّم يسوع... والثاني في كل ما يعمله يسوع الحي ويعلّمه عبر الكنيسة التي هي امتداد لحضوره بين البشر.

وفي خلال الرحلة في العهد الجديد، وفي مؤلّف لوقا بالتحديد، وعلى مدى سنتين، كان التأكيد مستمرا على أن كل ما كتب في العهد الجديد لا يفهم إلا بنور الأسفار المقدسة التي هي بمثابة الخلفية له... وهكذا، وعلى مدى سنتين، أدرك الطلبة أنّ عليهم أن ينكبّوا على العهد القديم ليقرأوا فيه ما ينطبق على يسوع، أو بالأحرى أن يكتشفوا كيف طبّق للمسيحيون الأولون كل ما كتب في التنخ (التوراة والأنبياء وسائر الكتب) على يسوع، ويقرأوا في ضوئها سرّه ولا سيما سر آلامه وموته وقيامته ورفعه وتمجيده...

وهذا ما جرى في الواقع: فبعد السنتين الأوليين لأول دورة بدأت في ١٩٩١/١/٣ وأوقفتها حرب الخليج الأولى، واستؤنفت من ثم في ١٠/٣ من السنة ذاتها، بدأ طلبة الدورة الأولى، بمرافقة الأب (المطران) جرجس، بسنة ثالثة سرعان ما أعقبتها سنة رابعة تكللت بتخرج ٥٠ طالبة وطالبا من أصل أكثر من ١٠٠! وبشعار "كلمتك نور لخطاي" (١٩٩١-١٩٩٥). ومنذئذ أصبح تقليدا استقبال طلبة جدد لدى كل تخرج، فكانت دورة ثانية (١٩٩٣-١٩٩٧) وثالثة (١٩٩٥-١٩٩٩) ورابعة (١٩٩٧-٢٠٠١)، وخامسة (١٩٩٨-٢٠٠٢)- وكانت قد أقيمت لطلبة النواحي،

يوم جمعة، ولم تتكرر المبادرة. وفيما عرفت الدورة السادسة تعثرا لسنة (١٩٩٩-٢٠٠٤) والدورة السابعة تعثرا لسنتين (٢٠٠١-٢٠٠٧)، بسبب الأوضاع الأمنية التي شهدها العراق بعد السقوط، وشهدتها الموصل بنوع خاص... انتظمت الدراسة في الدورة الثامنة مع انخفاض في عدد الخريجين (٢٠٠٥-٢٠٠٩)، وكذلك الحال مع الدورة التاسعة (٢٠٠٧-٢٠١١). ومعهم أصبح عدد الخريجين الكلي: ٤٠٤! وفيما كنت اعوّل كثيرا على هؤلاء الخريجين في تنشيط كنائسنا وإشاعة الثقافة البيبلية بين مؤمنيها، اضطرت الظروف الأمنية المتردية الكثير منهم إلى الهجرة، ولكنهم أصبحوا في الوقت ذاته سفراء المركز في أربعة أقطار المسكونة! ويحملني التفاؤل إلى القول: بقدر ما تُفقِر كنائسنا هجرة هولاء الشبان والشابات الذين مروا في المركز على مدى ٢٥ عاما، سواء كان لسنة أو سنتين أو ثلاث، أم لأربع، تلقوا خلالها ثقافة كتابية رصينة أضفت على إيمانهم عمقا وعلى التزامهم للمسيحي زخما... بقدر ذلك أصبحوا رسلا وشهودا للمسيح الحي في كل بقاع الأرض، بدءا بالأردن وسوريا ولبنان، والى الولايات المتحدة واستراليا ونيوزلندا، مرورا باوربا وبالأخص هولندا والمانيا وفرنسا والسويد.

ومن دواعي الفرح والتفاؤل ان الدراسة الأكاديمية سرعان ما اقترنت بحركة نشر واسعة بدأت، أولا، باستنساخ عدد من الكتب البيبلية، وفي مقدمتها "الدليل إلى قراءة الكتاب المقدس" -واقدّر عدد النسخ المكثّرة بأكثر من ألفين!- وتمخضت من ثمّ بظهور "ملفات الكتاب المقدس"، هذه المجلة البيبلية المتخصصة التي يشارك فيها عدد من كبار الاختصاصيين الفرنسيين في علم الكتاب المقدس، فيتناولون سفرا أو موضوعا بيبليا من كل جوانبه وبلغة سلسة وأسلوب شيق... ولعلّ ابرز ما صدر عن دار بيبليا للنشر، سلسلة "أبحاث كتابية"، بدءا من العام ١٩٩٩ والى اليوم، وسيكون، في خريف ٢٠١٢، قد ظهر منها ٢١ كتابا، من بينها ٨ كتب "تفاسير" تناولت اسفار العهد الجديد وفي المقدمة الاناجيل الأربعة، فضلاً عن رسائل القديس بولس بثلاثة أجزاء؛ ولن يبق سوى جزئين ليكتمل تفسير العهد الجديد برمته بعشرة أجزاء[٤٦]! ولست هنا بصدد استعراض شامل لكل ما صدر ويصدر عن دار بيبليا، وإنما لأرفع الشكر لله الذي مكّننا من أن نضع في متناول المؤمنين مجموعة من الكتب البيبلية الرصينة التي من

(٤٦) قبل أن يُبصر هذا الكتاب النور، انطلقت سلسلة جديدة بعنوان "روافد"، تصدّرتها "الخطوات الأولى للمسيحية في الشرق، (رقم ١، دار بيبليا-الموصل ٢٠١٢)، ويتخذ هذا الكتاب الرقم ٢ فيها. واغتنمها فرصة لاذكّر بعمل التصحيح المضني وعملية التنسيق الشاقة،وقد شارك فيها كثيرون، بدءاً من آن توما وهدى الدهين وسحر لبو، وانتهاء بسمير جرجيس، وقد تركوا بصماتهم على ملفات وكتب هي في منتهى الروعة من حيث الاخراج والطباعة -وقد تسلّمتها مطبعة الديوان في بغداد وحتى اليوم.

شأنها أن ترسخ إيمانهم وتدعم شهادتهم...

ولا يسعني أن أنسى رابطات الخرّيجين في كل من الموصل وبرطلة وقره قوش وتللسقف وعنكاوا وسان دييغو، وهي الأخرى ملتقى ومنطلق للرسالة لكل أولئك الذين تلقّوا أسسا لثقافة بيبلية لا يمكن أن تتوقف، بل عليها أن تتواصل وتتعمق وتتسع، سيما وان اللقاءات العامة بينهم تمخضت عن نشاط بيبلي باتجاه عموم المؤمنين ألا وهو "يوم" أو "أيام الكتاب المقدس"، وقد اثبت نجاحه وإشعاعه في العديد من المدن والنواحي التي أقيم أو أقيمت فيها...

وفي هذه السنة اليوبيلية (١٩٨٧-٢٠١٢) التي اتخذتُ لها شعارا "كلمة الله تواصل جريها"، تتجه أنظاري إلى الخمسة وعشرين عاما الماضية من المسيرة الكتابية، وفي الوقت ذاته أتطلّع إلى ما سيؤول إليه المركز وأنا اليوم بإزاء طلبة دورة عاشرة في سنتهم الرابعة (٢٠٠٩-٢٠١٢) يتم تخرجهم في نهاية العام الدراسي (٢٠١٢-٢٠١٣)، إلى جانب طلبة دورة حادية عشر (٢٠١١-٢٠١٤) على عتبة سنتهم الثانية، سيشهد عام ٢٠١٤ تخرجهم بإذن الله! وحين أعيد قراءة هذه المسيرة -وهي تمثل نصف مسيرتي الكهنوتية!- يجتاحني شعور عميق بالفرح المقترن بالاعتزاز بكل ما قُدِّرت علي القيام به من موقعي المتواضع. وتستحث هذا الشعور بالاعتزاز مراجعة لأرشيف الدورة على يد الدكتورة باسمة توشي، احدى خريجات الدورة الأولى وما تخلل مسيرتها من نشاطات وفعاليات كانت ولا تزال موضوع افتخار، واخصّ بالذكر تلك الرياضات الروحية والحفلات الترفيهية والسفرات التي كانت ترفرف عليها روح الألفة والانسجام...

وكيف أنسى الاندفاع الذي كان يغمر قلب طلبة الدورة الأولى وهم يقومون باكتشاف تلو الاكتشاف، وبعضها كان يطرح عليهم تساؤلات كبرى حملتهم احيانا على التشكيك بمصداقية ما يطرح؛ ولكن قناعة اكبر كانت تحملهم على الاعتراف بأنّ الطروحات الكتابية أضفت على إيمانهم مزيدا من العمق وأنارت سبيلهم إلى عيش الإنجيل والشهادة له... ولن أنسى تلك الفتاة التي في أول عيد قيامة فتحت التلفون لتقول لي: إنها السنة الأولى اشعر فيها اني احتفل بقيامة الرب وهي اكبر من أعجوبة إحياء جثّة! وفي الوقت ذاته لن أنسى أيضا كيف ان الطلبة، بعد أن يكونوا قد قطعوا شوطا في الدراسة، يحتجّون إذا ما قلت في معرض الحديث عن الإنجيليين، انهم وضعوا على لسان يسوع هذه أو تلك من الأقوال! وكان ردّي انّهم، بسؤالهم هذا، يعيدوننا إلى نقطة الصفر! فلكم كررت على مسامعهم ان الأناجيل هي نتاج الجماعة المسيحية وانها شهادة لإيمانها بالمسيح القائم، عكست خبرة المسيحيين الأولين الإيمانية بعد ان استنارت بنور القيامة، مما حملهم على

إعادة قراءة حياة يسوع برمتها في ضوئها...

واذكر جيدا، في طرحي لما سعى إليه لوقا في جزئه الثاني، كم كنت أؤكد انّه شاء أن يرسم ملامح مثالية للكنيسة كما كان ينبغي عليها أن تكون، أكثر مما كانت عليه غداة العنصرة... وان لوقا، إذا ما جمّل الصورة في ما يتعلّق بوحدة الروح والقلب والشركة في الخيرات وانتفاء وجود محتاج في الجماعة... فلكي يدعو قراءه في الثمانينات إلى أن يعيشوا هذا المثال في المحبة والفرح والسخاء والاقتسام والشركة... ولم أتردد من إعطاء البرهان، انطلاقا مما أقوله الآن لطلبة الدورات الأخيرة عمّا كان عليه طلبة الدورة الأولى: كان اولئك يتّصفون بالالتزام والجدّية والفهم والإدراك... وهكذا أيضا كنت أشبه خطيئة حنانيا وسفيرة التي استوجبت عقابا شديدا يبدو مبالَغا فيه، إذ أدى إلى موتهما الواحد تلو الآخر(!) بزوجين يثلم الكذب وحدتهما وشركتهما، حين تقوم الزوجة، على سبيل المثال، بالسرقة من جيب زوجها وتخفي سرقتها عنه، حتى وان كانت طفيفة! ذلك لان فعلها هذا يدل على عدم الثقة والصراحة بينهما... وقد تؤدي فعلة كهذه إلى انفصام عهد الزواج بينهما، وقد تقضي عليه بالانهيار المميت!

ويطول بي الحديث إن شئت أن استعرض مسيرتي التعليمية مع طلبة الدورات التسع المتتالية وما كان يرافقها من ظلال وأضواء... وأقولها بصراحة: في كل دورة، أجدني وكأني أحاضر للمرة الأولى! وأعجب أحيانا كيف تختلف الأمثال التي اضربها، إلى جانب النكات التي أطلقها للطلبة في كل دورة، إلى جانب غيرها من المقولات التي تتكرر مع كل دورة! ولعلّ أشهرها تلك المقولة التي أطلقها حين يتوقف بعضهم عن التفاعل: أأُمزّق ثيابي —كما مزّق عظيم الكهنة ثيابه احتجاجا على أقوال يسوع! أو تلك المقولة الأخرى بالسوريث بصدد أقوال لم تخرج من فم يسوع: ماذا قال للمسيح؟ الم يقل أن عليك أن تحمل إلى جارك الفقير شيئا من "الدولة" التي تلتذّ بها؟!

ولا يسعني ألا اذكر ما أخذت أقوله لطلبة الدورة الحادية عشرة الجدد في غضون العام الدراسي الحالي (٢٠١١-٢٠١٢) بشأن الكتاب المقدس بشكل عام والعهد الجديد بشكل خاص، مشبها عملية التدوين التي خرج بها الكتّاب الملهمون بما أقوم به حين بدأت، عبر هذا الكتاب، أوجز خمسين عاما من حياتي الكهنوتية ببضع محطّات توقفت عندها، كان لها وما زال معنى لا ينسى... ولكم شبّهت ما خلّفوه من كتابات، بما أقوم به الآن من خلال مشروع هذا الكتاب الذي لا يهدف إلى تدوين كل ما قلته أو فعلته في حياتي، وإنما تقديم شهادة صادقة عمّا قامت وتقوم عليه حياتي، ولا سيما في أعقاب المحنة التي تمخّضت عن عمر جديد كُتِبَ لي! أليس هكذا فعل اتيين شربنتييه

في كتاب "الدليل" حين أعطى مثل زوجين احتفلا بالذكرى الخمسين على زواجهما، وعبّرا في أمسية واحدة، من خلال علبة كارتون مليئة بأغراض وقصاصات من كل فج عميق، عن أحداث حياتهما الزوجية... ليقول بان الكتاب المقدس هو بالتالي تاريخ شعب أعاد قراءة حياته: شعب العهد القديم الذي أعاد هذه القراءة في ضوء حدث الخروج، وشعب العهد الجديد الذي قام بهذه القراءة في ضوء القيامة!

وفي سنة اليوبيل حين سنحتفل بمرور ٢٥ عاما على قيام دورة الدراسات الكتابية[٤٧]، يطيب لي أن يصبح شعار اليوبيل أمنية: أن تواصل كلمة الله جريها، بكل الوسائل المتاحة وبكل أشكال الشهادة لها، ولاسيما عبر م.د.ك. الذي كان ولا يزال موقعا تُكرّم فيه كلمة الله وتُقرأ وتُفسَّر وتؤوّن... وأتمناه يستمر في رسالته في حمل المؤمنين على قراءته واستذواقه واستلهامه في حياتهم... يطيب أن أذكّر بما قيل في حفل توقيع الكتابين التوأمين اللذين وثّقا مقالات رائدي الفكر المسيحي وزفّتهما إليهما دار بيبليا، بمناسبة يوبيلهما الكهنوتي الذهبي...كيف طرح المشاركون مسألة ديمومة م.د.ك. وكيفية مواصلة رسالته ما بعد الرائدين اللذين أمّنا التعليم على منبري العهد القديم والجديد على مدى ٢٥ عاما... وكيف كان جوابي –تواصلا مع خطواتنا الحضارية بشأن الفكر المسيحي التي سلّمناها إلى الآباء الدومينيكيين– تمنيا على إخوة يسوع الفادي في حمل الشعلة، سيما وان ثلاثتهم خريجو م.د.ك. –وقد باشر احدهم، الأخ ياسر عطاالله في السنة الدراسية ٢٠١١-٢٠١٢ بالتعليم على منبر العهد القديم خلفا للمطران جرجس القس موسى الذي التحق بمهمته الجديدة معاونا بطريركيا في بيروت... عسى يستجاب لهذا النداء الذي أطلق جهارا في حفل التوقيع (٢٠١٢/٦/١٥) فيتحقق شعار اليوبيل!

دير الشرفة ٢٠١٢/٧/٢٤

(٤٧) يسرّني أن اضيف بان مركز الدراسات الكتابية قد احتفل بيوبيله الفضي بقداس شكر في ١٩ ت١ ٢٠١٢ في كنيسة مار توما، من حيث انطلق، تلاه عرض بوربوينت حكى، بالصورة والصوت، مسيرة ٢٥ عامًا في على درب الكتاب المقدّس –وقد خصّه متحف مار توما بجناح يخلّده.

٢٣

...حُيلَ بها ابّانَ الحربِ!

وأبصرت النور ابانَ سنة سبتية!

...حُبِلَ بها ابّان الحرب!
وأبصرت النور ابان سنة سبئية !

ما أبشع الحرب! وما أبشعها حين تكون قد تزامنت مع طفولة الكثيرين من مواليد الثمانينات الذين ولدوا في الحرب، وكبروا وكبرت معهم، وتمخضت عن مآسٍ وويلات ما زالوا وما زلنا نحمل تبعاتها... وأفكر بنوع خاص في شبان وشابات في عمر الثلاثين وفوقه بقليل، كيف أن حياتهم كلها نسجت من حروب يحق لنا أن نقول فيها اليوم: لا طعم لها ولا معنى! والغريب فيها انها تبدأ ولا نعرف لماذا؟ وتنتهي ولا نعلم كيف انتهت ولماذا؟ هكذا كانت الحرب اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩٠) وما خلّفته من دمار وتهجير ومآس! وهكذا كانت الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨١-١٩٨٨) وما خلّفته من شهداء من كلا الجانبين وسالت دماؤهم سدى! أما الأغرب في حروبنا الحالية، من بعد الاحتلال الأمريكي على العراق، فهي انها تطاحن بين أصحاب المذاهب المختلفة والقوميات المختلفة والاتجاهات المختلفة... وكلها وليدة حرب واحدة: حرب مفتعلة ضد الإرهاب ابتكرتها الإدارة الأمريكية، فجاءت لنا بإرهاب أكثر وبالا... ولن نعلم كيف سيقف هذا المدّ الذي اجتاح ويجتاح دولنا العربية كافة...

ومع ذلك، بوسعنا أن نقرأ الحرب قراءة إيمانية! قراءة كنت قد قمت بها ونشرتها في الفكر المسيحي (أيار-تموز ١٩٩١) وبدأتها بقراءة بني إسرائيل لكارثة عام ٥٨٧ ق.م. حين احتل البابليون اورشليم ودمروا هيكلها وسبوا سكانها... وكان حزقيال، الكاهن والنبي، قد سيقَ إلى المنفى مع أول قافلة من الأسرى...وفي بابل سيكون مبشرا لاخوته باله قادر أن يحرره، كما سبق أن حرّره، اولا، ابّان الخروج الأول من بيت الحبس في مصر... وفي بابل، حيث لم يبق للشعب، لا ارض ولا هيكل ولا ملك، ستتروحن الديانة، ويكون الله وحده ميراثا وهيكلا وملكا... وهو الإله الذي لا يسكن في بيوت صنعتها الأيدي، بل في قلب كل مؤمن ممتلئ من حضوره... هو الذي، في ملء الزمان، نصب خيمته بيننا: والكلمة صار بشرا وسكن بيننا!

ويا للمفارقة! لقد كانت حرب الخليج الأولى حرب احتلال وجد له مبررا في

دخول العراق إلى الكويت في ٢آب ١٩٩٠، كما سيبرر ايضا هجومه الوحشي على العراق، بدعم من ٣٣ دولة، في ١٧ك٢ ١٩٩١، ليضطره على الخروج، واي خروج؟ خروجاً سيبقى يذكره بألم عميق العديد من جنودنا العائدين الخائبين، وكان بالنسبة لي فرصة لانكبّ على البدء بكتابة كتاب لكم حلمت به، يكون مدخلا مبسطا إلى العهد الجديد لقرّاء لم يكن بوسعهم أن ينضمّوا إلى الدورة الكتابية. ففي فترة الأشهر الأربعة الأولى من تلك الحرب الشرسة التي دمرت كل بنية العراق التحتية، وفي كل المدن، وعلى ضوء الشمس صباحا حين تشرق، وعلى ضوء الفوانيس والشموع عصرا وليلا، كنت قد باشرت بكتابة الصفحات الأولى منه، حين لم يكن بوسع عدد ك٢ ١٩٩١ من الفكر المسيحي أن يظهر في موعده –وستضطر هي الأخرى أن تظهر منذئذ بوتيرة أربعة أعداد فقط– صفحات "سوّدتها" على ظهر مسودّات مقالات الفكر المسيحي، بدافع الاقتصاد والترشيد في الورق! حينذاك، وبين عدد وعدد، كان قد أصبح لي متسع من الوقت لمواصلة الكتابة... ودأبت على هذه الوتيرة، وعلى مدى ٤ سنوات، كنا خلالها قد قررنا نحن "الفرسان" الثلاثة، تسليم المجلة إلى الآباء الدومينيكيين –ونقولها مجددا: لم يكن للازمة المادية اية علاقة البتة بعملية التسليم! ولا يهون عليّ أن أقول بأن تقلص ظهور المجلة، وبالأخص تسليمها، كانا فرصة لي للانكباب على كتاب لن يظهر إلا في عام ١٩٩٩ بعنوان " قراءة مجددة للعهد الجديد"! ويحق لي أن اسمّيه "كتاب العمر" لاني وضعت فيه كل قناعاتي الإيمانية مع كل طاقاتي الفكرية والانشائية... "قراءة" حبل بها ابان الحرب! وأبصرت النور ابان السنة السبتية!

لا اخفي أن دليل الأب شربنتييه كان دليلي في تصنيف ما يمكن أن يسمّى "دليلا موسعا إلى قراءة العهد الجديد"، فضلا عن عدد من الكتب البيبلية التي اتخذتها مصادر لكتاب أردته توسّعا في أفكار وطروحات جاءت مقتضبة جدا في كتب أخرى. ولعل فضله هو اني أردته موجّها إلى قرّاء، هم، أولا، طلبة الدراسات الكتابية، ومن خلالهم إلى كل طالبي الثقافة البيبلية التي أخذت تشقّ طريقها إلى المؤمنين، عبر سلسلة "دراسات في الكتاب المقدس" التي تصدر عن دار المشرق –وهي في معظمها معرّبة عن سلسلة كراريس إنجيلية (Cahiers Evangile) التي كنت اقرأ بالفرنسية بعضا منها وأعجب لعمقها وإيجازها ومستواها العلمي –وقد اعتمدت عددين منها بمثابة منهج لطلبة السنتين الأوليين في الدورة! الإنجيل كما رواه لوقا، وأعمال الرسل.

والمشكلة التي واجهتني منذ البدء هو اني لم أكن احظى بفترة زمنية متواصلة كي يتم تواصل في الأفكار والطروحات في ما كنت اكتب. بل كنت اغتنم الفراغ القليل

الذي تتيحه المسافة بين تحرير عدد وآخر من "الفكر المسيحي" لأسوّد بعض الصفحات! وسرعان ما كانت تتقلّص تلك المسافة بسبب كثافة المهمات الراعوية والاجتماعية التي كانت تفرضها عليّ ظروف ما بعد الحرب وما خلّفته من إفرازات اقتصادية ونفسية كبيرة -وقد كانت دافعا إلى تنشيط حركة الأسواق الخيرية... هكذا كانت كتابة فصول الكتاب أشبه بوحدات إنشائية كانت بحاجة إلى ربط وتنسيق... واستمّرت الحال على هذا المنوال حتى نهاية عام ١٩٩٤، حين كنّا على وشك تسليم "الفكر المسيحي" لتظهر مع بدء عام ١٩٩٥ بإدارة الاباء الدومينيكيين وتتغير الصيغة والنبرة والاسلوب... كي لا اقول: المضمون!

ومنذ عام ١٩٩٥ أصبح لي متسع من الوقت، أوزّعه بين التزاماتي الراعوية والاجتماعية والتزامي بمركز الدراسات الكتابية، وبين التفرغ للكتابة، فكانت المسافة تتفاوت بين صفحة وأخرى... إلى أن تيقنت أن الكتاب لن يبصر النور إن بقيت الحال على هذه الوتيرة. وحينذاك قررت الانسلاخ من عملي الراعوي وارتباطاتي الكثيرة للاعتكاف في تفرغ كامل لانجاز الكتاب، عبر عملية تنسيق وتدرّج في الطرح، فصلا بعد فصل، وإضافة فصول جديدة كانت ضرورية ليكتمل العمل وتسفر المحاولة عن كتاب متكامل في فصوله، فيصبح "دليلا" شاملا إلى قراءة العهد الجديد.

وكان السعي إلى اعتبار سنة ١٩٩٦- ١٩٩٧ سنة "سبتيّة"، إلا أنها كانت سنة تفرّغ للكتابة. وكتبت إلى صديقي الأب اينياس برتن الدومنيكي في بلجيكا ليستضيفني في ديرهم في ريكسنسار حيث تقوم جماعة رهبانية منفتحة، تمارس نشاطات روحية ورسولية وثقافية متميّزة... وكان ترحيب أعقبته معاملات عسيرة لاستحصال الفيزا البلجيكية... فكان كرّ وفرّ إلى السفارة البلجيكية في عمان.

كان ذلك في صيف ١٩٩٦ حين شاركت أولا في الجمعية العامة الخامسة للاتّحاد الكاثوليكي البيبلي العالمي (F.B.C.) المنعقدة في هونك كونك، وبصفة ممثل اللجنة الكتابية لمجلس الأساقفة الكاثوليك في العراق -ولم تكن يوما لجنة جادة بسبب مجلس أساقفة لم يكن في مستوى الجدّية في التعامل مع لجانه المتخصصة التي بقيت في مجملها اسماً مع وقف التنفيذ! والله اعلم بما أقول! وهكذا وجدتني منتدبا من العراق وممثلا للحركة البيبلية في العراق، وفي الموصل بالتحديد، مع ممثلين من الرابطة الكتابية في الشرق الأوسط وفي مقدمتهم منسق الرابطة الأب بولس الفغالي.

وهنا ليسمح لي القراء أن أصدي لمأساة العراقيين مع السفارات من بعد حرب

الخليج! فلقد أصبحنا حقّا نفاية العالم وغير مرغوب فيهم في الغرب، ولا سيما في بعض دول أوربا، وفي مقدمتها المملكة المتحدة التي لها من المسؤولية في الحرب ما لا يقل عن مسؤولية الولايات المتحدة! واقصّها[٤٨] لاني عشتها بمرارتها، أولا مع السفارة البريطانية في عمان -في زمن كانت هونك كونك تحت حماية التاج البريطاني قبل

(٤٨) لقد كان عليّ في أوائل تموز ١٩٩٦ أن اقدّم أوراقي إلى السفارة البريطانية وفي طيّها الدعوة الرسمية من أمانة سر المؤتمر في هونك كونك، مع بطاقة سفر إليه ذهابا وإيابا. ولا اقول ان القنصل استقبلني بقدر ما أقول انّه، بنظرة فوقية، تصفّح جوازي، وعلى الفور ردّني بحجة أن جوازي ينتهي العمل به بعد قرابة شهرين... ولم يكن امامي سوى أن أتوجه إلى السفارة العراقية طالبا ومتوسلا أن يمدد جوازي -وكان عليّ آنذاك أن ادفع ٤٠٠٠٠٠ دينار (= ٣٥٠ دينار أردني) عن التمديد الذي اضطررتهم عليه بصفتي صحافيا أشارك في المؤتمر... وكان ما أردت في مدة قياسية، حين تسلمت جوازي شاكرا بعد يومين، وعدت إلى السفارة البريطانية، وفي ظني أن الاحتجاج عن قرب نفاد الجواز قد زال... وإذا بالقنصل -ولم اعد ادري إن كان هو ذاته- يعترض على تاريخ الدعوة إلى المؤتمر، وهي ترقى إلى شهر ك٢ من تلك السنة، ومهما أجهدت النفس في إقناعه بان الدعوة إلى مؤتمر تسبق للمؤتمر بعدة أشهر، ولكني لم افلح: يجب أن تستحصل دعوة جديدة بتاريخ قريب! وهنا، ولحسن الحظ، أعطي لي أن استخدم الفاكس في دار غاندي اسطيفان، وقد كان مقيماً في عمان -وكنت آنذاك أتنقل بين داره ودار دريد هنودي- فكتبت إلى امين السر طالبا إليه أن يرسل لي دعوة مجددة بتاريخ يوم من نيسان... وكانت استجابة شبه فورية جعلتني اتوجّه من جديد -يرافقني دريد- إلى السفارة وانا مطمئن من انّها المرة الأخيرة! وسرعان ما أصبت بالدوار حين ردّ علي القنصل ردّا لم يكن في الحسبان: لم يعد لك الوقت الكافي لتحصل على الفيزا، وهي تستغرق ١٥ يوما! ولن أنسى أبدا كيف باءت محاولاتي اليائسة بالفشل أمام صلافة الموظف البريطاني حين صرفني قائلاً: next one -ولا حاجة أن أوضح ما تعنيه من طرد من دون احترام! وكان طابور من المراجعين ينتظر، ومن بينهم شهلة قزازي التي كانت لها، هي الأخرى، معاملة فيزا لأمها للسفر عند ابنها الدكتور نزار، وقد حملها هذا الموظف قبل برهة على رفع صوتها قائلة له بلغة انكليزية صافية: لا قلب لك ولا شعور، ولا تدري ماذا تعني مشاعر أم طالت غيبتها عن ابنها المقيم في لندن!

واسودّت الدنيا في عيني! وخرجنا من السفارة، ولا نعلم أين نتوجه ولمن المشتكى؟! وأول ما فكرت به بعد الصدمة أن أراجع مكاتب السفر لألغي البطاقة المرسلة اليّ من شتوتكارد مقر الاتحاد البيبلي العالمي... وهكذا كان... وعدت إلى بيت دريد مجروحا في عمق إنسانيتي... وما هي سوى دقائق، وإذا بدريد يقترح أن أكتب رسالة بالفاكس اطلع أمانة السر على الأمر طالبا إن كان بالإمكان عمل شيء ما؟ وسرعان ما جاء الجواب مع طلب نسخة من جوازي... ولم يمض يومان وإذا بالفاكس ينزل حاملا بشرى الفيزا ورقمها لدى السفارة! وعدنا في صباح اليوم التالي -وكان موعد السفر الملغى- لأواجه عين القنصل الذي لم يقو على النظر في عيني، موجها إياي إلى الداخل حيث استكملت الأوراق مع موعد لاستلام الجواز في خلال بضع ساعات! وتوجهنا إلى مكتب السفر لنستعيد البطاقة... وكان السفر في ذلك المساء عينه!!

أن تستقل عنه عام ١٩٩٧– ومن ثمّ مع السفارة البلجيكية[٤٩]!

وفي هونك كونك، وجدتني في مؤتمر عالمي ضمّ ممثّلين من حوالي ٧٠ بلدا حول "كلمة الله ينبوع حياة" انطلاقا من نص السامرية في إنجيل يوحنا... وكان لي فيه مداخلة قرأت فيها مأساة العراق في ضوء الرجاء. ولعلّ أروع ما حفظته من ايام المؤتمر، اللقاء اليومي في مجموعات بحسب اللغة، تدرّبنا فيه على اسلوب "القراءة الربية" (lectio divina) في كل صباح.

ومن بعد المؤتمر، ولتعذر مرافقتي فريقا لزيارة الصين –وبسبب الفيزا أيضا– اضطررت للبقاء في هونك كونك في دار رئاسة الأسقفية، ريثما يحين موعد طائرتي إلى عمان. فاغتنمتها فرصة لزيارة هذه الجزيرة الخيالية! وكان يترتب عليّ أن امدد الفيزا لتصبح صالحة لموعد عودتي، واضطررت لذلك أن أرافق فريقا من كوريا، على رأسه مطران، إلى جزيرة ماكاو –ولم أكن ادري أن ماكاو كانت تحت حماية برتغالية– بحيث ادخل إليها لأخرج منها في يوم واحد واستحصل الفيزا مجددا لدخول هونك كونك! وهكذا كان! ولا أنسى كيف احتضنني الفريق الكوري –وكان يقصد ماكاو للتبرك من رفات أول مبشر لكوريا استشهد في ماكاو، عبر قداس اشتركت فيه– وكنت ضيف الشرف على مائدة عشاء الكوريين الساكنين في هونك كونك! وفي هذه الأمسية صرفت ما كان قد تبقى لي من أيقونات ماهر حربي التي صرت لها داعية، لكي أفيه

---

(٤٩) أما قصتي مع السفارة البلجيكية، فكانت أكثر تعقيدا لان طلب الفيزا هو لسنة دراسية اقضيها على نفقة الدير المضيّف... ولكم أجهد النفس الأب برتن ولاسيما الأخت ماريان في المراجعات المقرفة... وكان عليّ أن انتظر في عمّان قرابة ٣ أشهر عبر مخابرة اسبوعية كنت أتلقى جوابها بالنفي، إلى أن ضاقت بي الدنيا.

وأثناء إقامتي في الأردن، كان لا بدّ لي أن التجأ إلى صديقي القديم الأب يوسف نعمات –وقد بلغني مؤخرا نبأ وفاته– وهو كاهن رعية عنجرة الذي مكثتُ عنده قرابة شهرين، أقدم خلالها بعض الخدمات، قبل أن استقر في عمّان في كنيسة يسوع الملك في المصدار حيث كانت ترتادها جالية عراقية كبيرة تولّيت إقامة القداس الكلداني لها في كل احد وعيد خلال قرابة ٣ أشهر من ذلك الشتاء القارس، وقد قضيته من دون مدفأة! ففي الأردن شعرت بضخامة المشروع، فرحت اعمل ليل نهار في "تسويد" عشرات الصفحات التي كانت تحتاج من ثمّ إلى تنسيق وترتيب... فكان فصل القيامة المكثّف الذي لم ابخل على أخوات يسوع الصغيرات بحلقة عنه على مدى ثلاثة أيام!

وفي أوائل عام ١٩٩٧ قررت السفر إلى لبنان لاستكمال سنتي السبتية ومواصلة العمل في "القراءة المجددة"، على مدى٦ أشهر في دير مار اشعيا، وهو اقدم دير للرهبانية الانطونية المارونية، ومن ثم على مدى ٤٠ يوما في دير القيامة –شبروح– فاريّا، في ضيافة الاب العزيز جوزيف هليط...

جزءاً من خدماته المجانية للفكر المسيحي...

لقد سبق أن قلت بأنّي قررت أن أُمضي ما تبقى من السنة السبتية في لبنان في ضيافة دير مار اشعيا الرابض على رابية تشرف على برمانا، وأكنّ لرهبانه الانطونيين كل الحب والتقدير لإتاحة هذه الفرصة لي لاواصل تأليف "القراءة المجددة". ففي عمّان، وبمعدل ١٢ ساعة في اليوم، كنت قد تقدمت في عملي عبر فصول أخذت تتضخم شهرا بعد شهر، وكلها بمسودة يصعب فك ألغازها وحواشيها من كل جانب، وعلى أوراق، وجهها يحمل مقالات الفكر المسيحي المعدّة للطباعة، وسوف اكشف أدناه عن هذا التفصيل! أمّا في لبنان[٥٠]، فما ان استقرّ بي المقام في غرفة من الطابق الثاني ذات نافذتين، أطلّ من الأولى على البحر من وراء بيروت، ومن الثانية على مرتفعات برمانا. وهنا انكببت ايّما انكباب لأدبّج فصولا استُحدِثَت لتستكمل الكتاب،

---

(٥٠) خلال إقامتي في لبنان، يحضرني شخصان تعرفت عليهما وما زلت معهما على الوفاء: ريتا وشعلاني التي حضرت هي الأخرى حلقة دراسية نظمتها أخوات يسوع الصغيرات في انطلياس، ورافقت فيها عددا من الشبّان والشابات على درب القيامة... وكانت الطروحات شيئا جديدا عليهم بحيث حملتهم على إعادة النظر في ما تلقّوه من معلومات كان من شأن بعضها أن تحجم هذه الحقيقة الكبرى التي هي من مستوى الخبرة الإيمانية أكثر مما هي من مستوى الرؤية الحسّية... رؤية لكم أجاد يوحنا الإنجيلي في إبراز فحواها حين جعلنا ننتقل مع توما -وهو يمثلنا نحن الذين لم نكن هناك "حين جاء يسوع"!- من الرؤية الحسية إلى رؤية الإيمان: فلسنا نؤمن لأننا نرى، وإنما نرى لأننا نؤمن! ومنذئذ بقينا على اتصال مستمر، وحتى وان تباعدت أحيانا فترات التلاقي بيننا... إلا أننا ما ان نلتقي، فكأننا ما توقفنا عن التلاقي!

امّا الصديق الآخر الذي أعتقد اني التقيته للمرة الأولى عبر لقاء قصير في دير القيامة، في أجواء رياضة روحية كان يقوم بها، بإرشاد الأب جوزيف هليط مؤسس دير القيامة وملهم روحانية رهبانيته التي لكم تمنيت لها أن تنمو وتتأصل... انّه فارس ابي غانم ذو العينين الزرقاوين اللتين تبدوان وكأنهما تعانقان المطلق... ولكم كانتا تنطقان ببلاغة تفوق بلاغة اللسان... لقد التقت نظراتنا يوما نحن الاثنين، وما زالتا تبحثان عن شيء يبدو أحيانا لا اسم له! ولكنّي واثق أن بوسع الصداقة أن تبلغ بقناعاتنا إلى شيء من الشركة، إذ أن المحبة هي أقوى من كل البراهين، وهي ابلغ اللغات...! لم يقل القديس اغسطينوس: أحبب وافعل ما تشاء؟!

وفارس هذا هو فارس "القراءة المجددة"! فما ان اطّلع على مشروعي، وإذا به يعرض عليّ حاسبة انضّد عليها ما يدبّجه قلمي، ولم يكن في تصوري آنذاك، ولا اليوم، ان أضع أفكاري وكلماتي على غير الورق! فكان اقتراح جديد -وهو الآخر من دون أية غاية غير الخدمة والتضامن مع عراقي في لبنان يعيش مع شعبه معاناة من جرى الحرب وما أفرزته من حصار جائر- يقوم في أن يعهد بالعمل إلى فتيات... وكان فرحي بالاقتراح مقترنا بالتشكيك في قدرة الفتيات على فك الغاز مسوّداتي وحواشيها، وبخط ناعم كأنه يخشى الإسراف في الورق، ويسعى إلى ترشيد استهلاكه!

فكان فصل الآلام بحسب الإنجيليين - وقد دوّنت أصلاً في ضوء القيامة وقرئت وما زالت تقرأ في ضوئها، وكتبتها أنا أيضا من بعد فصل القيامة.

وفيما كنت أعيد دوما النظر فيما سبق أن دبجته، مصحّحا ومضيفا هوامش هنا وهناك، رأيت من الضروري أن اكتب فصلا يحتوي تعريفا مكثّفا بكل أسفار العهد الجديد، بدءا بالأناجيل وأعمال الرسل وحتى سفر الرؤيا، مرورا برسائل بولس والرسائل العامة. وهكذا كان الكتاب ينمو ويكبر في الحجم والمعلومات، استقيتها مما توفر لدي من مصادر... وكان عليّ -وقبل أن أنجز كل فصول الكتاب- أن "ابيّض" تلك المسودات، وكان يعني ذلك بالنسبة لي، على وجه التقريب، إعادة كتابة! ومضيت في المهمة العسيرة، وبالكاد استطعت أن اجهّز بضع صفحات ما زلت محتفظا بها وبمسوداتها[٥١]!

وفي العراق كان عليّ أن انكبّ لتصحيح الكتاب على مدى بضعة أشهر، فكانت إضافات هامة وتصحيحات جذرية من شأنها أن تجعله صالحا للنشر. ومنذئذ بدأت عملية التنسيق والإخراج وفتح النوافذ للصور -وقد أصررت على جعل الكتاب شبه مصوّر عبر حوالي ١٠٠ صورة، ١٥ صورة منها بالألوان. كانت تلك خطوة جديدة وجريئة في ميدان النشر، بحيث تجاوزت صفحاته ال٥٠٠ ص وبسعر دعمته مؤسسة فاتلو من خلال تدخل زميلتي الأخت سلفيان التي كانت قد أصبحت مستشارة في رهبانيتها -وهي تملك ٥١%من الأسهم في المؤسسة التي مركزها لوكسمبورغ.

ولست أغالي إذا قلت بان عملية التنسيق على يد المهندس وسام مطلوب

---

(٥١) بدأت منذئذ رحلة مكوكية كان يقوم بها الصديق فارس بين مار اشعيا ومكتب الفتيات... عبر عملية تسلّم وتسليم -فاسلّم صفحات مبيّضة واتسلّم صفحات منضّدة، ولم يكن بمقدوري أن أسير على وتيرة البنات، فاضطررت أن اسلّم صفحات مسودّة اجري عليها التعديلات مع بعض فقرات "مبيّضة"! وسرعان ما اكتشفت أن الفتيات كنّ ينضّدن وجه الورقة وظهرها معا!- ويا للمفارقة! فلقد حملت الأوراق صفحة من "افتتاحية" مع تفسير للأبانا، أو صفحة من "همسات أبو فادي" مع شرح لمثل الابن الضال أو لمعجزة تسكين العاصفة... وهكذا اختلطت صفحات الكتاب بصفحات من مجلة الفكر المسيحي التي سبق أن نضّدت ونشرت قبل عام من ذلك التاريخ أوعامين! -ذلك كان ثمن الترشيد في الاستهلاك! ومنذئذ توقفت هذه العملية بجرّة قلم على ما كان قد كتب لحساب الفكر المسيحي! وهكذا أصبحت مدينا للأخ فارس عن مرحلة كبرى من مشوار "القراءة المجددة" بحيث عدت إلى العراق ومعي بضع مئات من الصفحات كانت بحاجة إلى تصحيح وتحسين، وأحيانا إلى إعادة كتابة.

استغرقت حوالي ستة أشهر كنت كل يوم تقريبا آخذ طريقي إلى محلّه في المجموعة الثقافية –ولكم تركني أحيانا لبضع ساعات انتظر قدومه بعد أن أكون قد أيقظته من النوم عبر عدة مكالمات! وكثيرا ما كنا نقفل علينا "الخبنك" لكي لا يزعجنا احد ولا يأخذ من الوقت الذي خصصّناه للكتاب... وهكذا بشق النفس، وعلى مطابع شركة الديوان، أبصر النور عام ١٩٩٩، وقد كتبت في خاتمته التي دبجتها في نهاية عام ١٩٩٧ بعنوان "وكان لهذا الكتاب قصة":

"... في سياق هذا العمل المضني والممتع معا، وقد كان أشبه بمخاض! وعلى مدى تسعة أشهر بالتمام والكمال، وبمعدل ثماني ساعات في اليوم –أكثر من ٢٠٠٠ساعة!– لكم عرفت فصول الكتاب التسعة من تطور في البنية والطرح والمعالجة، قبل أن تستقر هيكليتها... وما كان ليبصر النور لو أصررت على مواصلة عملية التطوير والتعميق والتوسيع والتدقيق...! فلئن كان فيه، هنا أو هناك، بعض الضعف أو الخلل في الطرح أو المعالجة أو البنية... ولئن كانت هناك تكرارات أو أوجه لم تستوف أو جوانب لم تطرق... فان ما يشفع فيه هو اني أردته لا يتوجه إلى الراسخين في العلم (!) وانّما أن يكون في متناول القرّاء عامة (...) ويكفيه أن يكون "دليلا" إلى قراءة مجددة لأسفار العهد الجديد في ضوء العلوم البيبلية، ويحرك لديهم الرغبة في المزيد، عبر دراسات أكثر تخصّصا!".

لقد كان ظهور "القراءة المجددة" بعد "حَبَلٍ" طال تسعة أعوام، أشبه بثورة، كونه أسهم في قلب كثير من المفاهيم بشأن الكتاب المقدس بشكل عام، والعهد الجديد بشكل خاص، فلعب دورا كبيرا في إشاعة ثقافة بيبلية رصينة، وأصبح مصدرا ومرجعا للكثير من المتتبعين الذين كانوا يتطلّعون إلى قراءة مستنيرة للإنجيل تحمل إليهم النور وتحملهم على تذوق كلماته بهدف تأوينها وعيشها والشهادة لها. ألم يكن هذا هدف لوقا حين وجّه إنجيله إلى تاوفيلس قائلا: "... لكي تعلم صحة ما تلقيت من تعليم"!

دير الشرفة ٢٠١٢/٧/٢٦

٢٤

لقد صار لنا متحف !!!

لقد صار لنا متحف !!!

ما زلت اذكر ايّ مصير كان لمخطوطات مارتوما! فلقد كانت "مزكورة" -وليس من مفردة أفضل من هذه للتعبير عن الإهمال والحالة التي كانت فيها، في زاوية من المنصّة الخلفية من الكنيسة- وكانت لنا فيها مراكع للسجود اليومي المسائي ولسنوات طويلة من الحياة المشتركة. هناك كانت مكدّسة -باستثناء اثنتين كانتا محفوظتين في خزنة الكنيسة- مخطوطات تتفاوت في أهميتها من حيث القدم والقيمة، "زُكرت" هناك وكأن لا مكان لها أفضل! وبدأنا حياتنا المشتركة في الطابق العلوي من الكنيسة، نشاهدها قابعة في مكان لا يليق بها، ولم يكن في اليد حيلة... وحتى بعد أن أصبحنا نحن الاثنين، أنا والأب نعمان، مسؤولين عن الخورنة، لم نمدّ إليها يداً! إلى أن قال احدنا يوماً: هل يمكن أن يكون هذا تعاملنا مع مخطوطات خلّدت خطّاطين حفظوا لنا ما أنتجته عبقرية أولئك الكتّاب والملافنة والقديسون من صلوات رائعة أو مقالات رفيعة في اللاهوت وتفسير الكتاب المقدس الخ... وقرّ الرأي أن يقضي الأب بهنام سوني عندنا فترة من الزمن ينكبّ خلالها على فهرسة هذه المخطوطات وتصنيفها... فكان فهرس أول عام ١٩٩٠ رصد ٧٦ مخطوطة سريانية أُثبِتَت أرقامها وفق تصنيف من خمسة أقسام.

وابان حملة الأعمار في نهاية الثمانينات نقلت المخطوطات إلى إحدى غرف المدرسة التوماوية لم تكن صالحة البتة، مما زاد في تدهور حالتها، إلى أن استقرّت أخيرا في خزانتين في سكرستية مصلّى العذراء. في تلك الأثناء راودتني فكرة لملمة ما كان مبعثرا من سجلاّت وحلل وكؤوس ومزهريّات... وحفظها وعرضها في إحدى غرف المدرسة التوماوية التي كانت قد استضافت مدرسة أم الربيعين منذ الستينات، وشغرت من ثمّ منذ بدء الثمانينات. وبدأت في غروب عام ١٩٩٥ بتشكيل لجنة من شبّان وشابّات، وعلى رأسهم الأخت فادية، عملنا يدا بيد، وعلى مدى أكثر من سنة، في هذا المشروع الجليل، في اعقاب انجاز مشروع ساحة السيارات الذي كان الأب نعمان قد باشر به. وكان إنشاء الساحة قد أتاح إجراء بعض أعمال الصيانة في صالون الكنيسة وفنائها وبالأخص في تأهيل الغرفتين المطلّتين على الفناء -وقد تمّ فتح الجدار بينهما لتصبح قاعة طويلة عبر ممر يبدو انّه كان قائما حين استخدمها **المطران بطرس هبرا** (+**١٩٣٣**) من بعد تحويل المطرانية إلى مستشفى ابّان الحرب العالمية الأولى...

وانبرت لجنة المتحف تعمل بجدّ والتزام طيلة ساعات من كل يوم، وعلى مدى بضعة أشهر، وتكثّف العمل في أشهر صيف ١٩٩٦، قبيل انسحابي من الساحة للبدء بسنتي السبتية... وكان في مقدمة الأعمال تخصيص خزانتين كبيرتين كانتا في استخدام الشمامسة لتتصدّرا تلك الغرفة الطويلة، وتحافظ على أثمن ما في المتحف: مخطوطات يرقى أقدمها إلى القرن العاشر!

وهكذا كان المتحف مولودي الأخير! فلقد كنت اسرق من أوقات التزاماتي الراعوية واهتمامي بمركز الدراسات الكتابية، ولا سيما من أوقات راحتي، كي أهيئ مكانا مناسبا لكل ما تمّ جمعه ولملمته، ولاسيما من مخزن الكنيسة ومن الكنيسة ذاتها، حين كانت كؤوس ومباخر وشمعدانات وقناديل ومزهريّات، لا بل ومخطوطات أيضا، مبعثرة هنا وهناك، فضلا عن بدلات كهنوتية وبنديرات وشراشف وواجهات مذابح وهرّارات مكدسة في خزانات خشبية بقِدَم الكنيسة... ناهيك عن زينة عيد الجسد مخزونة في دواليب ومجرّات -ولا أنسى كيف وقع نظري في مخزن الكنيسة- وهو بيت كبير كان أولا مدرسة أم الربيعين للبنات، وقسّمَ من ثمّ ليصبح دارين للإيجار، وحين اخلى المستأجرون احدهما اتُّخِذ مَخزنا تكدّس فيه من كل فج عميق! -على ملابس مبعثرة لا تمت إلى الحلل بصلة، وعرفت من ثم أنها ملابس المسرحيات التي كان يمثلها أعضاء أخوية الصليب على مسرح مارتوما ويُرصَد ريعها للجمعية الخيرية، وللحال احتفظت بها وكأني عثرت على كنز! وكانت المسرحيات التي مُثِّلَتْ وانا فتى، ما زلت اذكر منها "برهان الشجاعة".

وعلى ذكر المخزن، وقع نظري على لوحات أو صور ذات إطارات من خشب الجوز وبعضها مطعّم بالعظم، كما على ثريات وكراسي إنجيل وكرامافون ومظلة قربان... إلى جانب واجهات زجاجية لحنايا في مبنى الأخوية... فاستخدمنا عددا من هذه الإطارات القديمة وحولناها إلى عارضات (فيترينات) تضم حفنة من الأواني الفضية والمعدنية... وهكذا استفدنا من كل ما وجدناه لتوظيفه وتأهيله، لتصبح الفيترينات والخزانات ذاتها من صلب ممتلكات المتحف! وما دمت بصدد اللوحات والصور التي كان بعضها في مبنى الأخوية، ما اعظم ما كانت دهشتي حين جاءني قبل شهرين إلى الموصل الأب منصور فون فوسيل المخلّصي البلجيكي الفلامندي -وهو مدير معهد الدراسات الآبائية في بغداد والمتضلّع باللاهوت الشرقي والليتورجيات الشرقية والمخطوطات والأيقونات، وله فيها كتب ومقالات قيّمة- وحسبت في بادئ الأمر انه جاء لزيارتي في عزلتي في الموصل! ولكنه، ومن دون أن يجلس، طلب زيارة المتحف... ولم

يكن يصغي إلى ما كنت اشرح ونحن في طريقنا إلى الجناح الكنسي، وإذا بعينيه تتعلّقان، دون سائر المعروضات، بلوحة مار جرجس كنت قد حسبتها صورة مطبوعة ولكنها كانت في الواقع لوحة نادرة لمار جرجس بريشة فنان يعتقد انه يوسف الأرمني من ماردين! وهكذا اكتشفتُ كنزا جديدا كنت قد احتفظت به دون أن ادري قيمته الحقيقية!!

كانت الاستعدادات على قدم وساق قبيل افتتاح المتحف الذي تقرّر أن يكون في ١٣ أيلول ١٩٩٦، ليلة عيد الصليب. وتكثّف العمل في تلميع الشمعدانات والكؤوس والصلبان، وفي المقدمة الصليب النحاسي الذي يكرّم في يوم الجمعة العظيمة وعيد القيامة، وهو من صنع حناكت ويحمل تاريخ هجري يقابل عام ١٧٧٤ ميلادي. وهو تحفة من حيث الأشكال المنقوشة والصور البارزة ومضامينها ومعانيها. وفيما انكب الفنان ماهر حربي على تصميم شعار للمتحف استلهمه من مذبح مارتوما المليء بصلبان تبرز من دوائر منحوتة بدقّة... وفيما انبرت وفاء الحسن في خط جداريات تحكي تاريخ الكنيسة وتصدي لكهنتها القدامى واخوياتها، من اخوية العذراء المحبول بها بلا دنس المؤسَّسة عام ١٨٨٦ للرجال والنساء، الى أخوية قلب يسوع التي أسَّسها القس جرجس قندلا عام ١٩١٦ للنساء والفتيات بدرجة أولى، وحتى أخوية الصليب التي اسسها أيضًا عام ١٩٣١ للفتيان والشبان.

ومنذ الأول من أيلول من عام ١٩٩٦ تكثّفت الاستعدادات وطبع فولدر بالمناسبة وهُيِّأت ملصقات كثيرة تبرز مكانة المتحف بين معالم الموصل، حكت مسيرة قرابة ١٥٠ عاما لكنيسة شيدت بين الأعوام ١٨٥٩- ١٨٦٣، بمعية شقيقتها كنيسة الطاهرة في محلتين في قلب المدينة ما زلنا نعجب كيف تسنّى بناؤهما بهذا الحجم وهذه المساحة وهذا الفن والهندسة المعمارية[٥٢] في زمن كانت الوسائل بدائية ويدوية، إلى أن

(٥٢) تتميّز الكنيسة التوماوية بفنّها المعماري الذي اتخذ فيه الرخام الموصلي (الفرش) مساحات واسعة، وهي بثلاثة أجنحة يسندها صفّان من الأعمدة المثمّنة، ويعلوها صف من الكوابيل المتقنة، وفي الأعلى صفّان من حنايا جصيّة خطّت عليها بحرف بارز، على خلفية بلون جوزي، آيتان من إنجيل متى (١٦: ١٨-١٩) وإنجيل لوقا (٢٢: ٣١). ويؤدي الصحن الوسطي إلى المذبح الرئيسي عبر واجهة من ثلاثة أقواس نصف دائرية مزيّنة بالدلاّيات، وتظلل المذبح "خيمة" مرمرية تقوم على أعمدة اسطوانية تحمل أقواسا مؤطّرة بزخارف نباتية...وكان طلاء قد شوّه الرخام، تمت إزالته في نطاق حملة الاعمار بين الأعوام ١٩٨٤-١٩٨٧، وجدّدت الإنارة بشكل فنّي، فعاد اليها رونقها القديم! (راجع الفولدر الحديث عن كنيسة مارتوما ومتحفها- ٢٠١٢، وكذلك الفولدر الذي سيصدر بمناسبة ذكرى مرور ١٥٠ عاماً على تشييد الكنيسة -وقد أُحتفل بها في ٢٠١٢/١٢/٨ برعاية غبطة البطريرك يوسف الثالث يونان...).

أطلعتنا إحدى المخطوطات ان الأرض التي شيدتا عليها كانت مربضا لجمال القوافل، اقتناها الخوري (البطريرك) بهنام بني، وشيّد الكنيستين، لوقف التوتر الناشب بين السريان الكاثوليك واشقائهم السريان الارثوذكس.

كانت بدايات المتحف، الجناح الكنسي بشقّين: المخطوطات وسجلات العماذ والخطوبة والإكليل والدفن وكلها ترقى إلى عام ١٨٤٩، مع سجلات الحسابات التي ترقى إلى عام ١٨٧١، إلى جانب مجموعة من اللوحات والصور والكؤوس والصلبان والشمعدانات والصنوج والصواني وقوالب لصنع البرشان والكلبدانات والمباخر والقناديل والأجراس والشعاعات وفي مقدمتها الشعاع الذي يحمل ذخائر مارتوما... فضلا عن المذبح المرمري -وهو مذبح أخوية الحبل بلا دنس- تعلوه قبّة نصب القربان وعلى جانبيه المراوح الفضّية... أما الشق الثاني، فكان مخصصا للحلل الكهنوتية، فضلاً عن هرّارات الشمامسة من قماش "الازار" الحريري ومطرّزة بالسرمة. وتأتي في المقدمة بدلة القس جرجس قندلا بالسرمة إلى جانب بدلتين مطرّزتين للبطريرك بهنام بني، فضلا عن عدد من البنديرات وواجهات المذابح وبيت القربان... مع ملابس المسرحيات التي مثلت منذ الثلاثينات وحتى الخمسينات ولمنفعة الجمعية الخيرية التي يرقى تأسيسها إلى عام ١٩٠٣!

وفيما اروي كل هذا، لا أخفي بان كل قطعة في المتحف كانت قد أصبحت جزءا منّي، حين كنت اعثر عليها وابحث عن تاريخها وأسجلها وأعطيها رقما يبقى شاهدا عليها والى أجيال بإذن الله! وهكذا الأمر مع سائر أعضاء لجنة المتحف الّذين تتراقص ملامحهم في ذاكرتي، سواء كانوا في العراق أم ترك بعضهم إلى بلد آخر، في آخر الدنيا: هدار وسحر الاكزير، أحلام وأنغام جميل، وفاء الحسن، فادية دكرمانجي، رجاء نوئيل، هدى الدهين، ماهر حربي، عوني إيليا، وفي مقدمتهم الأخت فادية التي بقيت أمينة على المتحف حتى اليوم، ومعها سميرة جرجيس التي جاءت في مؤخّرة القافلة فأخذ المتحف بمجامع قلبها!

وكان أول اهتمامي قد صببته على المخطوطات والكتب القديمة، فرحت أضيف على سجل المخطوطات ما كان قد بقي مبعثرا في الكنيسة من مخطوطات وكتب عربية وسريانية، فضلاً عن المخطوطات والكتب والمجلات، وبمختلف اللغات، التي استحصلها من هذا وذاك، ومن هنا وهناك، لأضمّها إلى السجل، بحيث أصبح عدد المخطوطات ١٢٠ يمتد تاريخها على القرون العشرة الأخيرة -وغني عن القول إن المخطوطات ثروة في حدّ ذاتها ولا سيما تلك التي توغل في القدم. وباهمية ادنى، أصبحت مكتبة المتحف

غنية بالكتب القديمة، ولا سيما السريانية والعربية، وقد زاد عددها على ٤٠٠ كتاب يأتي في مقدمتها الأناجيل الأربعة (طبع روما عام ١٥٩١) وتوراة بالعربية واللاتينية (طبع روما عام ١٦٧١) -وللأمانة أقول إن الأناجيل الأربعة مع عدد من الكتب القديمة جاءت من مكتبة الأب المرحوم جبرائيل جرجي التي أهديت[٥٣] إلى مارتوما. وتحتفظ مكتبة المتحف بمجموعة من كتب مطبعة الشوير (لبنان) -وهي من أقدم المطابع في لبنان- مع مجموعة كبيرة من الكتب المطبوعة في مطبعة الآباء الدومينيكيين في الموصل -أقدم مطبعة في الموصل- يأتي في مقدمتها الكتاب المقدس، وبطبعات عديدة، اشرف على إعادة ترجمته ونشره عام ١٩٧١ العلاّمة السرياني الخوري (المطران) اقليميس يوسف داؤد (١٨٢٩- ١٨٩٠).

ولم تمضِ ثلاث سنين على افتتاح المتحف وإذا بنا نعدّ العدّة لفتح جناح التراث الموصلّي انطلاقا من فكرة ان على المتحف أن يلتفت إلى كل التحف والأثاث المنزلية وأدوات الحياة اليومية... ففي عام ١٩٩٩ اهّلنا الغرفة المذببة لتستقبل الكثير من الاثاث والاواني والتحفيات من أدوات طعام وقدور ومواقد وسماورات وسطلات وطاسات وكلبدانات وصواني[٥٤]... وفي عام ٢٠٠٠، وبعد انْ أُهِّلَ

(٥٣) بصدد الإهداء، كانت اولى المكتبات المهداة لكنيسة مار توما للمرحوم نجيب قاقو (١٩١٦- ١٩٩٤)، تلتها مكتبة الأب جبرائيل جرجي، ومن ثمّ مكتبة المرحوم مؤيد عبد السلام اليسو (١٩٥٢- ١٩٨٨)؛ وكان كل كتاب يرقى طبعه إلى ما قبل ١٩٠٠ يحوّل للحال إلى مكتبة المتحف. وتأتي من ثم الكتب المهداة من الأب المرحوم نعمان اوريدة، وعدد من كتب المطران ميخائيل جميل والمطران جرجس القس موسى، فضلا عن مكتبتي (حوالي ٣٠٠ كتاب). وكما أُهديت مؤخرا مكتبة كهنة يسوع الملك (حوالي ٥٠٠ كتاب) ومكتبة برناديت عفاص حوالي (٣٠٠ كتاب)، وعدد من كتب عائلة المرحوم عبد الغني الدهين والمرحومة بتول سليمان داود... فضلا عن كتب متفرقة تهدى وأخرى كثيرة يقتنيها مركز الدراسات الكتابية، فأصبحت كنيسة مارتوما تتمتع بمكتبة عامرة في شتّى حقول المعرفة تجاوز عدد كتبها ٤٠٠٠ -وقد وضعت في متناول طلبة المركز كما في متناول المؤمنين، وهي ماضية دوماً في النمو بفضل ما يمدّها به م.د.ك.

(٥٤) كانت عيناي تدور في كل الاتجاهات، في الأزقة كما في الدور بحثا عن غرض أو قطعة أثرية أو تحفة فنية لدى هذه العائلة أو تلك... وهكذا كانت الأغراض تزداد باطراد، وشهرا بعد شهر، حتى أصبح في حوزتنا -وقلّما نشتري كما حدث أن اشترينا الصندلية المطعمة بالعظم، مع مرآة ذات اطار مزخرف، من دار فتح الله السحّار، ودفع ثمنها آنذاك مشكورا الأب ادريس شعبو- بمجموعة كبيرة من القطع والأواني والأدوات، من المرمّلة -وأحيانا بأعداد مضاعفة- إلى الحب فالجاون والجاروشة والهاون والدكرمان بأشكاله والاوقي... ومن الدن والكوارة إلى السدود والبغاني والجرار وبأحجام مختلفة، فضلا عن أدوات العمل، بدءا بالحدادة والنجارة وحتى أدوات الحصاد والحياكة والغزل ومشط الصوف...وانتهاء بأدوات اللعب كالحالوسة!

السرداب، افتتحنا فيه جناح الأزياء الشعبية فاتخذت الماتيكانات بأزياء القرى المجاورة مكانها في حناياه وزواياه... ومن ثم نقلت إلى الغرفة المذهبة.

كنت اشعر بالسعادة حقا وأنا أشهد، يوما بعد يوم، تصاعد أرقام القطع المهداة أو المستحصلة بطيب الخاطر أو أحيانا بالضغط، كما جرى لي حين ألححت كثيرا على فائز فتح الله عنائي ليتنازل عن موقد من البرونز ذي قبعة مخروطية، فأهداه اخيرا حين لم يبق له أمل بالعودة من السويد إلى بغداد! وإذا نسيت، هل أنسى "الجرجر" من باطنايا، وصندوق العروس ذي المسامير المذهبة وقد تبرع به أياد قندلا قبيل مغادرته إلى السويد، إلى جانب متبرعين اخرين كُثُر خلّدوا اسمهم بما أهدوه من قصعة أو سماور أو موقد أو سد أو كلبدان أو اوني الخ... وبها اغتنى المتحف، فأصبح جناحا واسعا احتضنته أولا الغرفة المذهبة والايوان والفناء وحتى السرداب الذي ستُجرى عليه صيانة جذرية في نطاق حملة اعمار المتحف.

لقد اخذ المتحف مني مأخذا كبيرا حتى رحت احلم بصيانة جذرية لمبنى التوماوية برمته كي تصبح كل الغرف صالحة لاحتضان أجنحة المتحف المختلفة... وقامت الخطوة الاولى في التفاوض مع الأخت سلفيان بشأن إمكانية دعم احصل عليه من مؤسسة فاتلو —وقد سبق لها أن دعمت طبع كتاب "قراءة مجددة" عام ١٩٩٩. فكان علي أن اعدّ تقريرا مفصلا مدعوما بالصور التي تعكس حالة المبنى الذي كان مهددا بالسقوط... وحين تحققت من استجابة فاتلو الطلب المعروض عليها بصيانة شاملة على مرحلتين، شرعت بالعمل في حزيران ٢٠٠٢، فكانت حملة صيانة كبرى وتجديد شامل لكل الغرف أعادت للمبنى رونقه التليد ولا سيما عبر مجموعة من حمايات الشبابيك التراثية فضلاً عن مساحات من "المحجلات" التراثية، بحيث أصبح مبنى تراثيا في حد ذاته ويحتضن متحفا كنسيا وتراثيا!

وجاء سقوط النظام في قلب حملة الاعمار التي لم تتأثر كثيرا في البداية، ولكنها شهدت في النهاية في حدود عام ٢٠٠٤ تعثرا طفيفا لم يحل دون انجاز واجهة رائعة للكنيسة والمتحف معا، ولكن الظروف الامنية المتردية حالت دون القيام باحتفال تدشين المبنى —وقد ظلّ دون افتتاح رسمي!

وهنا لا يسعني ألا اصدي، بعد انتهاء أعمال الصيانة، للتململ في إعادة أغراض المتحف على الأجنحة المختلفة بسبب الأوضاع الأمنية التي ارخت عزائمنا... فكان انتظار طويل ضعفت خلاله الهمة وزادتها

حدّة عوامل الخوف والحذر التي كانت تكتنفنا فتحول دون المباشرة بالعمل. وفي تلك الأثناء جرت أحداث مأساوية في حياة العراق والموصل بنوع خاص، عبر سلسلة من القتل والخطف التي طالت المسيحيين، ولعل أبرزها اختطاف المطران جرجس في ك٢ ٢٠٠٥ واختطافي بعده في ت١ ٢٠٠٧، وكنّا قد باشرنا بالعمل، من دون لجنة، ولكن بمساعدة عدد من شباب الكنيسة المتواجدين من امثال عدي وعمار داود وقصي عولو وعمار جرجيس وايمن ويص وغيرهم كثيرين، كان آخرهم كندي حميد النقاش -وكلها باشرافي ومشاركة الاخت فادية والانسة سميرة جرجيس. فكان جناح المخطوطات في أولى أولوياتنا! وتجنّدتُ للعمل على إعادة ترتيب المخطوطات والكتب القديمة -عملت لها بطاقات السيدة نعم اوانيس- إلى جناح خاص يضمها وإبراز بعضها في فيترينات جهّزت لهذا الغرض...

كان قد بقي لي ان اقوم بتصوير توثيقي لكل المخطوطات على أقراص، الأمر الذي تمّ حين حصلت، بمعاونة صديقنا المستشرق هيرمان تول، الموافقة على دعم المشروع من احدى الجامعات، وأنجز العمل عام ٢٠٠٨ بهمة المصور ساهر والآنسة سحر لبو. وهكذا أصبحت مخطوطات مارتوما في متناول الباحثين في جامعتين، الواحدة في هولندا والأخرى في الولايات المتحدة. أما بقية الأجنحة، فلقد توزّعت عليها القطع والمواد بحسب أصنافها: فاحتضنت الغرفة المدببة مع الإيوان جانبا من التراث الموصلّي، ومعه جناح الأزياء -وقد صنعت لها في ما بعد فيترينات ضخمة تقيها من الغبار والعبث- فيما خصص جناح لغطاء الرأس ما زال العمل فيه قائما. أما السرداب الذي اهّل تأهيلا جذريا، فقد خصص أيضا للتراث الموصلي ولاسيما للقطع الكبرى من الكوارة ودواليب الغزل والدن والبغاني وأدوات النجارة والفلاحة (الجرجر) وصنع الخمر...

ومنذ عام ٢٠٠٥ كان العمل على قدم وساق بهمة الشماسين (الابوين) رائد كلو ومازن ايشوع لتخصيص جناح يحتضن الفكر المسيحي ويحكي بالكلمة والصورة والوثائق مسيرة مجلة طبعت مرحلة من تاريخ كنيسة العراق، سلسلة (١٩٦٤- ١٩٧٠) ومجلة (١٩٧١-

١٩٩٤)، لا سيما بعد أن احتفلت عام ١٩٨٩ بيوبيلها الفضي حين كانت قد اعدّت جداريات أصبحت تُزيّن جدران الجناح، بالإضافة إلى فيترينات ومجرّات تضمّنت الأرشيف بكل فروعه... وفي هذا الجناح تصدّرت المدالية الذهبية التي نالتها "الفكر المسيحي" عام ٢٠٠٧ من الاتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة، واستلمها في كندا رائدا الفكر المسيحي ورئيسا تحريرها السابقين.

ولما لم يتم للمتحف، بعد إعادة ترتيبه، افتتاح رسمي، أردت أن اغتنم قدوم غبطة البطريرك الانطاكي الجديد مار يوسف الثالث يونان (جرى تنصيبه في بيروت في ١٥ شباط ٢٠٠٩) إلى العراق في أول زيارة يقوم بها خارج لبنان وفي أول زيارة له للموصل في ربيع ٢٠٠٩. وكان المتحف على أهبة لاستقباله فتصبح زيارته له -وكان قد زاره مطرانا عام ٢٠٠١- بمثابة افتتاح له... إلا أن الاحتياطات الأمنية المبالغ فيها حالت دون مجيئه إلى مارتوما... وأصبحت المأدبة المعدّة له مفتوحة للشباب العاملين في الكنيسة!!!

وفي عام اليوبيل الكهنوتي الذهبي واليوبيل الفضي لمركز الدراسات الكتابية، كان لا بدّ أن يخصص جناح يحكي مسيرة كهنة يسوع الملك في أعقاب ٥٠ عاما على بدء الحياة المشتركة، هذا ما تمّ على يد ليث نعيم -وقد سبق له أن عمل في المتحف بلمساته الفنية- وكندي حميد ومعاونة عمار جرجيس، على تأهيل فسحة في مدخل المتحف احتضنت بالصور وبشكل فنّي مسيرة نصف قرن! فيما أُهّلت فسحة أخرى ما بين الجناح الكنسي وجناح الحلل لاحتضان جناح مركز الدراسات الكتابية، بطلبته وإصداراته، عبر جداريات رائعة عكست جوانب من نشاطه على مدى ٢٥ عاما. وافتتح الجناحان الجديدان يوم حفل التوقيع على الكتابين التوأمين والذي نظّمه المركز تكريما لأستاذيه صاحبي اليوبيل يوم ١٥حزيران ٢٠١٢.

دير القيامة ١ آب ٢٠١٢

٢٥

عشية ذكرى الـ ١٥٠ عاماً

عشية ذكرى الـ ١٥٠ عاماً

في كراس صدر عام ٢٠٠١ بعنوان "كنيسة مار توما الرسول، في ماضيها وحاضرها"، وتحت عنوان "مسيرة عمرها ١٥٠ عاماً" كنت قد كتبت أن كنيسة مار توما تكون عام ٢٠١٣ قد قطعت ١٥٠ عاماً في احتضان الجماعة السريانية الكاثوليكية الفتية... وهذا الكراس لم يُعدّ أصلاً لمثل هذه الذكرى، وإنما جاء في أعقاب افتتاح متحف مار توما عام ١٩٩٦ الذي حفظ ووثق وأصدى لتاريخ عكسته وثائق وسجلات كنسية وادبيات اخويات وسجلات حسابات... وحين كانت أعمال الصيانة على قدم وساق في الأعوام ٢٠٠٠-٢٠٠٤، ابتسمت لي فكرة جدارية في مدخل "القنطرة" تواجه القادم وتضعه إزاء كنيسة لها تاريخ يمد جذوره الى كنيسة مار توما الام المجاورة التي يرقى بناؤها الى القرنين٧-٨، وقد كانت ابان حركة الانتقال الى الكثلكة، كنيسة مشتركة بين الطائفتين، كما كانت المقبرة مشتركة أيضاً، الى يوم بادر الخوري بهنام بني، بصفته نائبا اسقفيا عاما على كرسي أبرشية الموصل، الى تشييد الكنيستين الكبريين: الطاهرة ومار توما... وسرعان ما تقدم الكراس على الجدارية! وقد اصبح من ثم أساسا للجدارية، كما أصبح مؤخراً أساساً لمادة الفولدر الرائع الذي ظهر في حزيران الماضي وقد تطلع الى يوم الاحتفال بذكرى اليوبيل الذهبي المثلث في كانون الأول ٢٠١٢.

وكنت في آخر مقدمة الكراس والمذيلة بتاريخ ١٠ حزيران ٢٠٠١ أن تمنيت لقاء الاسرة التوماوية الكبير في احتفالات عام ٢٠١٣[٥٥]! وكنت قد حددت عام باعتبار ان

---

(٥٥) كان في نيتي أن اقدم بالمناسبة طبعة جديدة للكراس منقحة ومضافاً اليها، ولكني لم أجد الى ذلك سبيلا مع زحمة العمل، فضلاً عن سائر التزاماتي وابرزها إعداد اليوبيلات في هذه السنة بالذات التي شهدت الاحتفال بيوبيلنا الكهنوتي الذهبي في ٨-١٠ حزيران في أجواء خاشعة ملأى بالشكر والتسبيح، كان فرصة للقيام بعرض مصوّر (بوربوينت) لمسيرتنا الكهنوتية منذ دخولنا معهد مار يوحنا الحبيب عام ١٩٥١. فكانت عملية بحث في الالبومات عن صور ترافق مراحل هذه المسيرة... كما كانت عملية إنشاء مادة مقتضبة ومكثفة تعبر عن أبرز المحطات من تلك المسيرة... وتجندت الانسة سحر الاكزير لمهمة المونتاج وتنظيم المواد مع ما يناسبها من صور على مدى قرابة شهر من العمل المضني، واصبحنا بالتالي بازاء عرض شيق استغرق ٤٥ دقيقة!

كنيسة مار توما تكرست في ٢٥ اذار ٢٠١٣، ولكنها في الواقع كانت قد اصبحت شبه جاهزة منذ ٣ تموز ١٨٦٢ بحيث أقام المطران بهنام بني القداس فيها بمناسبة عيد شفيعها! فاختار يوم ٨ ك١ (وهو عيد العذراء المحبول بها بلا دنس) عيدا للاحتفال بتكريس كنيسة الطاهرة، كما اختار يوم ٢٥ اذار (عيد البشارة) عيداً للاحتفال بتكريس كنيسة مار توما -ولعلها أكثر من صدفة أن يتم الاتفاق مع غبطة البطريرك مار يوسف الثالث يونان على الاحتفال بالذكرى في ٧-٨ كانون الأول ٢٠١٢ تثبيتا لفترة انجاز الكنيستين الشامختين في غضون ثلاث سنوات ونصف فقط[٥٦]!

"احب الكنيسة امي"! قالتها القديسة ترازيا الصغيرة وحفرها الخوري ميخائيل صائغ عام ١٩٦٠ على واجهة الباب الرئيسي، ويطيب لي ان اتبناها، وقد امضيت فيها عمري كله. وكثيرا ما لا اصدق نفسي اني اصبحت واحدا من اقدم الكهنة التوماويين الاحياء، من بعد الخوري روفائيل قطيمي! لا بل من "شيوخ"! الجماعة مع عدد كبير من الذين في عمري -ولا احب ان أُحصى بين الشيوخ، وانا لا زلت اشعر نفسي شابا!- من بعد بولس شماس بهنام وسالم سعودي قاقو وماري شماس بهنام ونافع بهنام لويس والبير سلمون وفوميا عبو المنصور ومارتين رؤوف صائغ ويوسف عبد حنا شموني وماري بطرس حنا شموني والشماس اكرم رضاعة الخ ... الذين ما زالوا في الموصل وضواحيها -و لا بد ان هناك "شيوخا" توماويين في بغداد وفي بلاد الاغتراب لا يسعني

وهكذا الحال مع مركز الدراسات الكتابية حين انكببت ابحث عن صور تحكي قصة بداياته، وقد مر به حوالي الفي شخص تخرج منهم ٤٠٤ على مدى تسع دورات متتالية في اعقاب ٤ سنوات من الدراسة الاكاديمية. وفي هذا البوربوينت وضعت نورا حاوا، احدى طالبات الدورة الحادية عشرة، كل قلبها مع قدراتها الفنية في اخراجه، وعملنا يدا بيد كي نجعله، يحكي بالصوت والصورة، ٢٥ عاما من مسيرة كان لها اثرها في كنائس الموصل وضواحيها، لا سيما عبر اصداراته ومنشوراته التي اصبحت مرجعا.

وكان لا بد لنا، في ذكرى مرور ١٥٠ عاما على تشييد الكنيسة، أن نتحند -بهمة الشاب الدكتور سيف مطلوب- لاعداد بوربوينت شكل كتاب تقلب صفحاته، ويخطي، بالكلمة والصورة، المحطات الكبرى من حياة الجماعة التوماوية، بكنيستها الرائعة ذات الفن المعماري الرفيع، وعبر مراحل صيانتها وتجميلها على مدى الخمسة والعشرين عاما الاخيرة...

(٥٦) جرى احتفال الكبير بالكنيستين الكبريين الطاهرة ومار توما حين رئس غبطة البطريرك مار اغناطيوس يوسف الثالث يومان، مع لفيف من الاساقفة، قداساً حبرياً في الكاتدرائية يوم الجمعة ٧ ك١، وفي مار توما يوم السبت ٨ ك١ -وقد تميّز الاحتفال في مار توما بعرض بوربوينت نال الاعجاب، تلاه استقبال في صالون الكنيسة حيث صعد الجميع للتحية على غبطته والتوجه من ثم لزيارة المتحف الذي يجسّد مسيرة ١٥٠ عاماً من حياة الكنيسة التوماوية، وبعد احد معالم الموصل البارزة.

أن اتذكرهم جميعا.

ويطيب لي ان اعود بالذاكرة الى يوم كنا نلعب في الزقاق المؤدي الى الكنيسة حين كانت هناك دور على طول الزقاق... كما كنا نتوقف في "القنطرة" عند غرفة الساعور -وهي مكتبة عامرة الان- نستجدي برشانة! وكان الساعور في طفولتي كامل يوسف (آرونة) يخبز البرشان السميك يوما بيوم، ولكم كانت فرحتي كبيرة حين كنت احصل بحق على برشانة لقاء خدمة قداس اتنافس فيها مع اترابي، في من "يحجز"، الاول، كاهنا، ومنذ الصباح الباكر -وكانوا في طفولتي ثلاثة: جرجس قندلا، ميخائيل صائغ، يعقوب كبرو، وسيلحق بهم من ثم بطرس ساعور وبهنام نهاب.

وكيف انسى شهر الوردية (شهر الوردية) حين كنا نتلو مسبحة الوردية؛ واعترف اني لم اكن من هواتها! كما لا يسعني ألاّ اذكر بغبطة عارمة يوم كنا ننتظر بفارغ الصبر قداس ليلة العيد -وهو اليوم الوحيد، مع نظيره قداس ليلة عيد القيامة، يقام عصرا- وكنا نحن الاخوة في البيت نصوم طيلة ذلك النهار ليتسنى لنا ان نتناول في عصره، ويتاح لنا من ثم ان نأكل كليجة العيد التي نكون قد ملأنا جيوبنا بها إلى ما بعد التناول، كليجة تعبنا في اعداد تمرها حين كانت امنا تُحرِّم علينا ان يلتصق لساننا به ونحن نستخرج النوى!

ويبقى عيد الميلاد ذا نكهة خاصة لنا نحن الصغار حين كنا ننتظر شعلة الميلاد التي كانت من حزم كبيرة من الشوك السريع الاشتعال، وكنا نستعد لها عبر تساعية ليسوع الطفل على مدى تسعة ايام! فيما كنا ابان صلاتنا امام المغارة نقتطع جزءاً مما كان لنا من دراهم او فواكه... لنقدمه ليسوع الطفل!

لم اعد اذكر شيئا عن عيد رأس السنة وعيد الدنح... ولكن بقي حياً في ذاكرتي الجناز الذي كان ينصب بمدرجات ثلاثة، سواء في جمعة الكهنة وجمعة الغرباء وجمعة الموتى -وهي الجمع الثلاث التي تسبق الصوم- أم في اليوم الثالث لاحد المتوفين. وعلى ذكر الصوم اذكر فقط كيف كان ثلاثة كهنة يقدسون في آن واحد على المذابح الثلاثة بحلل بنفسجية وصلبان يخفي مصلوبها بقطعة بنفسجية على طريقة اللاتين. ومن هنا جاءت عادة "تحزين" البيعة في اسبوع الآلام -وكانت مار توما السباقة في "تحزين" ما يمكن تحزينه من تماثيل وصور وواجهات مذابح و"كود" لصلاة الفرضية ومنصة الانجيل وحتى كرسي الحساية! ولا زالت ماثلة أمامي رياضة درب الصليب التي كانت تقام في جمع الصوم، حين كنا نتنافس على حمل الصليب او اقله الشموع!

وبقدر ما كنت ابدو سعيداً ليلة عيد السعانين حين كنا نرتدي الملابس الجديدة وتصدح حناجرنا باناشيد السعانين -واكثرها من تأليف القس جرجس قندلا- بقدر ذلك كنت انتظر حفلة النهيرة مساء احد السعانين حين كانت تضاء الكنيسة بالشموع وتجري، في فناء الكنيسة، رتبة قرع الباب مع ترتيلة "على الباب البرّاني" على ثلاث دفعات -وكان الباب قد استبدل بالوقوف امام "ستر" المذبح الوسطي ليُسحبَ في آخر مرة- وقد عدنا إليها فور تسلمنا مسؤولية الكنيسة من بعد الخوري ميخائيل صائغ، الى جانب استحداثات اخرى كثيرة في الاحتفالات الكنسية...

وماذا أقول عن اسبوع الآلام المليء بالذكريات حين كان العم حنا "فراش" المدرسة يدور على بيوت الشمامسة من الصباح الباكر ليدعوهم للاشتراك في فرض صلاة الليل والصباح، ومن ثم في صلاة الرمش والستار عصراً -وكان دارنا يعتبر من ابعد الدور عن الكنيسة، في محلة الشطية، وهو في الواقع لا يبعد عن الكنيسة سوى مسافة ربع ساعة مشياً! وهنا لا انسى كم تدرّبت لارتل يوما حسابة ستار مساء اثنين الحاش، عبر دفتر نقل فيه اخي المرحوم حنا حسابات اسبوع الآلام من الكرشونية الى العربية.

واذكر جيداً كيف كانت تُقام رياضة فصحية لأيام الحاش الثلاثة قبل خميس الفصح، حين كانت تُتلى مزامير، في مقدمتها ترتيلة "اصدقائي واقربائي" -وما زال صوت داود خلف، او مفيدة عنائي، يرن في أذني-، ويلقي الوعظ احد كهنة مار توما او من ينتدبونه. وما زالت طوابير التائبين ماثلة امام عيني، وكانوا يتوزعون على "منبري" الاعتراف، فيما يقام منبر مؤقت او اثنان للرجال في السكرستية، سيما وان الاعتراف كان ملزما، اقله مرة في عيد الفصح، وكلٌّ في كنيسته الخورنية! وكثير من هذه الممارسات شهدت تطورا في اعقاب المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني حين دعا الى رتب توبة جماعية، وشجّع على التناول المتواتر وإن لم يسبقه اعتراف في كل مرة!

ولا زلت اذكر القداس الفصحي صباحا والذي كان يقام في الخورس على مائدة كبيرة تتاح فيها مشاركة أربعة أو خمسة كهنة، وفي آن واحد، ولكل كاهن "عدّته" الكاملة من كأس فوق "طبليث" وصليب وشموع ومبخرة... ومن هنا جاءت كثرة الصلبان والشمعدانات والمزهريات والمباخر المحفوظة في الجناح الكنسي من المتحف. واذكر أن القداس الفصحي تحوّل الى العصر، وظل على هذا الشكل إلى أن جعلناه، قبيل نهاية الستينات، قداساً مشتركاً بكل معنى الكلمة ودمجنا معه رتبة تغسيل الارجل،

وهي جزء من العشاء الفصحي[٥٧].

وتنتصب امامي ذكرى السنتين الاوليين من حياتنا المشتركة في ظل مار توما، حين كنا مثل "نزلاء" في الطابق الاعلى منها، وكان علينا يوم الاحد أن نقيم القداس سراً قبل موعد القداديس الرسمية! كما اذكر قداسي اليومي لدى الاخوات الدومينيكيات في مدرسة مار عبد الاحد بالقرب من كنيسة اللاتين، وفي ساعة مبكرة، لاعود الى مار توما للفطور! وللمزحة اذكر ان الاخت ريجينالد، في غياب المسؤولة، اعدّت إفطاراً دسماً وجاءتني ابان فترة الشكر بعد القداس لتقول لي: اليوم تتفضلون "تفطرون" عندنا! وحين ابديت دهشتي متطلعاً من أين اشرقت الشمس ذلك اليوم، اجابت بلغة فرنسية جيدة: Profitez-en أي استفد من الفرصة!!

ولا يسعني أن اذكر كل ما رافق خدمتي الراعوية -بعد أن التحق بي الاب نعمان اثر مغادرة الخوري صائغ إلى بغداد- من تعزيات روحية ابان الزيارات التي كنا نقوم بها سوية وفي كل اطراف الموصل، بحثا عن جماعة مار توما! ذلك اننا لم نوفق، في اطار الموصل، الى توزيع المؤمنين الى خورنات غير التوزيع القديم بين الطاهرة ومار توما -وقد بقي الانتماء اليهما موضوع جدال الى اليوم[٥٨]!

---

(٥٧) هناك ذكريات مبعثرة، سواء قبل دخولي المعهد الاكليريكي او بعده، تتراقص في ذاكرتي برؤية مضببة من يوم اول رسامة كهنوتية في مار توما -وهي رسامة القس يعقوب كيرو عام ١٩٤٥ حين لم يكن لي من العمر سوى ستة اعوام- الى التناول الاول لاخي حكمت (مواليد ١٩٣٦) حين كان والد احد زملائه يعزف في فريق موسيقى الجيش، وقد جاء بفريقه ليقدم في فناء المدرسة التوماوية عرضاً موسيقياً فريداً! والى تناولي الأول عام ١٩٤٨ حين كان جل مبتغاي أن احصل على كتب تُهدى فأصبحت نواة لمكتبتي... ولا أنسى مواظبتي وانا اكليريكي اثناء العطلة الصيفية، على قداس الصباح وعلى رمش العصر بمعية عدد من الشمامسة يبقى بينهم وجه الشماس داود حنا شاخصاً بصوته الجراح! كما اذكر أيضاً نشاطاً تعليمياً كنا نقوم به في مار توما نحن الاكليريكيين الموصليين، جوزيف سعيد عولو، جرجيس ابراهيم (روفائيل قطيمي)، لويس صائغ (ارشد)، عوني قزازي، لأولاد مار توما، وكم عانينا آنذاك في السيطرة عليهم ابان الفرصة، وما زلت اذكر اكثرهم حركة وشغبا عوني عنائي ورمزي حنا الناصر... ولعل آخر ذكرياتي من مار توما قبيل رسامتي كانت في صيف ١٩٥٩ حين بوشر بالعمل على صيانتها الجذرية ومنعها من الانهيار... فكانت حملة رائعة من المشاركة في العمل ومن التبرعات - يشهد عليها كراس ظهر بالمناسبة يحمل أسماء المتبرعين من اكثرهم سخاء (٢٠٠ دينار) والى اكثرهم فقراً، لم تتجاوز مساهمته ١٥٠ فلساً!!

(٥٨) يحضرني كم كنا نخجل حين نعلم بأن كهنة الطاهرة -ولا سيما في العيد- ولأسباب لا تخفى، قد سبقونا الى احد البيوت المتنازع عليها بين الخورنتين! وكذلك حين يحدث أن يختلط الانتماء بين الخورنتين في ما يتعلق بالعماد او الاكليل او الدفن، حين كان يصعب تحديد العائدية... ولن انسى

واليوم وانا أكتب بعض هذه الذكريات احسّ بالملامة تتوجه اليّ في تعثر خدمتي بصدد الزيارات الراعوية ولا سيما بعد أن كان قد تكثّف العمل في مجلة الفكر المسيحي في السبعينات والثمانينات واولى التسعينات... ولا أنسى ملامة ذلك التوماوي الملتزم بكنيسته (البير سلمون) حين قال لي يوماً: انت لا تصلح الا للكتابة والترجمة! وهو في عمق قناعته يعرف أن تلك المهمة هي خدمة تتجاوز حدود الخورنة الى خورنات الابرشية والعراق. وسيبقى يحز فيّ ما سُمعَ عن كاهن شاب قوله، ردّاً على مطالبات المؤمنين اياه بالكتابة والترجمة: هل عمل الكاهن يقوم في الكتابة والترجمة؟ وقد نسي ذلك الكاهن دعوة القديس بولس الموجهة إلى تلميذه طيموثاوس الى التبشير بالانجيل، في وقته وغير وقته، وبكل اساليب التعليم! وكان يكفي ان يجيب بأن ليست له موهبة الكتابة وانه لم يتلقن، ابان دراسته، لغة اجنبية!

ويطول بي الحديث إن شئت أن استعرض ايام النشاطات المتميزة في مار توما،سواء مع أعضاء لجنة الخدمة ومبادراتها الكثيرة، أم مع أعضاء لجنة الوقف وانجازاتها العديدة... أم مع الشمامسة الذين سعيتُ الى تحسين أدائهم في الاحتفالات، أم مع الجوقة في اوائل الثمانينات، حين بدأت ادرّب الفتيات على التراتيل العربية والسريانية واقوم بعمل توجيهي وتثقيفي تجاههن عبر رياضات روحية وسفرات ترفيهية... ولا تزال الكثيرات ممن مررن بالجوقة، على مدى قرابة عشرين عاماً، يستذكرن تلك السنوات وما قمن به من إحياء احتفالات اصبحت اليوم تفتقر الى مشاركتها[٥٩]...

كيف احتج بشدة ثامر توشي يوماً على أني ابديت امتناعي عن عماذ أحد ابناء عائلة قره قوشي في مار توما –وكنا قد اتخذنا قراراً بعائديتها الى القلعة الطاهرة– ووقف في فناء الكنيسة متحصراً وقائلاً: ليش البيعة مال أبوك؟! ويطول بي الحديث إن كنت اريد أن اتوقف عند الكثير من تلك المفارقات بشأن عائدية المؤمنين الذين يكون هناك تردد فيها... وكان يطيب لنا دوماً أن نقول بان هناك بيتاً واحداً كان بامكاننا أن ندخله معاً نحن وكهنة الطاهرة، هو بيت يعقوب قزانجي وصهره مراد مراد: إذ كان يعقوب تابعاً لمار توما، فيما كان مراد تابعاً للطاهرة!!

(٥٩) لا زلت اذكر بألم ما حلّ بالجوقة حين تشتت اعضاؤها في اعقاب حادث مؤسف جرى في اليوم الروحي في دير مار بهنام (٢٠٠٦/٣/٢٥) لاحياء مسيرة الآلام، حين كنّ في الطريق الى الدير وجرى حادث اودى بحياة (رنا سالم قاقو) وهي مخطوبة وحياة الطفل (محب وسام متي)... ولا زالت شاخصة الحادثة المروعة حين كان كرم اوانيس واقفاً يستنجد بعد أن أحلى الجرحى الى قره قوش، وكنت في البيكب وصليبي الكبير معي للقيام بمسيرة الآلام حيث كان في انتظاري قرابة ٣٠٠ شخص توجهوا الى الدير لهذا البرنامج السنوي في خامس جمعة من الصوم. واذكر اني تركت الاخت فادية وهاني الساعور عند الحادث ليتوجها الى قره قوش لمتابعة الجرحى، وواصلت الطريق الى الدير وانا في قمة التوتر، ولكني تمالكت نفسي لكي استطيع ان اجعل آلامي وآلام ذوي الفقيدين والجرحى تقترن بآلام المسيح...

لقد كان "اليوم الروحي" نشاطاً اطلق في اوائل التسعينات في نطاق لجنة الخدمة، وهو نشاط يقام في احدى جمع الصوم الكبير، كان يتضمن في النصف الاول من النهار محاضرة في الآلام بحسب احد الانجيليين مع مسيرة آلام برفقة النص الانجيلي، تتخلله تأملات وتراتيل، ويختم بسجدة الصليب وبشرى القيامة! فضلا عن مشروع "صندوق صوم التضامن" حيث كانت توزع قبل الصوم الكبير مغلفات تدعو المؤمنين الى أن يجعلوا منه فرصة للتوبة والمقاسمة مع المحتاجين، عبر اقتطاع جزء من مصروفهم على الاكل والشرب، وايداع ثمنه في المغلف الذي يسلم، في خميس الفصح، دون ذكر الاسم... ولا زلنا حتى اليوم امناء على هذا النشاط الخيري الذي يعبر فيه المؤمن عن تضامنه مع الاكثر فقراً.

وتميزت خورنة مار توما بنشاطات ثقافية واجتماعية كبرى: ولعل ابرز ما بقي في ذاكرتي هو الموسم الثقافي عام ٢٠٠٠ الذي كان اشبه بمهرجان ثقافي. وبصدد النشاطات الثقافية الاخرى التي انطلقت من مار توما، عبر مركز الدراسات الكتابية، باتجاه سائر الكنائس، لا يسعني أن انسى المبادرة التي قمنا بها غداة تحسن الاوضاع الامنية نسبياً، في اقامة احتفالية كبرى (٢٣-٢٥ نيسان ٢٠٠٩) بمناسبة السنة البولسية، أي ذكرى الالفين على مولد القديس بولس. فكانت احتفالية رائعة تحت شعار "ستكون شاهداً امام جميع الناس بما رأيتَ وسمعتَ" (اعمال الرسل ٢٢:١٥)

أما على الصعيد الاجتماعي، فكان اني، ابان أيام الظلمة التي عشناها في بدء التسعينات، في اعقاب حرب الخليج الاولى، حين بلغت المعاناة أوجها وخلّفت مآسي كبرى لدى الكثير من الاسر الفقيرة، وغداة توقف القصف الجوي... اطلقت في ربيع ١٩٩١ فكرة سوق خيرية تتبرع بموجبها الاسر بما لديها من حاجيات لتباع للاسر

وكان التأثر بادياً على وجهي، وقرأ فيه بعضهم سوءاً، ولكني تغلبت على مشاعر الحزن لاواصل التأمل، وتوجيه الصلاة الى مَن اختبر الحزن وذاق كأس الألم وعرف رهبة الموت: أبّا، إن شئت، فاصرف عني هذه الكأس، ولكن لا كما اشاء، بل كما انت تشاء.

وفي اثناء الصلاة، كان الخبر الصاعق قد بلغ الى مسامع عدد من المشاركين من ذوي القربى بالضحيتين وسائر الجرحى، وقد تسللوا من الصلاة باتجاه قره قوش...وتوجهت فور الانتهاء الى الموصل وذهبت الى بيت وسام وبيت سالم معزياً، سانداً، داعياً الى الصبر... وكانت الاوضاع الامنية لا تسمح بالتأخر خارج الدار... ولم يغمض لي جفن في تلك الليلة، ليطلع نهار نودع فيه ملاكين ينضمان الى جوقات الملائكة. وسيبقى بعضهم يأخذ عليّ استمراري في برنامج الآلام بعد الحادث والتزامي بضبط النفس والحيلولة دون الهلع... فيما لن يغفر لي بعضهم ما اعتبروه إخلالا بواجبي في مرافقتهم على مدى الليل والنهار...

المتعففة باسعار مدعومة. وكان ايراده الكلي آنذاك في حدود ١٦٠٠٠ دينار (يعادل حوالي ٢٠٠٠ دولار)، اضيفت اليه حوالي ٢٤٠٠٠ دينار (= ٣٠٠٠ دولار) من زميلتي في الدراسة الاخت سلفيان التي كنت قد طلبت إليها ان تقوم بحملة جمع تبرعات في بلجيكا، تضامناً مع العراق! وهكذا استطعت أن امدّ، وعلى مدى سنين، وحتى اليوم، يد العون لمئات العوائل، من مسلمين ومسيحيين، مع اولوية ولاشك لاخوتنا في الايمان.

فمن بقايا ملابس السوق الخيرية، انطلق اول "سوق بيت لحم" عبر لجنة من السيدات والشابات اللواتي لم يكنّ يجمعن الملابس الشتوية حسب، بل ينظفنها ويكوينها ويعرضنها باسعار مناسبة ليستفيد منها ذوو الدخل المحدود، ويذهب ريعها الى الاكثر فقرا. وهكذا الحال مع "سوق عماوس" قبيل عيد القيامة للملابس الصيفية، وعلى مدى قرابة عشرين عاما! ولا يسعني أن اذكر كل الذين، بكثير أو قليل، ساهموا في هذه النشاطات...

اما بصدد النشاطات التثقيفية، فاعود الى اواخر الستينات حين كنت والاب نعمان، ومشاركة عدد من معلمات مدرسة ام الربيعين، نعد البنات ومعهن اولاداً من ابناء الجماعة ونقوم بالتعليم على مدى شهر بعد ختام السنة الدراسية، واعتقد ان اول تناول اعددناه كان عام ١٩٦٦ -وكان يجري بين سنة واخرى، واذكر اننا كنا نطلب احيانا مساعدة الاخت المرحومة انجيلا... واستمر الاعداد للتناول الاول على هذه الحال إلى ان الغيت مدرسة ام الربيعين في العام الدراسي ١٩٨٠-١٩٨١، وتزامن الغاؤها مع قدوم الاخت فادية للتعليم في مار توما بحيث تميزت التناولات في مار توما برصانة التعليم وعمقه وعذوبة التراتيل وروعة التنظيم... فمنذ عام ١٩٨٢ اصبح التناول سنوياً؛ ومع لجنة التعليم المسيحي من خريجات م. د. ك. اصبح الإعداد يمتد على سنة كاملة بمعدل يوم في الاسبوع، وبدروس متتابعة موزعة على أعضاء اللجنة... وهنا يحضرني نزولي الى معمعة التدريس عبر "مسلسل" كنت أبدأه بقيامة يسوع وبمفردات كالتي استخدمها في الدورة الكتابية... وما أروعهم اولئك الاولاد وهم يضربون على صدورهم على مثالي حين اقول: ونحن شهود!! وكان التبشير بالقيامة ترافقه عودة إلى حياة يسوع عبر تعليمه بالكلام والامثال والآيات والمعجزات... وحينذاك كان "المسلسل" يتخذ شكل قصة ارويها لهم عبر اعمال الرسل، حين راحت الكنيسة الاولى تشق طريقها عبر الاضطهاد واعتقال الرسل واستشهاد اسطفانس وتشتت التلاميذ حتى انطاكية -ولم تغب قصة حنانيا وسفيرة عن المشهد! وهنا يكون شاول بولس قد دخل

الى مسرح الاحداث وبدأ انفتاح الوثنيين على الايمان... واولى الرحلات التبشيرية لدى الوثنيين -ولم يغب مجمع اورشليم الذي ضمن المصداقية لرسالة بولس وبرنابا بين الامم... ومع ظروف حرب الخليج الاولى وهجرة المسيحيين اضطررنا إلى إقامة التناول كل سنتين؛ واستمرت الحالة على هذا الشكل طيلة التسعينات، ومنذ عام ٢٠٠٠ وإلى ٢٠١٢، حين اضطررنا، ولاسباب عدة، إلى إرجائه للعام التالي.

واذا كانت الدراسات الكتابية قد شغلت نصف خدمتي الكهنوتية (١٩٨٧-٢٠١٢) في مار توما -وقد احتضنت غرفها وزواياها ما أصدره المركز من منشورات، مطبوعة ومستنسخة- الا أن متحف مار توما، في السنوات الست عشرة الاخيرة كان قد استقطب اهتمامي واتخذ كثيرا من اوقاتي في ضبط محتوياته وتحسين عرضها والسعي إلى استحصال المزيد من الكتب القديمة والازياء التراثية والاثاث وادوات العمل... ويغمرني الفرح كل مرة ادخل إلى اجنحة المتحف التي اصبحت موضوع فخر لكنيسة مار توما -وامنيتي ان تبقى تحتضنه والى اعوام مديدة...

كنت قد اغتنمت فرصة الاحتفال بيوبيلنا الكهنوتي في لبنان لأقضي بضعة ايام من تموز في ربوع هذا البلد الحبيب الذي تلهم طبيعته الشعراء والكتاب، اواصل خلالها كتابة فصول هذا الكتاب، كالتي كتبتها في لبنان ايضا، في صيف ٢٠١١. وعدت الى الموصل ولم يكتمل، فحاولت ان استرق بعض الوقت المتاح لي لأستكمل ما نقص فيه. وفي ظهيرة هذا اليوم، العشرين من آب، حين كانت درجة الحرارة في الموصل قد قاربت الخمسين، غصت في نوم عميق لأستيقظ في عصره وأقص ما حلمت به، وشئت من ثم ان يصبح ما دبجته بمثابة خلاصة:

حلمت اني بين اناس عرفت بعضهم، اختلط فيهم شباب من اول دورة مع اولى بنات الجوقة، ومع احدى "نسائي" الفقيرات المسلمات -ولها زيارة في مطلع كل شهر! وفيما كان أحد اعضاء الشبيبة الطالبة يناقشني، كانت تلك الجارة العجوز رينة تسترق الاخبار، بينما كان الشماس اكرم رضاعة يحكي بطولاته النغمية في قداس الاحد صباحا، والشماس عبد الغفور، في قداس المساء، يشنّف اذاننا بانغامه العذبة... وفيما حيتني فتاة رقيقة من طلبة الدورة الحادية عشرة، وعاتبني زوزو على تباعد زياراتي، كان رجل توماوي -لم اعد اتذكر وجهه واخاله يكون الشماس سلام ارملة او الشماس ناهض عنائي- ينحي باللائمة علي لاهمالي الزيارات الراعوية... وكان من بين جمهور الواقفين في فناء مار توما نسوة تجمعن، وكن ينتظرن أن افرغ من تحية الرجال لالتفت اليهن، وبينهن واحدة بيدها جوازات سفر كانت تريد أن ازودها بشهادات عماذ

بالانكليزية لتسافر مع زوجها واولادها الثلاثة الذين لم يتجاوز أكبرهم العاشرة من العمر... وللحال وجدتني داخل مار توما، ومن منبرها ألقي عظة الجمعة العظيمة وانا اقول: لم يكن يسوع يريد الموت ولا بحث عنه، وانما اوصلته اليه أمانته الكاملة لرسالته التي ذهبت به إلى الموت على يد اولئك الكهنة والكتبة والشيوخ الذين عرف بيلاطس ذاته انهم "من حسدهم أسلموه"! وسرعان ما تبدل المشهد ووجدتني في دير مار بهنام استأنف نشاط "اليوم الروحي" بعد توقف بضع سنوات عن القيام به في الدير، واجاهر، في مسيرة آلالام بحسب القديس مرقس، بان يسوع الناصري المصلوب هو المسيح الحي القائم من بين الاموات، داعيا الجمهور الى الجواب على هتاف "المسيح قام"... "حقا قام" ولثلاث مرات متتالية...

وسرعان ما وجدتني على باب الفردوس أقرع الباب، وفُتِحَ لي بعد طرقات عديدة، وراح القديس بطرس يبحث في سجل سميك عن اسمي، وحين تأخر في العثور عليه، اخذت اقلق... وما ان عثر عليه باسم "زهير"، لم اخف دهشتي انا الذي كنت تخشى ألاّ ابلغ الفردوس!! -واذا بي غصت في أحلام لَكَم تمنيت ان تصبح واقعاً...

ووجدتني مستلقيا على العشب الاخضر ومستظلاً بظل الاشجار التي تجري من تحتها الانهار واصوات الكروبيم والسروفيم تنشد: "هللويا! لأن الرب الهنا القدير قد ملك. لنفرح ونبتهج! ولنمجّد الله..." (رؤيا ١٩: ٦-٧)... وسمعت صوتا جهيرا من العرش يقول: هوذا مسكن الله مع الناس، فسيسكن معهم، وهم سيكونون شعوبه وهو سيكون "الله معهم"... (رؤيا ٢١: ٣). وذهبت في نوم عميق.

- حلمت أن يصار الى عودة الكنائس الكاثوليكية الشرقية الى كنائسها الأم فتكون تلك اول خطوة على طريق الوحدة المسيحية المنشودة!

- حلمت ألا يتخل مسيحيونا في الشرق الاوسط، وفي العراق بنوع خاص، عن مسؤولياتهم في تأمين حضور الرب والشهادة له بين اخواننا المسلمين الذين يعترفون بعيسى الحي!

- حلمت ألا يستخدم بعضهم الاسلام حجة في مزاولة العنف بحق اخوانهم المسيحيين في هذا البلد، وهم أصلاء فيه وقد ساهموا ويساهمون بشكل فاعل في بناء حضارته ورقيه...

- حلمت بأسر مسيحية تضع الانجيل في أولى اولوياتها، فتنهل منه القيم والمثل التي تسهم في بناء مجتمع يرسو على الحب والحق والعدل والمساواة والاخوة والتضامن...

- حلمت بحكومة يتخلى وزراؤها ونوابها عن احزابهم وانتماءاتهم الدينية والقومية

والطائفية والفئوية... ويتركوا مصالحهم الشخصية جانبا كي يعملوا لبناء العراق الجديد...

– حلمت بكنيسة سريانية وكلدانية وارثوذكسية، واثورية بجناحيها، وارمنية... لا يعيش رعاتها في افق الطائفية الضيق، بل يسعوا إلى أن يوحدوا خطابهم الديني، وكلهم هَمٌّ أن تبلغ رسالة المسيح الى المجتمع كاملة غير منتقصة، فتشهد للمحبة والوحدة – وليس في وحدة العيد وحسب!

– حلمت بكنائس "تحيط دوما الكتب الالهية بالاجلال الذي تحيط به جسد المسيح، هي التي تتناول دوما خبز الحياة من المائدة نفسها التي حملت معا جسد الرب وكلمة الله... ذلك لأن الكتاب المقدس هو واحد لجميع المسيحيين، ويجب عليه ان يكون عامل وحدة بينهم، شريطة أن يبلغوا إلى كلمة سواء في تفسيره وتأوينه في ضوء الدراسات الكتابية الرصينة.

– حلمت بأغنياء يُبدون تواضعا في غناهم ويعتبرون ثروتهم امانة في عُنقهم، يشركون بها المحتاجين دون منة او مكابرة... كما حلمت بفقراء يبقون محتفظين بكرامتهم ويسعون الى الخروج من فقرهم، ويقبلون، بتواضع ايضا، أن يشركهم الاغنياء في خيراتهم.

– وحلمت بمدارس تحمل الى طلبتها العلم مع الفضيلة، والمعرفة مع اسس بناء الشخصية، فلا يكونون مستهلكي مواد بقدر ما يمضغونها ويتبنّون توجهاتها التي تسهم في بناء شخصيتهم الانسانية.

– وحلمت بجامعات لا يكون القبول فيها على اساس المعدل بقدر ما يجب ان يعتمد قابليات الطالب وتوجهاته وهوايته ومواهبه... فرُبّ خريج زراعة ناجح يسهم في حماية البيئة افضل من طبيب قُبِلَ في الطب بمجرد معدل عال وهو يخشى رؤية الدم... أو من مهندس لا يهمه من اختصاصه سوى المقاولات التي تدر عليه اكثر.

– وحلمت ألا تفرغ الموصل من مسيحييها الذين عليهم أن يصمدوا بوجه كل التحديات فيؤمّنوا حضور المسيح في هذه المدينة العريقة ذات التاريخ المسيحي المجيد، ويكونون في المجتمع الموصلي نوراً وملحاً وخميرة...

– وحلمت ألا تختفي من كنيستنا العراقية خبرة الحياة المشتركة بين الكهنة، وهي مصدر إشعاع وعطاء، لا تحصى فوائدها وثمارها... كما حلمت ان يواصل مركز الدراسات الكتابية رسالته في خدمة الكلمة التي يجب أن تواصل جريها.

– وحلمت أن تبقى كنيستي التوماوية مفتوحة ابداً بفضل كهنة يضعون مصلحتها فوق كل اعتبار... كما حلمت ان يبقى متحفها شاخصا بصفته احد معالم الموصل البارزة يحكي مسيرة ١٥٠ عاما من الحب والالتزام والعطاء... في قلب كنيسة ترفع راية الرجاء عاليا فوق كل رجاء!

– وحلمت أن أرقد في مار توما بعد ان ولدت فيها للحياة الجديدة، منذ عماذي في رحمها، على صوت كلمات الرسول بولس: "اعتمدنا في موته، فدفنّا معه في موته بالمعموذية لنحيا حياة جديدة كما أُقيم المسيح من بين الاموات بمجد الآب" (روما ٦: ٣-٤)... وان ادفن "تحت اقدام الجوقة" على رجاء القيامة!

وأفقت من غفوتي افكر بكنائس الشرق تواجه تحديات كبرى في اوطان عرفت الربيع العربي، وهي على مفترق طرق بين الانهزام والتنصل من المسؤولية او بين الشهادة للمسيح في هذه المجتمعات التي تنتظر منها ان تُنعش الرجاء وتدعو الى العيش المشترك وتسهم في بناء الديمقراطية... أليس من اجل هذا سيأتي بندكتس السادس عشر ليوقع الارشاد الرسولي في ١٤ ايلول القادم[٦٠] ليكون دليلا يهدي كنائسنا الى مسؤولياتها التاريخية في قلب التحديات في كل مكان من الوطن العربي؟

الموصل ٢٠ آب ٢٠١٢

(٦٠) جاء البابا بندكتس السادس عشر إلى لبنان، في ١٤ ايلول ٢٠١٢ حاملاً معه رسالة السلام حيث وقّع على الارشاد الرسولي الذي هو بمثابة خطة سير لكنائسنا الشرقية في اعقاب السينودس من اجل الشرق الذي كان قد عقد عام ٢٠١٠ ليتدارس التحديات التي تواجه كنائسنا ويضع الاولويات في عملها ورسالتها في قلب العالم الاسلامي، والمسيحيون مدعوون إلى العيش المشترك مع اخوانهم المسلمين لبناء حضارة المحبة والأخوّة ...

٢٦

بمثابة خاتمة

بمثابة خاتمة

"لم يكن يخيّل لي"! كتبتها مقدِّمةً لمقالاتي التي حملت العنوان "ثلاثون عاماً مع القلم" وزفّتها لي دار بيبليا بمناسبة يوبيلي الكهنوتي الذهبي في حزيران ٢٠١٠، وقد قلت فيها: "لم يكن يُخيّل لي أن أقرأ مقالاتي في الفكر المسيحي مجتمعة في كتاب من سلسلة [مختارات الفكر المسيحي]- وكنت قد عهدت بالمهمة، في وصيتي الأخيرة، الى ما بعد رحيلي!"

كما لم يكُن يُخيّل لي اني أبلغ اليوبيل الذهبي الذي لَكَم متّى النفس الخوري فرنسيس جحولا الاحتفال به معنا نحن الاثنين... واحتفلنا به على مقربة من ضريحه في دير مار بهنام، ومن ثم في الموصل في كنيستي البشارة ومار توما، واخيرا في لبنان حين احاطنا اساقفة وكهنة ورهبان وراهبات واصدقاء لرفع الشكر للرب الذي شهدنا له في حياتنا قدر المستطاع، وكنا على استعداد للاستشهاد في سبيله ولم نحظَ إلا بلقب المعترفين، كما قالها غبطة ابينا البطريرك يوسف الثالث يونان الذي رئس الاحتفال!

لقد كان الاختطاف الذي تعرّضت له في الموصل عام ٢٠٠٧ محنة كبرى خرجت منها بخبرة روحية أكبر، وقد صحّت فيّ كلمات القديس بطرس لدى خروجه من السجن: الآن علمت ان الرب ارسل ملاكه فانقذني... وسابقى مدينا له بهذه "الزيادة"... وآمل أن اعيشها في الشكر الدائم والعطاء الأوسع...

وليُسمح لي أن أُدرجَ هنا، بمثابة خاتمة، الشهادة التي أدليت بها بمناسبة اليوبيل:

ما زلت أذكر وأنا فتى حين قابلت في صيف ١٩٥١ الاب المرحوم يوسف اومي مدير معهد مار يوحنا الحبيب... كيف أجبته على سؤال حول مدى قدرتي على الثبات: مَن يضع يده على المحراث لا ينظر الى الوراء! واقرأ اليوم في هذا الجواب خط سير انتهجته في حياتي الكهنوتية التي اقترنت بحياة ثلاثة زملاء قمنا سوية بمغامرة الحياة المشتركة في زمن كان الكهنة فيه يعيشون بين ذويهم، ولا زلت اذكر ايضا في بدء خبرة الحياة المشتركة كيف ان المثلث الرحمة المطران عمانوئيل بني كان قد تنبأ لها، في حينه، بعمر قصير! وكذلك الحال مع "الفكر المسيحي" التي كانت أولى مبادراتنا لسد الفراغ في ميدان الصحافة المسيحية، وهي الأخرى، لَكَم قال فيها انبياء الشؤم انها لن تعمّر طويلا -والاعمار بيد الله! وهكذا قيل ايضا في مشروع الدراسات الكتابية التي كانت بمثابة

امتداد للفكر المسيحي، وان على مستوى آخر ، كيف ان بداياتها المتواضعة لم تكن توحي قط بأنها تحتفل هذا العام باليوبيل الفضي على انطلاقتها بالتزامن مع يوبيلنا الكهنوتي الذهبي!

انها بكل بساطة نعمة الثبات، واعتقد في ما يخصني اني نلتها مع موهبة الكهنوت في ١٠ حزيران ١٩٦٢ -وكان عيد العنصرة آنذاك- ولم لا اقولها صريحة انها هبة الروح القدس الذي مهمته الكبرى أن يُثبِّت في الايمان ويسند من يستسلم الى الهاماته ويتحاوب مع نداءاته... انها نعمة اشكر الربّ عليها واطلب اليكم أن تشكروه معي احبّائي في هذا اليوم الذي نحتفل به نحن الاثنين بخمسين عاما من المسيرة وقد كانت عينه ورحمته علينا ومعنا طوال ايام حياتنا كما جاء في نشيد زكريا الذي رجّعت العذراء صداه في نشيدها: تعظم نفسي الرب لانه صنع الي امورا عظيمة... قدوس اسمه ورحمته من جيل الى جيل للذين يتقونه.

لست اجهل ان نعمة الثبات في الايمان ونعمة الصمود في معاثر الحياة، ولا سيما في الحياة الكهنوتية بالذات مع ما يرافقها من صعوبات ومعوقات لا بل من معاكسات ومضايقات، ومن جهات عدة، وليس من ايسرها ثقلاً تلك التي تأتي من داخل البيت! لست اجهل ان هذه النعمة تعمل لدى متلقيها على خلفية استعدادات نفسية للجلَد والمثابرة مما يمكّنها من أن تنجح في مسعاها.

فلئن شكرت الرب، فانما اشكره أنه أمدّني بالنَفَس الطويل في اعلان بشرى الانجيل واستخدام طرق اشعاعها واتساعها. اشكره، وقد كان لي بمعية زملاء -ومنهم رحلوا قبل الاوان- مشاريع ومخططات ورؤى مستقبلية في الكنيسة في هذا البلد الحبيب في نطاق الحياة المشتركة، في جماعة كهنة يسوع الملك -وهي ايضا الذكرى الخمسون على نشاتها- حين وضعنا يدا بيد للسير معاً على دروب البذل والعطاء... وفي نطاق العمل مع الشباب وتنشئتهم على الرسالة في الالتزام بمجتمعهم وكنيستهم، واخصّ بالذكر حركة الشبيبة الطالبة المسيحية التي ما زالت حيّة في قلب كل الذين مروا فيها ولقوا ما لقوا من تعزيات ومضايقات... كما في نطاق مجلة الفكر المسيحي على مدى ٣٠ عاما، وكان قد تزامن ظهورها مع انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني -وهي الذكرى الخمسون على انعقاده-، حين تبنينا توجهاته اللاهوتية والراعوية والمسكونية واصدينا لروحه النبوية وتجرأنا على وضع الأصبع على الجرح واكتشاف علامات الازمنة في الاحداث والقضايا الراهنة ، في السبعينات والثمانينات وحتى منتصف التسعينات... فيما تكثّف التوجه الثقافي لدينا نحن الثلاثة -واقصد بثالثنا الاب

المرحوم نعمان- على مدى ٢٥ عاماً الاخيرة، من خلال مركز الدراسات الكتابية الذي اشاع هو الآخر توجها كتابيا رصينًا تجسّد عبر التعليم الاكاديمي لتسع دورات متتالية وعبر حركة النشر الواسعة التي اطلقها، وهي حركة دؤوبة لا تقف حيالها الصعوبات مهما كثرت، وعلى أكثر من مستوى... بحيث ملأت اصدارات المركز فراغاً في المكتبة المسيحية.

وعلى ذكر الصعوبات والمحن لا يسعني أن انسى خبرة عاشها قبلي رفيق الدرب المطران جرجس لدى اختطافه لساعات، وعشتها لايام تسعة بنهاراتها ولياليها الطويلة، حين كاد دَمُنا يكون على كف يدنا! محنة أقرأها اليوم في ضوء النجاة منها بفضل صلاة وتضامن مئات الالوف من المؤمنين والاصدقاء في كل مكان، وعلى راسهم قداسة البابا بندكتس السادس عشر ... محنة خرجت منها وكأني ولدت للحياة من جديد وكتب لي فيها عمر جديد اشعر اني مدين به للرب الذي نجّاني كما قالها بطرس حين خرج من السجن: الآن علمت أن الرب أرسل ملاكه فانقذني!

مهما فعلتم فقولوا: إنّا عبيدٌ بطّالون... عملنا ما كان ينبغي علينا! هذه الكلمة الانجيلية نريد اليوم، بعد ٥٠ عاماً في خدمة الكلمة، أن نتبناها.. إذ لا فضل لنا في ما عملناه، وانما الفضل كل الفضل الى نعمة الله العاملة فينا، كل بمقدار ما وُهِب له من النعمة. وكان جُلُّ مبتغانا بالامس واليوم ان تنمو الكلمة وتنتشر وتواصل جريها... متبنين قول الرسول بولس في رسالته الى أهل فيلبي: "يهمني أمر واحد، أن أنسى ما ورائي واتمطى الى الأمام... لعلي اقبض على المسيح، فقد قبض هو عليّ!" ويختم قائلاً: "حيث بلغنا لنلازم خط سيرنا"، بيقين من ان كلمة الله، معنا وبدوننا، تواصل جريها!

الموصل ١٣ تشرين الاول ٢٠١٢

الذكرى الخامسة لبدء الاختطاف

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية متخصصة مصورة، معربة عن الفرنسية *Les Dossiers de la Bible* تصدر منذ عام ٢٠٠٠ عن دار بيبليا للنشر بوتيرة اربعة ملفات في السنة.

السنة الاولى ٢٠٠٠
١- الحديث عن القيامة/أيلول
٢- الافخارستيا/ كانون الأول

السنة الثانية ٢٠٠١
٣- ايليا واليشاع/كانون الثاني
٤- امثال يسوع/نيسان
٥- ما وراء الموت/تموز
٦- عجائب يسوع/تشرين الأول

السنة الثالثة ٢٠٠٢
٧- قراءة في انجيل متى/كانون الثاني
٨- اعمال الرسل/نيسان
٩- قراءة في مؤلف لوقا/تموز
١٠- حزقيال النبي/تشرين الأول

السنة الرابعة ٢٠٠٣
١١- اناجيل الطفولة/كانون الثاني
١٢- القديس بولس/نيسان
١٣- سفر يونان/تموز
١٤- كنيسة البدايات/تشرين الأول

السنة الخامسة ٢٠٠٤
١٥- القديس مرقس/كانون الثاني
١٦- سفر المزامير/نيسان
١٧- النبي عاموس/تموز
١٨- صلاة الابانا/تشرين الأول

السنة السادسة ٢٠٠٥
١٩- انجيل يوحنا/كانون الثاني
٢٠- الروح القدس/نيسان
٢١- الاناجيل المنحولة/تموز
٢٢- اشعيا النبي/تشرين الأول

السنة السابعة ٢٠٠٦
٢٣- سفر ايوب/كانون الثاني
٢٤- ارميا النبي/نيسان
٢٥- سفر الرؤيا/تموز
٢٦- الغفران في ك. م./تشرين الأول

السنة الثامنة ٢٠٠٧
٢٧- اشعيا الثاني وتلاميذه/كانون الثاني
٢٨- أوجه يسوع/نيسان
٢٩- الالام بحسب يوحنا/تموز
٣٠- سفر الخروج/تشرين الأول

السنة التاسعة ٢٠٠٨
٣١- لا فقراء بعد اليوم!/كانون الثاني
٣٢- الالام بحسب انجيل لوقا/نيسان
٣٣- روح العنصرة/تموز
٣٤- العهد: من سيناء الى يسوع/تشرين الأول

السنة العاشرة ٢٠٠٩
٣٥- العماذ في ك.م.+عدد خاص/كانون الثاني
٣٦- بولس وقورنتس/نيسان
٣٧- حين يتكلم الله/تموز
٣٨- مريم، ام يسوع/تشرين الأول

السنة الحادية عشرة ٢٠١٠
٣٩- اورشليم مدينة السلام/ كانون الثاني
٤٠- كما في الكتب/ نيسان
٤١- واعطاها اسما (الحيوانات في ك.م.)/نيسان
٤٢- روايات الكتاب المقدس/ تشرين الاول

السنة الثانية عشرة ٢٠١١
٤٣- الجبل في الكتاب المقدس/كانون الثاني
٤٤ — الحرب والسلام/نيسان
٤٥ — ابراهيم خليل الله/تموز
٤٦ — طرق لتفسير الكتاب المقدس/تشرين الاول

السنة الثالثة عشرة ٢٠١٢
٤٧- ملائكة الميلاد/ كانون الثاني
٤٨ — يسوع من الناصرة/نيسان
٤٩ — هل املى الله الكتاب المقدس/ تموز
٥٠ — الله الخالق / تشرين الاول

السنة الرابعة عشرة ٢٠١٣
٥١- ينابيع وآبار/ كانون الثاني + عدد خاص

تتوفر مجموعات من الملفات باسعار مخفضة

مجموعة ٧ اعوام (٢٠٠٦ — ٢٠١٢)
مجموعة ٦ أعوام (٢٠٠٦ — ٢٠١١)
مجموعة ٣ اعوام (٢٠١٠ — ٢٠١٢)
مجموعة عامين (٢٠١٠ — ٢٠١١)
مجموعة عام ٢٠١٢

الملفات ٢٣ - ٥٠	٢٨٠٠٠ د.
الملفات ٢٣ - ٤٦	٢٤٠٠٠ د.
الملفات ٣٩ - ٥٠	١٢٠٠٠د.
الملفات ٣٩ - ٤٦	١٠٠٠٠د.
الملفات ٤٧ - ٥٠	٥٠٠٠د.

مختارات الفكر المسيحي

سلسلة توثق ما نشرته مجلة الفكر المسيحي بين الاعوام ١٩٧١-١٩٩٤، لا سيما في ابوابها الثابتة

صدر منها سابقا:

(-) تاريخ الكنيسة الشرقية (الموصل ١٩٧٣)، همسات ابو فادي /ج١ (بغداد ١٩٨٥)، ابت هذه مشكلتي (بغداد ٢٠٠٤). ومنذ عام ٢٠٠٦ عمدت دار بيبليا للنشر إلى مواصلة إصدار كتب هي بحق "مختارات الفكر المسيحي"

ظهر منها

٣

٢٩٠ص/٢٠٠٦(٢٥٠٠د.)

٤

٥٠٠ص/٢٠٠٧(٢٥٠٠د.)

٥

١٨٠ص/٢٠٠٧(٢٠٠٠د.)

٦

٢٨٤ص/٢٠٠٨(٢٥٠٠د.)

٧

٢١٠ص/٢٠٠٩(٢٠٠٠د.)

٨

٥٠٨ص/٢٠١٠(٢٥٠٠د.)

٩

٢٩٢ص/٢٠١١(٣٠٠٠د.)

١٠

٤٨٠ص/٢٠١١(٢٥٠٠د.)

١١

بيبليا للنشر ٢٠١٢
٤٤٠ص/ (٥٠٠٠د.)

١٢

بيبليا للنشر ٢٠١٢
٤٥٢ص/ (٥٠٠٠د.)

الكتابان معاً: ٩٠٠٠د.

اعلان:

للوفر اعداد من مجلة الفكر المسيحي للسنوات ١٩٧١-١٩٩٤ في شكل مجموعات

• المجموعه الكامله (بكميه محدودة)	٢٤ عاما	٢٥٠٠٠٠د.
• المجموعه الكامله (عدا ١٩٧٥-١٩٧٧)	٢١ عاما	١٠٠٠٠٠د.
• مجموعه إعداد ١٩٨١-١٩٩٤	١٤ عاما	٥٠٠٠٠د.
• الأعداد الخاصه للاعوام ١٩٧٨-١٩٩٤	(١٦عددا)	٧٠٠٠د.

سلسلة ابحاث كتابية

ويضمنها سلسلة تفاسير

ظهر منها

١. قراءة مجددة للعهد الجديد	تأليف: أ. بيوس عفاص	٥٤٠ص/١٩٩٩ (٤٠٠٠ د)
٢. يسوع الذي من الناصرة، بقلم مرقس الانجيلي	تعريب: أ. بيوس عفاص	٢٣٤ص/٢٠٠٢ (١٠٠٠ د)
٣. قراءة في العهد القديم/ج١: قبل الجلاء		٢٤٠ص/٢٠٠٣ (١٥٠٠ د)
٤. قراءة في العهد القديم/ج٢: من الجلاء الى يسوع		٢٧٢ص/٢٠٠٤ (٢٠٠٠ د)
٥. قراءة في العهد الجديد/ ج١: الاناجيل الاربعة		٢٥٦ص/٢٠٠٤ (٢٠٠٠ د)
٦. قراءة في العهد الجديد/ ج٢: اعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا		٢٥٦ص/٢٠٠٤ (٢٠٠٠ د)

وتؤلف الاجزاء الاربعة الاخيرة من تعريب الأب بيوس عفاص [وتضمها علبة خاصة]

مدخلا متكاملا الى الكتاب المقدس بسعر ٨٠٠٠ دينار

(سعر خاص للجزئين من "قراءة في العهد الجديد" : ٣٠٠٠ د. فقط)

٧. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل	تأليف: أ. ريموند براون ت: م. جرجس القس موسى	٢٠٨ ص/٢٠٠٥ (٢٠٠٠ د)
٨. لوقا - الاعمال/ وعد التاريخ	تأليف: دونالد يونيل تعريب: أ. البير ابونا	٢٠٠ص/٢٠٠٦ (٢٠٠٠ د)
٩-١٠. روايات الآلام والقيامة/ بحسب الانجيليين الاربعة	تأليف: أ. بيير بنوا تعريب: أ. بيوس عفاص	٣٣٦ص/٢٠٠٦ (٢٥٠٠ د)
١١. يسوع الذي هو المسيح	تأليف: أ. برنار راي ت: م. جرجس القس موسى	١٣٦ص/٢٠٠٧ (٢٠٠٠ د)
١٢. من اجل ايمان جاد/ الايمان بحسب القديس يوحنا	تأليف: ك.كارلو مارتيني تعريب: أ. البير ابونا	١٧٦ص/٢٠٠٨ (٢٠٠٠ د)
١٣. الانجيل بحسب القديس متى/ سلسلة تفاسير ١	تأليف: كلود تاسان تعريب: أ. بيوس عفاص	٢٨٨ص/٢٠٠٨ (٢٠٠٠ د)
١٤. مذكرات مريم، فتاة الناصرة	تأليف: جاكلين هوري ت: م. جرجس القس موسى	٢٨٨ص/٢٠٠٩ (٢٠٠٠ د)
١٥. الانجيل بحسب القديس يوحنا / سلسلة تفاسير ٤	تأليف: آلان مرشدور تعريب أ. بيوس عفاص	٢٨٠ص/٢٠٠٩ (٢٠٠٠ د)
١٦. رسائل القديس بولس/ج١: ١و٢ قورنتس/سلسة تفاسير ٦	تأليف: بول دي سرجي موريس كاريس ت: م. جرجس القس موسى	٢٣٢ص/ ٢٠١٠ (٣٠٠٠د)
١٧. رسائل القديس بولس /ج٢: (روما وغلاطية) / سلسلة تفاسير ٧	تأليف: جان- بيير ليمونون تعريب: الاخت باسمة الخوري	٢١٦ص/ ٢٠١٠ (٣٠٠٠د)
١٨. رسائل القديس بولس / ج٣: (الرسائل التسع الاخرى)/سلسلة تفاسير ٨	تأليف: شانتال رينييه ميشيل تريماي تعريب: أ. البير ابونا	٣٤٠ص/٢٠١١ (٣٠٠٠د)

"(وتؤلف الاجزاء الثلاثة الاخيرة "ثلاثية" تغطي رسائل بولس الثلاث عشرة

تباع بسعر خاص : ٧٠٠٠ د. فقط)

١٩. الرسائل الاخيرة/ سلسلة تفاسير ٩ (عب، يع، ١و٢ بط، ١-٣يو، يه)	تأليف: ادوار كوتنيه ميشيل موركن، البير فانوا تعريب: أ. فادي مسلم	٢٤٨ص/ ٢٠١١ (٣٠٠٠د)
٢٠. الانجيل بحسب القديس مرقس- سلسلة تفاسير ٢	تأليف: جاك هيرفيو تعريب: الاب بولس الفغالي	٢٤٠ص/٢٠١٢ (٣٠٠٠د)
٢١. الانجيل بحسب القديس لوقا- سلسلة تفاسير ٣	تأليف: هيك كوزان تعريب: الاب بيوس عفاص	٣٢٠ص/٢٠١٢ (٢٥٠٠ د)

الاناجيل الأربعة مجتمعة تباع بسعر خاص : ١٠٠٠٠ د. فقط

يظهر عام ٢٠١٢

٢٢. سفر أعمال الرسل- سلسلة تفاسير ٥	يظهر في اوائل ٢٠١٣
٢٣. سفر الرؤيا- سلسلة تفاسير ١٠	يظهر في خريف ٢٠١٣

سلسلة تفاسير
(Commentaires)

عشرة أجزاء تغطي بالتفسير للعهد الجديد برمته، بقلم اختصاصيين فرنسيين في العلوم البيبلية. عمدت دار بيبليا عام ٢٠٠٨ الى ترجمتها ونشرها بمعدل كتابين في السنة.

ظهر منها ١١ أجزاء:

١. الانجيل بحسب القديس متى/١ — تعريب الاب بيوس عفاص/ ٢٨٨ص-٣٠٠٠د.
٢. الانجيل بحسب القديس يوحنا/٤ — تعريب الخوري بولس الفغالي/ ٢٨٠ص-٣٠٠٠د.
٣. الرسالتان الى القورنثيين/٦ — تعريب المطران جرجس القس موسى/ ٢٣٢ص-٣٠٠٠د.
٤. الرسالتان الى روما وغلاطية/٧ — تعريب الاخت باسمة الخوري/٢١٦ص-٣٠٠٠د.
٥. الرسالتان التسع الاخيرة/٨ — تعريب الاب البير ابونا/ ٣٤٠ص-٣٠٠٠د.
٦. الرسائل الاخيرة/٩ — تعريب الاب فادي مسلم/ ٢٤٨ص-٣٠٠٠د.
٧. الانجيل بحسب القديس مرقس/٢ — تعريب الخوري بولس الفغالي/ ٣٤٠ص-٣٠٠٠د.
٨. الانجيل بحسب القديس لوقا/٣ — تعريب الاب بيوس عفاص/ ٣٢٠ص-٣٥٠٠د.

ثلاثية رسائل القديس بولس الثلاث عشرة مجتمعة [٣ أجزاء]: ٧٠٠٠د.

الاناجيل الاربعة مجتمعة [٤ أجزاء]: ١٠٠٠٠د.

يظهر عام ٢٠١٣

٩. سفر اعمال الرسل/٥ — تعريب الاب ايوب شهوان
١٠. سفر الرؤيا/ ١٠ — تعريب المطران جرجس القس موسى

فهرس

كلمة الناشر	٧
١. بمثابة مقدمة	٩
٢. يوم التحرير: الآن علمت!	١٣
٣. وكان مساء وكان صباح يوم أول!	١٩
٤. الليلة الاولى: ويا لها من ليلة!	٢٥
٥. وكان مساء وكان صباح يوم ثانٍ	٣١
٦. وفي مساء ذلك اليوم، يوم الأحد...	٣٩
٧. وكان مساء وكان صباح يوم ثالث	٤٥
٨. وكان مساء وكان صباح يوم رابع	٥١
٩. وكان لليوم الرابع امتداد!	٥٩
١٠. وكان مساء وكان صباح يوم خامس	٦٧
١١. وكان مساء وكان صباح يوم سادس	٧٥
١٢. واستراح الله في اليوم السابع من عمله...	٨٥
١٣. وكل غد لناظره قريب!	٩٣
١٤. ... وكان يوم الفرج: اليوم الاول من الاسبوع	١٠١
١٥. ها أنا اجعل كل شيء جديداً	١٠٩
١٦. ١٨ ايلول ١٩٦٢: بدء الحياة المشتركة	١١٧
١٧. خمسون عاماً في مار توما!	١٢٩
١٨. قصتي مع الفكر المسيحي!	١٣٩
١٩. في الستينات: شاب بين شباب	١٤٩
٢٠. سنوات الغربة (١٩٧٢-١٩٧٦)	١٥٩
٢١. الفكر المسيحي في يوبيلها الفضي (١٩٦٤-١٩٨٩)	١٧١
٢٢. مشواري مع الدراسات الكتابية	١٨١
٢٣. ... حبل بها ابان الحرب! وابصرت النور ابان سنة سبتية!	١٨٩
٢٤. لقد صار لنا متحف!!!	١٩٩
٢٥. عشية ذكرى الـ ١٥٠ عاماً	٢٠٩
٢٦. بمثابة خاتمة	٢٢٣
- ملفات الكتاب المقدس	٢٢٧
- مختارات الفكر المسيحي	٢٢٨
- سلسلة ابحاث كتابية	٢٢٩
- سلسلة تفاسير	٢٣٠
- كتب للمؤلف	غلاف ٣

انجزت مطبعة الديوان طبع هذا الكتاب في ٢٥ شباط ٢٠١٣

كتب للمؤلف

• في سلسلة "امسيات الأحد"/ الآباء البولسيون- حريصا

العدد ٤٧: العلماء والدين العدد ٥٢: الكسي كارل

• في سلسلة "الفكر المسيحي"/ الموصل (١٩٦٤-١٩٨٠)

الأعداد: ١. الكنيسة عبر القارات، ٩. صندوق الاسئلة، ١٥. صندوق الاسئلة ٢٠، العلم والدين، ٢٣. صندوق الاسئلة، ٣٠. الانبياء، اعلنوا المسيح، ٤٥. صندوق الاسئلة، ٤٩. هل الايمان عثرة؟، ٥٦. صندوق الاسئلة.

• في سلسلة "كلام الله"/الآباء الدومينيكيون

- الكتاب المقدس والانجيل / العدد ٥ — الموصل ١٩٦٢
- لوقا، انجيلي المخلص / العدد ١١ — الموصل ١٩٦٤

• في سلسلة "الحياة الروحية" / دار المشرق

- صل لتحيا: الاب رنيه فوايوم — بيروت ١٩٨٠ (ط٤ ١٩٩٩)

• في سلسلة "دراسات في الكتاب المقدس"/دار المشرق

٢٢. الله ابونا: الاب جان بويي — بيروت ٢٠٠٠

• في سلسلة "ابحاث كتابية"/بيبليا للنشر

١. قراءة مجددة للعهد الجديد (تأليف)	الموصل ١٩٩٩
٢. يسوع الذي من الناصرة/بقلم مرقس الانجيلي	الموصل ٢٠٠٢
٣. قراءة في العهد القديم/ج١ قبل الجلاء	الموصل ٢٠٠٣
٤. قراءة في العهد القديم/ج٢ من الجلاء الى يسوع	الموصل ٢٠٠٤
٥. قراءة في العهد الجديد/ج١ الاناجيل الاربعة	الموصل ٢٠٠٤
٦. قراءة في العهد الجديد/ج٢ اعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا	الموصل ٢٠٠٤
٩-١٠. روايات الآلام والقيامة	الموصل ٢٠٠٦
١٣. الانجيل بحسب القديس متى (سلسلة تفاسير/١)	الموصل ٢٠٠٨
١٥. الانجيل بحسب القديس يوحنا (سلسلة تفاسير/٤)	الموصل ٢٠٠٩
٢١. الانجيل بحسب القديس لوقا (سلسلة تفاسير/٣)	الموصل ٢٠١٢

• في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"/بيبليا للنشر

- اسئلة واجوبة (٣) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠٠٦
- افتتاحيات (٤) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠٠٧
- من وحي الانجيل (٦) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠٠٨
- خواطر وشذرات (٧) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠٠٩
- المختار في الاعداد الخاصة (٨) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠١٠
- كتاب رحلوا وتركوا أثراً (٩) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠١١
- ملفات الفكر المسيحي (١٠) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠١١
- من البيدر العتيق (١١) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠١٢
- ثلاثون عاماً مع القلم (١٢) -اعداد وتقديم	الموصل ٢٠١٢

• في ملفات "الكتاب المقدس"/بيبليا للنشر

(١) الحديث عن القيامة/ايلول ٢٠٠٠، (٢) الافخارستيا/كانون الاول ٢٠٠٠، (٥) ما وراء الموت/تموز ٢٠٠١، (٩) قراءة في مؤلف لوقا/تموز ٢٠٠٢، (١١) اناجيل الطفولة/كانون الثاني ٢٠٠٣، (١٩) انجيل يوحنا/كانون الثاني ٢٠٠٥، (٢٤) ارميا النبي/تموز ٢٠٠٦، (٢٨) اوجه يسوع/نيسان ٢٠٠٧، (٣٢) الآلام بحسب انجيل لوقا/نيسان ٢٠٠٨، (٣٧) حين يتكلم الله/تموز ٢٠٠٩، (٤١) واعطاها اسماً/تشرين الاول ٢٠١٠، (٥١) ينابيع وابار/كانون ٢/٢٠١٢

- الصحافة المسيحية (تحليل الفكر المسيحي) اطروحة بالفرنسية/لوفان ١٩٧٦
- كنيسة مار توما، في ماضيها وحاضرها (مستنسخ) بيبليا للنشر-الموصل ٢٠٠١

حين فُكَّت قيودي ودخلت من جديد في صندوق السيارة، ومن ثم انفتحت عيناي المعصوبتان على نور الشمس... أول ما حضرني كانت كلمات القديس بطرس الذي سقطت السلاسل من يديه وانفتحت له أبواب السجن ووجد نفسه وحيدا في العراء، فقال: "الآن علمت ان الله أرسل ملاكه فأنقذني من يد هيرودس ومن كل ما يتوقع شعب اليهود"!

[...] هكذا نحن أيضا، ابان المحنة ولا سيما بعدها، أدركنا كم حرك اختطافنا، وفي كل مكان، من دموع سكبت، وقلوب تضرعت، وأياد استغاثت، وألسنة رفعت الصوت عاليا، مستنجدة حينا ومحتجة حينا آخر، وفي كل الاحوال واثقة أن يسوع هو رب المستحيل!

ليت تلك الخبرة تواصل فعلها، فتحملني على الجري لخدمة الكلمة، بالرغم من كل المعوقات... اذ لا بد لكلمة الله من أن تبقى "غير مُقيّدَة"!

سلسلة روافد/٢
مختطف يعيد قراءة حياته
بقلم الأب بيوس عفاص
شركة الديوان للطباعة والنشر
بغداد - العراق
يطلب من مكتبة بيبليا - كنيسة مار توما
الموصل - العراق
سعر النسخة: ٣٠٠٠ دينار
٢٠١٣